أبناء النيل

رواية

تأليف: محمد مارمادوك بكتال

ترجمة: سمير محفوظ بشير

الدار المصرية اللبنانية

أبناء النيل

رواية

تأليف: محمد مارمادوك بكتال

ترجمة: سمير محفوظ بشير

الدار المصرية اللبنانية

أبناء النيل

رواية

بكتال، محمد مارمادوك.
أبناء النيل: رواية / تأليف محمد مارمادوك بكتال؛ ترجمة سمير محفوظ بشير
.– ط 1.– القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
336 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 – 976 – 427 – 977 – 978
1– القصص الإنجليزية.
أ– بشير، سمير محفوظ (مترجم)
ب– العنوان 823
رقم الإيداع: 3840 / 2015

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: رجب 1436هـ – أبريل 2015م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في
هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا
أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

أبناء النيل

رواية

تأليف:محمد مارمادوك بكتال

ترجمة:سمير محفوظ بشير

الدار المصرية اللبنانية

سطور عن الكاتب
محمد مارمادوك بكتال

ولد هذا المؤلف عام 1875 في إنجلترا، وبعد خمس سنوات توفي والده القس..ارتحلت العائلة بعد ذلك إلى لندن، ودخل مدرسة هارو، وكان من أعز أصدقائه ونستون تشرشل.. لم يستكمل محمد مارمادوك بكتال تعليمه، وبسبب صحته المتدنية، فضل أن يرحل إلى الشرق، ووصل إلى بورسعيد وعمره 18 عامًا. في مصر تعلم اللغة العربية، ثم سافر بعد ذلك إلى فلسطين وسوريا.. كان مقتنعًا بالدين الإسلامي، ولكن خوفا من تأثير تحوله على أمه، وبناءً على نصيحة شيخ في دمشق، أجَّل موضوع تحوله.. ثم سافر بعد ذلك إلى إنجلترا، وتزوج وامتهن كتابة القصص والروايات، وقد لاقت روايته الثانية «سيد الصَّياد» مدح النقاد وكبار الكتاب.. كان متشوقًا للمعيشة في بلدان الشرق؛ ولذا أتيحت له الفرصة أن يرحل مجددًا إلى مصر، وهناك ارتدى الملابس الشرقية، وجاب مدنها، وحضر بنفسه مولد السيد البدوي، وأصبح خبيرًا في النحو والشعر العربي والتاريخ. كتب يومًا: «عندما أقرأ قصص ألف ليلة وليلة، أشاهد بعيني طابع الحياة في دمشق، وأورشليم والقاهرة، أشعر كأنني أعيش في زمن التسعينيات من القرن الثامن عشر، ومما لفت نظري أنه على الرغم من فقر الشرق، إلا أن الأهالي يعيشون في حالة من الفرح والمرح لم أشاهد لها مثيلًا. في أوروبا، يبدو الناس منشغلين باهتمامات العالم، حيث إن جل اهتمامهم ينصب على زيادة الثروة، وكذلك الخوف من الموت».

كان ينظر إلى الإسلام باعتباره ممثلا للحرية الراديكالية، حرية من جور الدولة، ومن مخالب الذات، ومن التعصب الطائفى».. وقد علقت إحدى الصحف الانجليزية عام 1930 بقولها « كان مستر مارمادوك دائمًا محبًّا للإسلام، وعندما أسلم نظر إلى ذلك باعتباره أقل من أن يكون مجالًا للنقاش، وأكثر من كونه اكتشافًا للذات».

كتب له هـ. ج ويلز خطابًا، قال فيه: «كنت أتمنى أن أشعر باليقين بشأن أعمالي الروائية، كما هي أعمالك، من أنها سوف تسعد الناس، ولو بعد خمسين عامًا من الآن».

في سنة 1914، أعلن محمد مارمادوك بكتال نفسه مسلمًا، وكتب: «أعتبر نفسي مسلمًا سنيًّا تابعًا للمذهب الحنفي»، واشترك في الحرب العالمية الأولى، واشترط ألا يكون محاربا لتركيا؛ لذا جعلوه مشرفًا على مستشفى تعالج الأنفلونزا.

قضى بعد ذلك سنة في لندن، يخطب ويعظ في جامع لندن، ويشرف على مكتب الاستعلامات الإسلامي، الذي كان يصدر جريدة «المنظر الإسلامي»، التي كان يمولها المسلمون الهنود»، ثم رحل بعد ذلك إلى الهند ليصبح رئيسًا لتحرير جريدة «أخبار بومباي»، وكان صديقًا لغاندي، يرفض تقسيم الهند بين الهندوس والمسلمين، وأصبح خبيرا في لغة الأوردو، يصلي ويخطب بها في جامع بيجابور، ثم أصبح ناظرًا لمدرسة إسلامية في منطقة يحكمها النظام حيدر آباد. وفي الفترة بين عامي

29-31، أعطاه النظام أجازة؛ لكي يطبع ترجمة القرآن الكريم ، فحضر إلى مصر، وتناقش في هذا الشأن مع شيوخ الأزهر، أمثال: الشيخ محمد شاكر ومصطفى المراغي. وبعد لأي ورفض عنيف، وافقوا على نشر هذه الترجمة التي استفاد منها من لا يحسنون النطق باللغة العربية، وتم ترجمتها بالتالي إلى لغة التاجاجوج (لغة الفلبين) والتركية والبرتغالية.. وتوفي عام 1936.

ومن أهم مؤلفاته الشرقية الآتي:

سيِّد الصَّياد عام 1902

بيت الإسلام عام 1906

أبناء النيل عام 1908 (جو مصري)

وادي الملوك عام 1909 (جو مصري)

نسوة يرتدين النقاب عام 1916 (جو مصري)

بيت الحرب عام 1913

مع الأتراك زمن الحرب عام 1914

فرسان العرب عام 1917

مصادفات شرقية عام 1918

الساعات المبكرة عام 1920

القرآن الكريم عام 1930

معاني القرآن الكريم عام 1931

بالإضافة إلى 6 روايات ذات طبيعة أوروبية، وعديد من القصص القصير.

الفصل الأول

زوج من المراتب، وعدد من الوسائد الكالحة، وقليل من القلل الفخارية، مركونة على جانب من الغرفة، كانت تمثل كل أثاث الغرفة، التي شغلها مبروك أفندي، الطالب في مدرسة الطب، الجالس الآن يقرأ في كتاب مطبوع.. إنها غرفة واسعة، كانت الجدران يومًا مزدانة بالزينات والنقوش، ولكن معظم الطلاء انزاح الآن، وغادر مكانه منذ زمن بعيد. كان هواء الشتاء البارد يتسرب خلال مشربية متهالكة مدمرة، يصاحب ذلك الزمامير المرحة الصاخبة، ودب- دب- دب لعدد كبير من الطبول الصغيرة - صادرة من منزل مجاور، يحتفلون فيه بطهور أحد الأبناء. لقد وجهت لمبروك دعوة لحضور هذا الحفل، ولكنه اعتذر بكل أدب؛ حيث إنه ينتوي أن يسافر إلى قريته، التي تقع في حضن الدلتا، في فترة ما بعد الظهر، فقد أرسل له والده خطابًا محيرًا، يدعوه فيه أن يحضر حالًا، ولكنه في الوقت الحالي، نسي كل شيء.. فقط جلس فوق المرتبة، متقاطع الساقين، بينما انزاح طربوشه إلى الخلف بقدر ما يمكن، وأمسكت يده كتابًا مقربًا للغاية من عينيه، مستدعيًا كل مشاعره باهتمام بالغ.

هذا الكتاب هو ترجمة عربية لقصة غرامية فرنسية، كان مبروك يقرأها للمرة الخامسة أو السادسة.. كانت القصة تحكي كيف أن النبيل شارلاس كان هائمًا ومغرمًا بالفتاة كاميل، الفائقة الحسن والجمال والأصل، تلك التي تفزع دومًا من اشتمام أي رائحة كريهة؛ فهذا يتسبب في دخولها طَوْرًا مرضيًّا كئيبًا، وأي رائحة منفرة تشتمها من الحبيب ربما قتلت كاميل الجميلة، ولكن شارلاس هذا كانت تصدر من كل مسامه أزكى الروائح، وبكل كياسة وذوق، يقترب من الحبيب. حتى، عندما دبر موضوع اختطافها، استطاع أن يواجهها في منزل منعزل نصف الليل.. كان لباسه رائعًا، مغريًا في جماله وحسنه؛ لذا كثيرا ما كان يغمى عليها جراء ما تشعر به تجاهه من ميل وإغراء. ومع ذلك، كانت كاميل تقاوم بشدة اندفاعاته، التي تشعلها عواطفه الملتهبة، وأخيرًا تسامت هذه العواطف، وظهرت في شكل دموع مدرارة يصعب منع انهمارها؛ لذا اندفع الشاب يقبل قدميها راجيًا الحصول على الحياة ذاتها، فلما تأكدت أنها سوف تحصل على مركز الزوجة، رقَّ قلبها أخيرًا، ووافقت أن تمنحه متعًا علوية.

«يا لها من بنت!»، تأوه هذا الطالب، وهو يضم إلى نفسه جسده بكلتا يديه في إعجاب بالغ، ثم أردف قائلًا: «والله العظيم، هذه العذراء عرفت إزاي تلعبها حلو!».

وبينما هو على حاله هذه من وجدٍ وافتتان، دخلت إليه زوجته تحمل طفلة بين يديها. كانت الزوجة تتشح بلباس أسود كامل، يغطي رأسها حتى قدميها، ولا تظهر منها سوى عينين واهنتين مكحلتين، فوق البرقع الأبيض، الذي يغطي وجهها. وعندما لم يبد مبروك أي انتباه لدخولها، عبرت حتى مكان المشربية ونظرت أولًا عبرها، ثم أخذت تخبط فوق الخشب؛ لكي تلفت انتباهه.

أخيرًا نطق:

- «إيه يا زينب، فيه إيه؟».

- «يا حبيبي، حان الوقت. وأنا مستعدة، محمد والسقا واقفين تحت جنب العربية الكارو، عشان الشنط والحاجات».

- «طيب روحي انتي معاهم.. فلوس التذاكر حتلاقيها معاه. أما عني، فأنا منتظر ثلاثة من أصحابي وعدوني يروحوا معايا المحطة». ثم أدار وجهه، وواصل القراءة متأففًا.

لكن الدربكة التي شملت المسكن كله، وكذلك دخول محمد مصطحبًا الحمَّال، مع تحياتهم وسلاماتهم، ومع توجيهات زينب.. كل هذا كان من نتيجته أنه توقف عن القراءة. ولكن عندما ساد الهدوء مجددًا، أدرك أن الوقت قد حان لأن يرحل؛ لذا أنهض نفسه مسرعًا، منتويًا أن يترك رسالة شفوية لأصدقائه مع البواب، لكن وهو واقف خارجًا، يملي على البواب النوبي العجوز تعليماته، ذاك البواب الذي كان مستمتعًا بالهيصة الموسيقية؛ مما تعذر عليه أن يسمع شيئًا، حضر أصدقاؤه بالفعل، ومن ثم تحركوا جميعًا متجهين نحو محطة السكة الحديد.

صاح أحدهم، بعدما انتهت موجة التحيات والسلامات:

- «إيه رأيك في الأخبار اللي سمعناها؟».

- «والله كنت داخل البيت طوال النهار، ولم أسمع شيئًا غير المزيكة عند جيراننا، إيه الأخبار اللي قلت عليها؟».

- «أنت بالطبع عارف أن هناك ثلاث بهوات معتبرين في الجيش، همّا علي فهمي، عبد العال حلمي وأحمد عرابي – دول اللي أعلنوا غضبهم على التعليمات الجديدة، من أنه لا يرقى أي واحد من ولاد البلد، وطبعًا ده كان في مصلحة الأتراك والشركس، وإزاي هما كتبوا لمجلس الوزراء طالبين إلغاء المرسوم ده، وطلبوا أيضًا إقالة عثمان بك الشركسي، مع تعيين واحد من ولاد العرب عشان يشغل وظيفة وزير الحربية، وإزاي إنه تم استدعاؤهم إلى قصر النيل، وهناك تم سجنهم.

لكن إمبارح الصبح تحركت فرقة عرابي بك المسلحة لغاية قصر النيل، واقتحموا غرفة المحاكمة وهي منعقدة؛ وكسروا كل زجاج الشبابيك والأثاث؛ مما اضطر وزير الحربية إلى إنه يهرب من الشباك، أما أفلاطون باشا، فإنه مات وهو قاعد في مكانه».

- «الله يرحمه!».

- «لا، لكن آخر الأخبار بتقول إنه اتعور بس».

- «اتعور أو اتقتل، الموضوع خطير، والجماهير رفعوا الضباط الثلاثة على أكتافهم، وهم يهللون متجهين ناحية عابدين، وعند الميدان انضم ليهم فرقتين، وهم جميعًا منتظرين هناك، مهددين بأذية أفندينا إذا لم يستجب لطلباتهم في الحال، وأنا عن نفسي قضيت ساعة وسط المجتمعين. منظر هايل يا إخواننا، ولكنه مخجل بالنسبة لبلادنا المتحضرة!».

- «مجلس الوزراء ده متواطئ مع جنابه من زمان، ولكن نتيجة مداولاتهم لم تتضح بعد. المعركة دي تخص العساكر فقط، ليس لنا مصلحة فيها، ولكن إذا خرج الجيش للشوارع وهما متسلحين ومتجننين، قول السلام على أمان الناس المسالمين البسطاء».

هنا التفت إليهم سائق الحنطور، مبديًا اهتمامه بالمناقشة: «بالإذن
يا حضرات، أحب أقول لكم إن عرابي بيه هو شخص أعرفه تمام- راجل مخلص وحقّاني، دائمًا يعطف على الفقراء- وأكثر من كده، هو بني آدم واصل، اتجوز أخت زوجة من زوجات أفندينا في الرضاع المستبعدات – هو ابن فلاح، عشان كده الكل ينظر إليه ويترجاه – أما عثمان باشا، فقد أساء إليه من سنين، عشان كده اللي بيعمله دلوقتي يعتبر رد اعتبار».

أنهى الرجل حديثه، واستدار ملوِّحًا بسوطه، فتحرك الحنطور مرة أخرى.

قال واحد من الطلبة، وهو يضحك مستهجنًا: «والله، كل اللي قلته صح
يا حضرة الفاهم. فعلًا أحمد عرابي راجل محترم، وعلى الله يغلب كل عدوينه!»

- «لا، بأه عن إذنكم يا أصدقائي وحبايبي، الراجل ده المفروض إنه يعاقب، وإلا بسبب التهاون تلاقي العساكر يثوروا بعد كده مع كل عضة ناموسة. في الحقيقة، أليس ما حدث اليوم هو نتيجة لما وقع من سنتين، لما الخديوي إسماعيل سلَّط على المفتشين الإفرنج؟ الأب يزرع والابن يحصد. لن يكون هناك سلام بعد كده في البلاد، ولا ضمان للناس الغلابة اللي في حالهم».

كانوا يسيرون الآن في الحي الحديث من المدينة؛ حيث تنتشر الشوارع الواسعة، ومجموعات المباني، التي بلا ملامح محددة تعطي ملمحًا حضاريًّا. بعض من المركبات السائرة كانت محملة بسيدات أوروبيات جميلات، لاحظوا واحدة منهن، وهي تحني رأسها لرجل إفرنجي يسير على قدميه، وهذا خلع قبعته ردًّا للتحية. بهذه الحركة البسيطة، تذكر مبروك شارلاس وحبيبته كاميل؛ لذا فقد حاسة الاستماع – لبرهة - لما يتداول من أحاديث بين أصدقائه، وأخيرًا سمع أحدهم يقول: «شيء مؤسف إن مبروك يغادرنا وسط الأحداث الجارية هنا، وعلى الله يرجع بكرة. عارف يا مبروك إن فيه يا ما حرامية منتشرين في المكان اللي أنت مسافر ليه؟ وهناك تمارس كل أنواع الرذائل والتصرفات البربرية كل يوم. هي منطقة موبوءة لا تستحق شاب زيَّك».

ازدرى مبروك بفكرة أن اللصوص منتشرون هناك، ولكنه اقسم أنه سوف يعود إلى المدينة بأسرع ما يمكن، وأثناء حديثهم وصلوا إلى محطة القطار، وما أن رآهم محمد السقا قادمين، وهو واقف على باب المحطة، حتى أسرع بمناولة مبروك تذكرته واستعجله بالقول بأن القطار سوف يتحرك في أي لحظة الآن. سار الأصدقاء على الرصيف، وعندما صاح أحد المسئولين بالمحطة « أسرعوا عن كده»؛ اقتضب مبروك عبارات الوداع، وأسرع قافزًا داخل القطار، الذي بدأ يتحرك وئيدًا. وجد مبروك نفسه في عربة مليئة بالفلاحين متوسطي الحال، الذين تركوا له بكل لطف مكانًا يجلس عليه.. كان معظم الرجال الفلاحين يلفون رؤوسهم بشال يغطي الرأس المعمم؛ اتقاءً لشر هواء الشتاء، الذي طالما آلم أسنان الأطباء.

كأمر معتاد، قال: «السلام عليكم».

لدهشته البالغة لم يسمع ردًّا على تحيته، فلم يستقبل سوى نظرات باردة، إلى أن قام رجل عجوز بالتعطف عليه قائلًا: «السلام على المؤمنين!».

أحس بصدمة عندما أدرك أنهم يظنونه من الكفار، وهذا ما فطن إليه سريعًا؛ حيث ظهر واضحًا على وجوههم بعض علامات التعجب، وقال واحد أو اثنان: «الله أكبر!».

كانت عادة ارتداء الملابس الإفرنجية تحت الطربوش تنتشر رويدًا في المدينة في أوساط الشبان المسلمين، ذوي الأفكار التقدمية، ولكن في بقية المديريات، كانت هذه العادة محدودة، وتتركز فقط في أوساط الأقباط والسوريين؛ لذا كان ما تعرض له مبروك من العوامل والتوجهات الحضارية، خلال الشهور القليلة الماضية، يسيئ تقدير مدى انتشار ذلك التحفظ المنتشر خارج العاصمة.

ولكي يتجنب حملقتهم، وهذا ما أزعجه، ركز أنظاره على ما يجري أمامه خارج القطار؛ إذ لاحظ المناظر، وهي تتسلل واحدًا بعد آخر خارج النافذة، ثم الزراعات التي تمتد حتى خط من التلال المنخفضة، تشبه في لونها ظهر الأسد، فهذه هي حدود الصحراء. أما السواقي وتجمعات النخيل، وسط تجمعات الأكواخ والعشش الطينية، فإنها تظهر كأنما تستقر في جزر منعزلة.. شاهد مبروك الحقول وهي تتضح بالحياة: رجال ونساء يحرثون أو يحصدون البرسيم الأخضر، أطفال يرعون الجاموس رمادي اللون، كذلك قطعان الماشية بلونها البني، أو الجمال التي تقتات الحشائش الخضراء، بينما على طول الحاجز البعيد، تحركت جماعات من الفلاحين، والجمال، والثيران، والبغال. لكن الأكثر تواجدًا هي الحمير، مثيرين جميعًا سحبًا من الغبار، تجلت واضحة للعيان بفضل الشمس الغاربة.

شعر مبروك أفندي بالانزعاج من تلك المناظر التي تدعو للأسى؛ لذا حاول أن يشغل وقته بالقراءة، ولكن بدا له أن كلًّا من شارلاس وكاميل يبتعدان عنه كما فعلت المدينة، ظهرا أمامه على شكل قزمين بلا تحديد، وكان الحديث الذي يجري بين من جلس بجوارهم يلفت انتباهه. واحد منهم – وهو شاب صغير، كان مقرفصًا على المقعد الجانبي – أخرج من عبه نايًا من البوص، وأخذ يعزف عليه وهو حالم، أما الآخرون، فكانوا مشغولين بالحديث فيما جرى اليوم من أحداث، مبدين أسفهم عما فعله هؤلاء الضباط الثلاثة؛ حيث إن هذا سوف يزيد من درجة وقاحة العسكريين، ويتسببون بذلك في حدوث مصائب ومحن تلحق برخاء البلاد، كما أن هذا قاد إلى عمل مقارنات في أسعار بذور القطن والحبوب والمنتجات الأخرى، ثم اندرجوا ناحية الشكوى من جباة الضرائب، وبعدها تناولوا أفكارًا متعددة؛ إذ ذكر أحدهم سيرة ذلك اللص الشهير في المنطقة، وهو محمد النوري، الذي ظل على مدى شهرين، ومعه عصابته، يزرعون الرعب في تلك الجهة التي يقتربون إليها، فقد قيل إنه هاجم قرى بأكملها ليلًا متسلحًا مع عصابته بالبنادق، وكان يقود أمامه السكان، ثم يسلب منازلهم.

عند هذه النقطة، لم يستطع مبروك أن يصمت، صاح قائلًا: «دي مصيبة، عار أن يحصل هذا في بر مصر، وهي أكثر الأمم حضارة، كما تذكر الدراسات التاريخية، وواجب على كل إنسان أن يساعد الحكومة لكي يقبضوا على هذا السفاح ويقضوا عليه، بكده يرتاح أهالينا ويتقدموا في طريق الحضارة والتمدين». بكل حماس وحمية، كان يتنبأ بيومٍ، سوف يشعر فيه كل مصري بقيمته ونفعه، كما فعل النبيل شارلاس.

استمع إليه الفلاحون أولًا في صمت، وهو ينطق بكلمات لا يفقهون معناها، أخذ كل واحد منهم يبتسم للآخر، مبديًا ملاحظة من أن هذا الشاب يتحدث بكلام مضبوط. ولكن ما أن وصلت معاني خطابه إلى وجدانهم، حتى حدثت همهمات مخالفة تمامًا لآرائه، وبرزت هزات مكتومة للأكتاف.. صاح أحدهم، «بتقول حضارة وتحضر! يا سلام، الحضارة اللي بتقول عليها تنفع في المدينة، لكن إحنا فلاحين. أما عن محمد النوري، إذا قبض عليه الحكام، إذًا عليهم أنهم يعاقبوه، ده شغلهم، ما شأننا إحنا؟ الحكومة عارفة شغلها وإحنا عارفين شغلنا. أنت أكيد حصلت لك أذية على إيدين الحرامي ده شخصيًّا، وده طبيعي اللي خلاك محموق بالشكل ده».

- «لا أبدًا، أنا بأتكلم للمصلحة العامة».

- «ده يا حبيبي مش شغلنا، ودا أمر الله.. المصلحة العامة ما حدش حيستفيد منها، خلِّي كل واحد يهتم بشغله. بالطبع الذوق والحضارة اللي بتقول عليها دي أمور لطيفة، ولكن من ناحيتي أفضل أن الضرايب تغور معاها».

ضحك الفلاحون وأخذوا يصفقون؛ بسبب مظهر العدالة التي تبدت في جملة زميلهم الأخيرة، وشاركهم مبروك الضحك متمازجًا معهم. وعندما توقف القطار أمام قريته، كان قد نسي تمامًا أنه يرتدي الملابس الإفرنجية؛ لذا شعر بصدمة، عندما وجد أباه، الشيخ مصطفى يصيح فيه: «إيه ده يا ابني؟». هذا أثار موجات من الضحك للواقفين على المحطة، وأبدى عدد من النسوة، اللاتي أحطن بزوجته زينب، ملاحظات قاسية على مظهر زوجها، لذا - وهو موجوع بسبب هذا الانتقاد - شعر أنه كخيال المآتة، عندما امتطى ظهر الحمار بجوار بغلة والده، ومع أنه سار متصدرًا موكبًا يزحف في الطريق، إلا أن إحساسه بالذات مع كل مشاعره الأخرى تهشم وخفت داخله، ثم بادره أبيه بالحديث:

- «يا ابني، أنت لم تسألني حتى الآن لماذا استدعيتك للحضور.. السبب بصراحة محزن للغاية، أقل ما فيه أنه أمر يمكن أن يخرب بيتنا، فأنت تعلم أنه بموت الباشا – الله يرحمه – فقدت بذلك أكبر ضهر ومساند لي، والآن بدأ أعدائي يتجرأون عليّ بعدما أصبحت بلا حماية، يودون خراب بيتي ويشنعون عليَّ؛ يتهمونني بأن طموحي كبير في مسالة مداومة تعليمك..

يؤلفون حكايات وروايات، فيما يختص بحجم ثروتي ويوغرون صدر الحكام ضدي، ويتمنون حرماني من منصب عمدة قريتنا، أما عما أملكه من أرض زراعية، فتلك الأرض التي لم تكن

تِسْوى شيئًا في نظرهم من قبل، قاموا الآن بتقييمها بثلاثة أضعاف قيمتها الحقيقية، ولدي أسباب تدعوني للشك في أنهم عايزين يستخدموا وسائل أكثر قسوة وصعوبة ضدي؛ فهم ينظرون إلى ما أملك من أرض، ويتحدثون كذلك عن تحملي لمصاريف تعليمك الكبيرة، وأخذوا في التلسين عليَّ من ناحية أني جعلتك تدخل أولًا الأزهر، ويقولوا لماذا لا ألقي بك في أي مكان آخر، مستعينًا برحمة الله، ومماثلًا لأي إنسان فقير.. لماذا أيضًا ألحقتك بمدرسة الطب، بحيث إنك ظهرت كأنك ابن عز وجاه؛ لذا فكرت أن أتماشى معاهم، ويعلم الله كم أن هذا يحزن ويؤلم قلبي وروحي، عندما فكرت أن أقطع عليك استكمال مسيرة مستقبلك العظيم، ولكن ذهني

لا يجد لنفسه مخرجًا آخر، فإذا حاولت أن أسحب منك المعونة الشهرية، فإنهم سوف ينظرون إلى هذا الأمر باعتباره رواية من الروايات، وإنه ادعاء كاذب، وهذا كله ما استطعت أن أكتب به إليك على يد الكاتب العمومي؛ ولذلك - بكل بساطة - دعوتك للحضور؛ لأقول لك، لا تعد إلى مدرسة الطب مادامت الأمور تسير بهذا الشكل؛ كن فلاحًا مثل أخيك، وربنا سوف يكافئك على هذا! دعوتك لكي تحرث الأرض وترعى الزرع، وهذا التصرف فقط هو التصرف، الذي سوف يقنع هؤلاء الناس بأنني فقدت الكثير من مالي وأصبحت فقيرًا».

وعلى الرغم من أن «مبروك» كان يبكي، إلا أنه أبدى قبولًا ورضى بمنطق أبيه. هذه المجموعة من السائرين صعدت أولًا فوق سد ترابي، ثم دلفت نحو مدخل جسر طويل مرتفع، يعبر النيل حيث تدق حوافر البهائم بصوت عال. وعلى الشاطئ الآخر، رأى مبروك، من خلال دموعه، قريته التي تحيط بها أشجار النخيل المتلألئة في ضياء الغسق الأزرق، بينما أسفل بعيدًا، على الشاطئ، جثا الرجال يتوضأون لصلاة المغرب، إذًا الآن، أين هي كاميل، أين شارلاس؟

في نهاية الجسر، انتظر جمع من الفلاحين لتحية القادمين، وارتفعت زغاريد النسوة، وصاح الرجال بكل أنواع التحيات، ووسط هؤلاء كان يقف هناك واقف رجل طويل قوي البنية لا يعرفه مبروك، فبادر الشيخ مصطفى بتقديمه إلى ابنه بنوع من الاهتمام والتوقير، «يا ابني، هذا هو محمد النوري اللي مشرف بلدنا»، فهمس مبروك لنفسه «الحرامي المشهور!».

***

الفصل الثانى

«دي ملابس إفرنجية معتبرة، ثلاث قطع خارجية، يعني بدلة كاملة، كمان قميص فانللا، هو وسخ نوعًا، لكن تقدر تغسله؛ كمان ثلاث ياقات، ونوع ممتاز من الزمام، الذي يوضع حول الرقبة. حسِّس على نوع القماش يا آخي، حاجة عظيمة فعلا! الصنعة ممتازة، شيء تفتخر بيه الإبرة والنول».

كان والد مبروك جالسًا على حافة المحل، يرسي أمامه كل قطعة من الملابس السابقة لمبروك أمام التاجر، والجالس داخل دكانه، والذي
لا يبد أي اهتمام، بل بكل عمق يسحب الدخان بمبسم شيشته، بينما الماء يقرقر داخلها، كأنما هو قط يموء بكل سعادة وصفاء.

أما مبروك نفسه، ذلك الفلاح الشاب، فإنه وقف وسط عدد من الفلاحين، يراقب تطورات هذا الصفقة بعد انقضاء أسبوع من قدومه. لم يعد التحضر هو الذي يهتم له، معتبرًا أن مناسيبها الحقيقية ليست سوى نوع من أنواع الرفاهية – عبارة عن خدعة وتقليد مصدره العقل، ليس له أي نفع أو قيمة أمام المخالطين الحاليين، شكل عارض يتفنن في إبرازه كل مشعوذ أو راوي حكايات بارع؛ إذ يشاهد الآن أمامه رفات حضارته، منشورًا أمام الجميع معروضًا للبيع، لا تصاحبه أي مشاعر سوى الرغبة والأمل في الحصول على ربح مجز من هذه الصفقة.

تجمع عدد كبير من الفلاحين، بشكل غير معهود، في أسواق هذه القرى ذات البيوت الطينية. لقد استرعت هذه الصفقة الانتباه، حتى إن البائعين تركوا محلاتهم، وكذلك أهملت النسوة استكمال مبيعاتهن؛ لكي يرى الجميع نهاية هذه المسألة.

قامت إحدى العجائز برفع يد معروقة قائلة:

- «الهدوم دي تخص الكفار!».

- «تقولي كفار يا بنت...! عفوك يا رب! ده ذنب عظيم تتحدثي بيه. أحسن وأجدع المسلمين يلبسوا زيه في المديرية». هذا ما نطق به الشيخ مصطفى، وهو يربت على الملابس في حب وإعزاز، «شوف يا عم الأزرار قد إيه، الزراير دي بس تساوي الشيء الفلاني».

بهذا، أصبحت مجموعة المراقبين عبارة عن جمهور كبير، وبدأ المتسولون الذين يتجمعون وسط كل موكب، في العويل على الحواف، أما بائع الترمس، فإنه غالَى في النداء على بضاعته بمناسبة هذا الاحتفال الشيق.

قال البائع، وهو ينظر فجأة تجاه مبروك:

- «أنت اشتريت الملابس دي من عند مِتْري اليوناني، اللي محله في مدخل شارع الموسكي؟».

- «دي والله كدب، أنا اشتريت البدلة من عند نصر السوري، اللي محله على نفس الجانب، وهو أحسن..»..

لكن قبلما ينهي حديثه، وثب نحوه والده غاضبًا، وصاح فيه قائلًا: «اسكت يا ابن الكلب! يلعن دينك! بوظت علينا البيعة. أنت تفهم إيه في اللبس؟ ما عندك أي ذوق ولا إحساس، نطقت ليه؟».

هذا العنف الجانبي أحيا في قلوب النظارة وأساريرهم بهجة طاغية، وتم نسيان البائع للحظات، الذي انحنى أمامهما ليفحص الملابس.

- «أنا أدفع ريال واحد في كل البيعة دي»، نطق ذلك باحتقار.

وثب والد مبروك إلى جانبه في ثوان: «قول كلامك ده تاني، مش مكسوف! الله وكيلي، ويا مالك الملك اسمع اللي بيقوله الراجل ده ريال عشان حاجات تساوي خمسة ريال على الأقل!».

- «خمس ريالات! مش ممكن، حسبي الله ونعم الوكيل؛ أنا راجل مسلم»، نطق البائع ذلك بكل وقار، ولا يستطيع أي نقاش يصدر من مبروك، أو والده، أو المراقبين الآن أن يزيد السعر عن ذلك ولو ببارة واحدة. عاد البائع إلى شيشته مستمتعًا، وكلما زاد ضجيجهم، فقد كل إحساس بوجودهم أصلًا. وظلت الأمور معلقة هكذا عند هذا الموقف اليائس، إلى أن ظهر فلاح طويل القامة قوي البنية خلف ظهر الجموع، ثم سلك طريقًا وسطهم، مستفسرًا عن الموضوع.

صرخ والد مبروك: «شوف يا محمد يا نوري، البياع اللي كنت اعتبره صاحب لي، عايز قال إيه، يديني ريال واحد بس على كل الحاجات، دي اللي قدامك».

وسَّع الرجل بين يديه؛ لكي يوضح مدى ضخامة حجم وقيمة البضاعة المعروضة، ثم مسح وجهه بيديه ببطء، كما يفعل المصلون بعد أداء فرض الصلاة.

بدا على وجه اللص نوع من الصدمة والحزن، فأخذ ينظر إلى البائع على جانب معاتبًا، يلعب في ذقنه، بينما تهامس المراقبون باسمه في خشية.

احتج البائع، وظهر على وجهه أنه غير مستريح، فقال: «تصور، حضرته عايز خمسة ريال على الحاجات دي، لكن لأنه هو صاحبك – شوف، أنا حأقبضه أربع ريالات، وده كل اللي في جيبي، والهدوم دي ما تسواش حاجة، أنا بأقدم المبلغ ده هدية، وعشان خاطر حبيبي الشيخ محمد النوري، ربنا يطول لنا في عمره!».

ما أن شاهد الجمهور أن البيعة قد انتهت، حتى تفرقوا.. البعض منهم كان مستاءً بسبب هذه النهاية السريعة. عاد معظم الفلاحين إلى القرية، ولكن محمد النوري استبقى «مبروك»، ويدًا بيدٍ قاده ليسيرا وسط الجدران الطينية، في اتجاه شط النيل.

هنالك، تحت ظلال شجرة جميز عجوز، مدا ساقيهما، يراقبان سربًا من الطيور ذات الجناح الأبيض، تطير جنوبًا باختيال.

تساءل اللص: «قل لي، ماذا انتويت؟».

منذ مقابلتهما الأولى عند نهاية الكوبري، حفظ محمد تقديرًا وإعجابًا بمبروك؛ بسبب ثقافته الواضحة والعبارات المنمقة التي يستخدمها في حديثه. أكثر من مرة كان يحثه أن ينضم إليه في عمله، واستمر في ذلك، منتظرًا أن يرضخ الشاب، ويقع ضحية لخداع مشاعره وأحاسيسه، ولكن مبروك ما زال مترددًا، إلا أن معاشرة البواسل، تؤدي إلى اكتساب البسالة طبقًا لعادة القبول الأعمى لما يكلف به المرء، إلا أن طباعه المعهودة تخبره أنه شخص طيب، يتميز بالكياسة والذوق، ويعتبر أن استخدام العنف من أجل العنف أمرًا مقيتًا مزعجًا؛ ولذا هز كتفيه قائلًا:

- «لا أستطيع».

- «أنت خايف؟ ليه؟ ما فيش أي أساس لخوفك.. مهمتنا إحنا إننا نزرع الخوف في قلوب الآخرين، مش نخاف. إذا حصل ومجموعة من الناس متسلحين، وما خافتش من طلعتنا، يمكن كده إننا نرتعد قدامهم. أكثر من كده يا روحي، أنا عندي حماية هايلة، واللي فوقي ناس مليانين وعندهم أسرار وعداوات كثيرة، ومحمد اللي جنبك ده، خنجر مستخبي تحت إيد قفاطينهم. يعني هل ممكن أي عسكري في البلد يستجري يوقفني؟ أحب كمان أقولك إن فيه شغلانة أعملها الليلة دي، وبإذن

الله أنت سوف تشترك فيها! هو أنا ممكن ألاقي صاحب غيرك؟ بالحق حديثك ومسامراتك خلتني لا أتحدث مع أي حد تاني».

زمجر مبروك قائلًا:

- «لكن الانتقام والأخذ بالثار، ده اللي سائد في كل القرى!».

- «مش حيحصل أي انتقام طالما ما فيش قتل، أنا لم اقتل أي حد طوال الشهور اللي فاتت، أما عن الفلاحين، فهما إذا شافوا حاجة تحصل، يقولوا دول ولاد ليل، اللي عملوا كده، أو هما حرامية الجبل».

لذلك قام محمد - وهو يشاهد الشاب ما زال مترددًا - بإخباره بقصة حياته لكي يطمئنه؛ فهو ليس من طائفة الغجر، فقد أطلق اسم النوري عليه كنوع من المزاح؛ ليصفوه بأنه شخص متشرد وشقي، وقد كان والده من مواليد بلدة (جبرتة) بالحبشة، أتى إلى مصر وتزوج من امرأة فيومية، واستقر هناك يعمل جزمتلي (صانع أحذية). عندما بلغ محمد العاشرة عمرًا، غادرت العائلة مدينة النخيل والجداول الباسقة والسواقي الناعبة، واتجهت شمالًا في الدلتا إلى مدينة دمنهور، وفي تلك المدينة سلك الولد مسلكًا شيطانيًّا؛ إذ كون أولًا لنفسه مجموعة من الأولاد النهّابين، الذين، بدأوا عملهم بالمزاح؛ مثلًا يقومون بنقل المعيز بالليل من الزريبة إلى أعلى السطح، أو تفريغ صوامع الغلال وملئها بالضفادع أو العقارب، وهي أفعال نسبت دائمًا لأفعال الجن والعفاريت – ثم واصل أفعاله؛ حيث دعته جرأته إلى أن يهاجم الناس.

وبهذا الأسلوب، أدرك محمد النوري أنه فتي يفوق العامة في كل شيء. في يوم، وبعد علقة تلقاها من والده، قرر أن يجعل مظهره ومخبره الرجولي مهنة له؛ لذا وهو مسلح بمسدس وخنجرين استولى عليهم من متاع والده، خرج ليحصل على المتعة والمغامرة. ولعدة سنوات، تجول محمد من مكان إلى آخر، إلى أن زار كثيرًا من البلدان المصرية، من دمياط حتى المنيا، وفي كل مكان يظهر فيه، ينضم إليه الأشقياء معتبرين إياه زعيمهم الطبيعي.. أكثر من مرة، كان خدام السلطة يقبضون عليه، وفي مرة بالمنصورة، قبض عليه وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولكن في الشهر الأول من الحبس، استطاع أن يهرب وواصل مشواره في العمل الإجرامي.

أخيرًا، ومحمد النوري بجوار شبين الكوم، صادفه الحب، وجعلته الفتاة يشرب من وعائها عندما يشعر بالتعب، وعندما استطاع أن يحصل عليها كزوجة نظير كل مدخراته، ظلّ في خدمة والدها.

ولكن شجاعته وجرأته المعهودة، دعت كل شخص يعاني من مشكلة خطيرة إلى أن يقصده ويلجأ إليه، ثم خضع لمقتضيات عملية كبرى، وساعد شخصًا معتبرًا في الجهة؛ ليحصل على إرث كبير. بعدها، عاد إلى سيرته الأولى في الحياة، وانتقل هو وزوجته وابنه إلى طنطا، ليعيش فيها بفضل صداقته للسلطات المحلية، لقد حضر إلى قرية مبروك، واستقر فيها منذ ثلاثة شهور.

كان مبروك ينصت له بنصف إصغاء، فقد كان باله مشغولًا بهذا العرض الجرئ، ثم استمعا إلى صفارة القطار الحادة، التي ذكرتهما أن النهار كاد أن يرحل، لذا قاما طائعين.

أخذ محمد يلاطف مبروك قائلًا: «ما تقول أيوه يا حبيبي وروحي.. أنا لن أطلب منك أي مساعدة، فقط تتحدث معايا. بعد الغروب، تعالى نروح الجبل مع بعض».

***

الفصل الثالث

خارج البلدة، عبر النهر من قرية مبروك.. كانت هناك قطعة أرض مخصصة لإلقاء الزبالة والردم، تبدو ملامحها العامة على شكل كومة هائلة من المخلفات، يقول عنها البعض إنها بقايا مدينة سابقة. أثناء النهار، تبدو تلك التلال السمراء وسط الحقول الخضراء، كأنها تجمع صحراوي وسط قلب الريف، أما في الليل، فإنها تصبح مسرحًا لأفراح مرعبة، ومطاردات تحدث بين الثعالب. البعض يقول إن الجن يمرح فيها؛ فهي مكان تصدح فيه أصوات كثيرة مرعبة غير محددة، وتسير خلال هذا الكوم العظيم ممرات، تكون خلالها وديانًا ضيقة، بينما يكون الردم على الجانبين تلالًا، قد تصل إلى عشرة أقدام ارتفاعًا؛ لذا تجد المسافر المرتعد، وقد انقطع عنه المنظر الثابت المعتاد للريف، فيجد نفسه منعزلًا داخل تلك الأحراش المتوحشة.

أما الرجال الذين تستدعي أعمالهم أن يتجولوا داخل القرى المجاورة، فإنهم إذا اضطروا إلى أن يعودوا إلى منازلهم بعد المغرب، فعليهم إما أن يدوروا حول المكان؛ حتى يتجنبوا تلك البقعة المرعبة، أو أن يتغلبوا على هذا الخوف بالسير جماعات، وهم يصدحون بالغناء والهزار الضوضائي، وكانت هذه المنطقة تدعى في مجال القرى المحيطة باسم الجبل.

إلى هذا المكان، سار كل من مبروك واللص، عندما أعلن الآذان من فوق المنارة يدعو المؤمنين إلى صلاة المغرب، وبعدها ظهر الهلال وسط وهج الغروب الآفل، وبدا كأنه زمردة خيطت بهدب حجاب وردي، وعلى طول رابية طريق السكك الحديدية، برقت الأضواء مانحة السهول الخلفية شكلًا مفعمًا بالغموض والأسرار.

عندما اقتربا من مرتفع السكة الحديد، أخبر اللص رفيقه أن ينتظره دقيقة، ثم عاد متجهًا إلى بعض البيوت، وبعد وقت قصير، عاد ومعه حمار مُسرَّج وملجم، وشرح لـ«مبروك»، وهو يدعوه للجلوس خلفه على ظهر الحمار: «ربما نحتاج الحمار ده عشان نحمّله حاجة».

تحت هذا الحمل المزدوج، سار الحمار بكل تؤدة وشجاعة صاعدًا المرتفع، ثم عبر خط السكك الحديدية، وهبط إلى الجانب الآخر، فقاما بالهبوط من على ظهر الحمار، وانحنى محمد ليعقل ساقيّ الحمار، وما أن نهض حتى ظهر حارس من داخل كوخ مجاور للسكة الحديد، ورمى عليهما التحية والسلام.. فبادره محمد، بعد أن ردّ السلام:

- «خلي بالك من حماري يا درويش من فضلك!».

ثم سار مع زميله ناحية الجبال القريبة، التي بدت جروفها كأنها أشباح في ضوء القمر الخافت، بينما تبرق خلفها سماء خضراء.

في وسط هذا القفر، تصاعدت إلى أعلى كتلة صخرية وسط التلال، فسار محمد ناحيتها، ثم شرع في إزاحة صخرة بركبته، فكشف عن فتحة زحف داخلها، ثم طلب من مبروك أن يتبعه. كان هذا أكثر مما يتصوره هذا الشاب، ولكنه أطاع؛ وعندما أشعل محمد عود كبريت، ثم أنار لمبة كان قد أحضرها معه، شعر مبروك بالراحة عندما وجد نفسه داخل غرفة عادية. كان هناك رماد متجمع في وسط الأرضية، وفي كومة على جانب، تكومت بعض الملابس وعديد من الأسلحة المختلفة، اختار منها اللص سكينتين كبيرتين، اكتشف مبروك أنهما مصنوعتان من الخشب، ولكن بالنسبة إليه، كان يعتبرهما سيوفًا مرعبة. بعد ذلك، التقط محمد قطعة فحم من وسط الرماد، ثم بدأ في رسم خطوط على وجه مبروك، رافعًا اللمبة بيد؛ لكي يتقن الرسم وإحداث التأثير المطلوب، ثم بدأ في تخطيط وجهه أيضًا بالأسلوب نفسه، مطولًا من خط الحواجب؛ بحيث يشير إلى أعلى عبر الصدغ، معطيًا للعينين مظهرًا شريرًا مخيفًا، وظهرت أيضًا تعرجات قبيحة الشكل، عندما يقوم أحدهما بتحريك حاجبيه، أما أطراف فمه فقد امتدت بالرسم؛ بحيث تتبدى ابتسامة مستقرة شريرة؛ لذا عندما واجه مبروك هذا الجني الشرير، لاحظ أن أسنانه بدأت تتخبط.

خرجا معًا، ولاحظ مبروك أن شكل الليل مريع والنجوم تسطع
بلا رحمة، أما أشعة القمر، التي تناثرت على الحطام المنتشر حوله، فإنها رسمت أشكالًا مرعبة.

- «ما تخافش يا روحي!» قالها محمد بكل حنان، وأضاف: «بإذن الله لن تصادفنا أي مخاطر، الشيء الوحيد اللي أخاف منه هو الحكومة التي تدير النواحي دي، وحتى هذا، يوجد من يحذرني منهم.. أيوه، هو الخطر الوحيد. تعلم طبعًا أن أفندينا دخل مدارس الإفرنج، كما أنهم يقولون، الحكومة ناقصة كرم!».

وهو مستمسك بأي حديث يبعده عن مخاوفه الحالية، ساهم مبروك بالقول بأن حالة مصر العامة حاليًا تدعو للرثاء.. قال ذلك وهما جالسان على عقبيهما، بجوار طريق قريب من كومة الخرائب الهائلة. لقد قام المرابون الأجانب الأغبياء بإغراء الخديوي إسماعيل؛ للحصول على ديون ضخمة – كانوا هم أولًا عبيده الطائعين؛ حتى أوقعوه في شباكهم، ثم أصبحوا بعد ذلك دائنيه. اليوم، كل ثروة مصر تحت سيطرة الأجانب، وأصبح ابن إسماعيل لا حول له ولا قوة وهو واقع فريسة تحت

أيديهم،
لا يستطيع أن يحصل على أي مال إلا عن طريق وسطائهم.

قاطعه محمد، وهو يقهقه مرحًا، قائلًا: «كلهم شياطين، يلعن دينهم!».

ومع ذلك، كان هناك كثير من الناس الأفاضل بين هؤلاء الأجانب، وقد تلقى مبروك العلم على يد مسيو ديبو الفرنسي، كذلك حاضر له مستر بويل الإنجليزي وغيرهم – كلهم أناس متحضرون، يحبون «مبروك» وعلموه كل ما يعرفونه. يقول مبروك:

- «آه، يا له من حب أغدقوه عليَّ! كثيرًا ما كانوا يدعونني لزيارتهم في منازلهم ، أجلس على مقعد، وأتناول من طعامهم.. من أطباقهم نفسها، من كل مشتهيات الطعام، كانوا يدفعون بها دفعًا إلى فمي تكريمًا وإعزازًا».

- «الآن، الله يسامحك يا أخي، ما فعلته حرام في حرام.. الأجانب يأكلون لحم الخنزير، وده معروف للجميع، يحبوا يستطعموا حاجات ما فيهاش شعر، أو تزحف على الأرض. والله العظيم أنت ارتكبت «إثم عظيم» لا يغتفر!».

- «لا.. أبدًا، كانوا يطعمون مماثلين للمسلمين من أدبهم نحوي». هكذا شرح مبروك، وكاد أن يخبر صديقه عن أمجاد أخرى، عندما قام اللص بالقبض على ذراعه هامسًا: «اسمع!» ما أن نطق بذلك، حتى عاد إلى مبروك خوفه القديم. كان أولًا متحققًا من صياح بعض الذئاب والثعالب، ولكن استطاعت أذناه الآن أن تلتقطا صوت غناء وشدو قادم من مسافة بعيدة، ثم اقترب الصوت تدريجيًّا وسريعًا، فاستطاع أن يميز آهات غنائية طويلة، تنطلق في مرح في فترات توقف الشدو. وأخيرًا ظهر ضوء متأرجح فوق الربوة، وأصبحت الأغنية لها نغمات مرتفعة فجأة، كما كانت هناك أشكال لبعض الناس، يسيرون على أقدامهم، وآخرين فوق ظهور حميرهم وخلفهم السماء.

زمجر اللص غاضبًا، على الرغم أن «مبروك» لم يصدر منه أي صوت:

- «هس، خليك راسخ، اسكت خالص!».

اختفت هذه الأشكال القادمة عن الأنظار، عندما هبطت المجموعة في منطقة منخفضة، ولكن الضوء ظل يتراقص بريئًا قادمًا نحو الكمين، يختفي قليلًا، ثم يظهر بسبب عدم انتظام الطريق وتأرجحه وسط المرتفعات والمنخفضات المتتالية.. لقد كانت كلمات الأغنية تسمع بوضوح تام الآن، تتحدث عما يفعله الليل من حفظ الأسرار والحسن البارع للمحبوب المحتجب.

في رعب بالغ، أخذ مبروك يلاحظ هؤلاء المرحين وهم يقتربون، متوقعًا ما سوف يحدث بهم بوضوح قاس.. ارتسمت في ذهنه صدمة المفاجأة، واستمع للصراخ والأنين المتواصل وطلب الرحمة. شهد جثثًا تتناثر وتنزف دمًا؛ لذا - وهو مرتعب من هذه المناظر المخيفة – أخذ يعول بصوت عال..

صاح محمد، وهو ينتفض واقفًا: «يلعن دينك!».

أما القادمون، وهم ما زالوا على مسافة مرمى حجر، فإنهم توقفوا عن المسير منزعجين، واجتهد كل راكب منهم في أن يوجه عنق حماره إلى الخلف، محافظًا في الوقت نفسه على قربه من زملائه. في هذه الفوضى الحادثة، وقعت اللمبة أرضًا وتهشمت، ولكن هذا الارتباك لم يظل سوى لحظات بسيطة، فما أن وصل محمد إلى المكان، حتى كانت الحمير تعود بشكل جنوني خلفًا - تستثار بضرب مبرح بالعصي وتصرفات ركابها المذعورين، الذين تشتتوا في كل الاتجاهات.

التفت اللص ناحية مبروك الخجول، ناويًا أن ينهال عليه صفعًا، ولكنه استمر في صب اللعنات عليه، وجذبه ليعودا إلى مكان الاختفاء. وفي الغرفة السرية، قام محمد بإيقاد شمعة، وانهمك في مسح آثار الفحم من فوق وجهيهما، مزمجرًا أولًا، ثم ضاحكًا عندما فكر في المسألة بهدوء.

أبدى محمد ملاحظة قائلًا: «والله صرختك جعلت موقفنا وسط المقابر عال العال، ما كانش ممكن تأخرها ولو دقيقة واحدة! لكن ولا يهمك؛ أنت جديد في الكار ده، أنا كنت في منتهى السعادة، وأنا أسمع حكاياتك.. ومحاوراتك. أنت حصل معاك أشياء عجيبة وغريبة، على الرغم من صغر سنك، ولكنك بالتأكيد غلطان، تاكل مع الخواجات الكافرين، وخايف أقولك إنك أكلت لحم الخنزير وأنت لا تدري شيئًا. وحياة النبي، أنا ما كنت أجرؤ على فعل كده أبدًا! أخاف لبعدين أتنجس لو أكلت من أكلهم!».

احتج مبروك مفندًا: «لا والله، أنا مش قلت لك إنهم كانوا يحبوني؟ أكلهم كان هو نفسه أكل المسلمين. كان مطبوخ – ودا ما أؤكده لك – بالحلال».

وبينما هما يتطارحان الحديث بهذا الأسلوب المرح، خرجا من الكهف السري، واتجها إلى المكان الذي تركا فيه الحمار.. ولكن هذا لم يظهر له وجود.

صاح اللص: «يا درويش، فين حماري؟».

ظهر شكل الحارس في مدخل بيته الصغير المنير، صاح في اتجاههما قائلًا: «هو مش معاكم، فيه شوية ناس جم، وكنت أظن أنهم معاكم وأخدوه، وربما يكون اتسرق، ربنا يطيب خاطركم».

صرخ محمد في ذهول: «يا دي المصيبة! ده أنا مستلفه، وأنا مش غني كفاية عشان أدفع ثمنه. وصاحبي اللي ادهوني حيظن إني سرقته!»، ثم غطى عينيه بيديه حزينًا، ثم أردف قائلًا: «لكن قول لي هنا، إيه كان شكل الناس اللي أخدوه؟ وأنا بإذن الله أعرفهم وأرد كيدهم».

- «هما عشر رجالة طوال، كلهم متسلحين، وكل واحد منهم أعمى العينين، ورجل كل واحد منهم عرجة. هو أنا كنت أعرف إزاي؟».

كان هذا رد الحارس، وهو يقهقه.

صاح محمد، وهو يقفز تجاه هذا الممازح: «يخرب بيت أبوك وأمك، فين حماري؟».

- «العالم واسع قدامك يا حبيبي، وباب الحديد له سكتين»..

عاد درويش إلى كوخه ووضع المتاريس خلف الباب، واستمعا إليه يضحك جذلًا في الداخل. في عدة قفزات متتالية، تسلق اللص مرتفع السكة الحديد، ثم القضبان التي كانت تلمع في ضياء النجوم، وهناك وجد حماره واقفًا في الناحية الأخرى؛ لذا صاح في اتجاه الكوخ: «بقى أنت تعمل فيّ الملعوب ده يا درويش يا ملعون!»، ثم أغرق في الضحك مع مبروك، وسارا معًا، يتجه كل منهما إلى بيته.

***

الفصل الرابع

قبل سطوع شمس اليوم التالي، توضأ مبروك على حافة النهر، ثم صلى على الشط الرملي، وما أن فتح عينيه بعد التحية الأخيرة، حتى شاهد والده على بعد مرمى حجر، ينهي أيضًا صلاة الفجر. كان النيل بشاطئيه يحفل باللون الأبيض، كأنما نُثر فوق مياهه بساط من السوسن في ذلك الفجر الواهن، بينما هناك شعاع بدأ في طعن هذا الشحوب، مشابهًا لمنظر تلك النار الشاحبة المتلاعبة، التي تعبث في قلب بعض اللآلئ. على البعد، حيث التف هدير المياه على البعد، انتصبت منارة مسجد وسط بعض الأشجار، على الجانب الآخر من النهر. لذا، وبينما يتدثران بالعباءات، والشيلان تلتف حول رؤوسهما، اقترب الأب نحو الابن، ووجها التحية لبعضهما. وضع الشيخ مصطفى يده على ذراع ابنه، وبنظرة متأملة عميقة يمسح بها الشاطئ، قال بكل اهتمام وعمق: «لا تعاشر «محمد» هذا، ذلك النوري.. هو صحيح شخص مسلم، وده في حد ذاته كويس، لكن العود السليم هو خطر في يد العدو»، ثم جلسا على عقبيهما، وبدأ الشيخ في شرح ما يعنيه:

كان هناك دائمًا عداءٌ مستحكمٌ في القرية، مصدره الشيخ محروس عبد النبي، الذي كان يشغل منصب العمدة سابقًا، قبل أن يتمكن الشيخ مصطفى - بمهارة فائقة - من أن يتزوج من ربيبة أخت أحد الباشاوات، واستطاع بذلك أن يؤمن لنفسه مركز عمدة القرية. لكن الآن، وقد مات هذا الباشا، فإن هذا العداء، الذي لم يكن باديًا من قبل، ظهر بكل وضوح وجلاء، ومصطفى يخشى الآن على حياته؛ فمنذ عهد قريب، قام اثنان متنكران، هما بالتأكيد ابنا الشيخ محروس، بمهاجمة أخيه، وهو رجل عجوز، ثم تركوه مصابًا على الطريق، معتقدين أنه قد مات. ولكن برحمة من الله، تم إنقاذ الرجل، وعاش لكي يموت ميتة طبيعية بعد شهر لاحق، إلا أنه بمجرد قدوم محمد النوري إلى القرية، أصبحت تلك المخاوف في حكم الماضي، فهذا المجرم لا يمكنه أن يهاجم العمدة، بينما يلاحظ أن هذا البطل يقف خلفه مساندًا.

ومع ذلك، فإن محمد النوري في الواقع يخدم مصلحة أعداء العمدة؛ حيث يمكنهم أن يلقوا بظلال الشك على عمل العمدة، ويعرضونه للعقاب بصفته متواطئًا مع مجرم عتيد، ولكن عندما يفقد هذا منصب العمودية، فسوف يقوم أبناء الشيخ محروس بالقضاء على النوري؛ إذ إن القضاء على عمدة، وهو في مركزه، يعتبر تهمة شنيعة، وسوف تثير كل القرى المحيطة، ولكن عندما يصبح

اسمه الشيخ مصطفى فقط ، فإنه عندئذ سوف يعتبر فلاحًا مماثلًا لغيره من الملاحظين، بينما يصبح الشيخ محروس هو العمدة، الذي سيمتلك من القوة، ما يجعله قادرًا على أن يثير أي موضوع.

قام محروس وأبناؤه فيما سبق، بتقديم شكوى مرتين للسلطات، وأحدثت كلتاهما لومًا وتعنيفًا شديدًا على الشيخ مصطفى، الذي يلاحظ الآن أن كثيرًا من الناس يخاطبونه بقولهم: «يا شيخ»، وينظرون مباشرة إلى عينيه، بينما كانوا سابقًا يخاطبونه بقولهم «سعادتك» و«أوامرك»، بعيون خافضة وآياد مختبئة احترامًا وتوقيرًا. كان واضحًا أن حكام المنطقة يحسدونه على ثروته، أما محروس الذي يتمنى أن يزيحه من منصبه، فقد انضم إليهم؛ لكي يضمن سقوطه، ولم يكن السلاح المختار لتحقيق ذلك سوى تواجد محمد النوري، هذا المجرم المعروف في خدمته.

كان من عهد إلى هذا اللص لكي يستقر في قريته، هو حضرة المأمور ذاته، نصيره الرسمي. ولكن التهمة قدمت شفهيًّا دون شهود؛ لذلك كان في إمكان المأمور - ومن هم أعلى منصبًا - أن ينكروا أي معرفة باللص، وفي الوقت نفسه الذي ازدادت فيه الضجة، التي أحدثها هذا اللص وكثرت –وحتى قبل ذلك - فمن المؤكد أن أفعاله سوف تصل إلى أسماع الحكومة المركزية. بعد ذلك، من سوف يعاني، ومن سوف يعاقب؟ إنه ليس سوى العمدة مصطفى، الذي يأوي هذا اللص في قريته، إنه المسئول الوحيد أمام الحكومة.. إنها على كل حال تهمة ستلحق به أذى بالغًا، ولكن أموره سوف تسوء أكثر، إذا علم أن ابنه يعتبر صديقًا ووصيفًا لهذا الحرامي.

أخذ مبروك يحملق بقوة في ذلك النهر، الذي يجري بنعومة وسط شاطئيه، اللذين تحدهما ناحيتان متدرجتان من الارتفاع، تستثيرهما أشعة الشمس الساطعة، وخلفه، على امتداد الجسر، سارت مواكب من طالبي الرزق – مجموعات من العائلات: البعض يسوق ثورًا أو جملًا، أو ربما بعض النعاج النحيلة؛ التي تسوقها فتيات يسرن بكل فخار، وقد حملن أحمالًا فوق رؤوسهن.. وكل مجموعة، كل فرد، تتبعه سحابة وردية من الغبار. سمع مبروك صياح طيور الماء، لها أصوات ذات نغمات بشرية، ومع ذلك – رغم وعيه بكل هذا - تراءى له بالأكثر الوجه المخطط بالفحم لمحمد النوري، وكذلك المنظر الذي وقعت أحداثه فوق كوم السباخ العظيم.. سمع همس الليل المرعب، وبالتأكيد كان وقتها ممسوسًا بالشياطين. إن جرأته هذه ستتسبب في خراب بيت أبيه؛ لذا بينما يستمع إلى حكايات وروايات أبيه، كره في الحال تلك البسالة والجرأة، مدركًا جمال وروعة الوداعة والاستكانة. وبدموع الندم، حكى لوالده كل ما اقترفه من إثم، ولكن مما أدهشه فعلًا أن الرجل العجوز تقبل قصته بكل برود وعدم اهتمام:

- «احمد ربنا أنك ما سرقتش فعلًا، وأحب أخبرك أنه لي حامي تاني في البلد - غير الله - إنه حضرة سعيد بك رمضان، وهو عظيم من آل بيت أفندينا، لقد عطف عليَّ وخدمني يومًا، أيام حكم إسماعيل، ولذلك أقدم له الهدايا منذ ذلك الحين. إنه دائمًا ذلك الإنسان الطيب المحب للفقراء، وهو إنسان دوغري، وبإذن الله سيحميني ضد أفعال الناس الأشرار».

هنا أعلن الشيخ مصطفى أن الوقت قد حان؛ لينصرف إلى مقر عمله، فقام كلاهما وصعدا الجانب المرتفع للشاطئ من الناحية، التي يمكن فيها رؤية قريتهم قريبة.

إنها قرية ترتفع نوعًا ما عما يحيط بها من سهول، وتستقر فوق كومة هائلة من بقايا وحطام قرى سالفة.. بزغت منها وترعرعت، كما يفعل نبات الصبار، عندما ينمو من ثنايا أوراقه الذابلة. ومع ذلك، تعتبر هذه القرية واقعة في مستوى منخفض من شاطئ النيل المرتفع، وهناك طريق يهبط نحوها. وعلى البعد، تبدو هذه القرية، كأنها محاطة بجدار عظيم من الطوب اللبن، لكن مع تواجد عدد من كثيف من أشجار النخيل متناثرة في وسطها، ربما يمر عليها المرء باعتبارها بناءً كبيرًا منفردًا خفيضًا، تم تسقيفه بلا انتظام. وعند الاقتراب يمكن للإنسان أن يلمح الفتحات خلاله، ويرى أيضًا تلك الحواري الضيقة، التي يمكن لرجل ضخم أن يحتك بكوعيه على طرفيها، والتي تؤدي إلى داخل وخارج مبانٍ طينية منخفضة، تزدحم سقوفها بكثير من الفضلات والمخلفات، وتحفل بالحياة بسبب كل تلك الكلاب المنتشرة.

ما زال سكانها يتدفقون خارجًا – على شكل مجموعات صغيرة – من الرجال، والنساء، والدواب، والأطفال الصغار، يسعون جميعًا إلى أعمالهم في السهول.. خرج أخو مبروك أيضًا من بيته، وهو يدعى «رشيد»، وانهمك في معاكسة أخته الصغيرة، التي لا يتعدى عمرها الثامنة، كانت تقود جاموسة سوداء ضخمة حتى المرعى. وما أن شاهد رشيد والده قادمًا بصحبة مبروك، حتى ترك الفتاة ترحل وانضم إليهما.

هذا الفتى (رشيد) هو نتاج زوجة كبرى للشيخ مصطفي، لم يواتها الحظ أن تكون ربيبة لأخت أحد الباشاوات.. هو أكثر سمرة من أخيه مبروك، ويتميز بطباع هادئة كليلة، تعوضه عما عُرف عنه من مظاهر الغباء والنقص. ولكنه يعتبر حمامة السلام في كل المعارك، التي تحدث في القرية؛ حيث يدعو المتخاصمين إلى أن يصلوا على النبي، ثم يضطرهم إلى أن يقرأوا الفاتحة يدًا بيد، وهو لا يحسد أحدًا، وليس لديه أي نوع من الادعاءات أو التمسك بالمظاهر، وكذلك ليست لديه أي رغبة في أن يسبق أو يلحق بغيره. كل الرجال والنساء الذين يتقابلون معه يؤدون له التحية، أما الأطفال

فإنهم يتقاتلون؛ لكي يقبضوا على يده الضخمة، حتى الشيخ محروس، العدو اللدود لأبيه، كان دومًا ما يحتضنه في ود حقيقي.

نظر رشيد، وهو يضع يده فوق عينيه، حاجبًا إشعاعات الشمس العنبرية، التي شملت السهل كله، كاشفة عن كل قبح في القرية، وأشعلت كذلك تيجان أشجار النخيل، نحو والده، ثم نقل أنظاره إلى أخيه مبروك، وهو يبتسم، مستفسرًا عن أسباب علامات الحزن والهم المرتسمة على وجهيهما.

عندما استمع رشيد للأسباب، صاح: «بعمري، أنتم غلطانين لمّا تخونوا الراجل ده! محمد النوري ده راجل حقّاني ومحترم. يا أبويا، أوعى تكون أنت يا سيد البلد، وكأنك شايل شنطة دهب فوق كتفك، دايمًا خايف عليها، وباين عليك كده. خلي الكُبَارات ينهبونا! إيه يعني؟ مش إحنا مسلمين، مش كل اللي عندنا هو من خير وفضل ربنا علينا؟».

هز الرجل العجوز رأسه حزينًا: «أنت ولد شجاع يا ابني، والشجيع دائمًا تلاقيه متهور. ربما يكون محمد النوري راجل بسيط زيك كده، خوفي مش منه، ولكن من اللي بعتوه لينا، دول اللي أخاف منهم قوي.. رحمتك يا رب.. الليلة دي بالذات، على مبروك إنه يكتب جواب لسعيد بك رمضان؛ عشان يستخدم نفوذه لهزيمة هؤلاء الأشرار، وبإذن الله لن يخذلني!».

لكن «مبروك» كان مندهشًا ومصدومًا من المنطق، الذي بدا واضحًا في حديث أخيه، كما كان حاله كذلك، وهو يستمع للمنطق في حديث والده منذ وقت قليل؛ لذا بفرح شامل - كما لو كان طيرًا ينتقل من غصن لآخر - انتقلت روحه من مرحلة الشك إلى اليقين، من البقاء في الظلال إلى الخروج إلى ضياء الشمس الغامر، وبالطبع لم يكن لتلك المخاوف التي أبداها والده أي أساس.

أحضرت إليه زينب غداء نصف النهار حيث يعمل، وتناولاه معًا تحت ظلال قبة ضريح شيخ القرية، وهو سليم - سائق الحمير، الذي كان يقع على حافَّة جبانة القرية، ويطل على حقل مزروع بالقمح. هنالك، اشتكت له تجبر وسوء معاملة نسوة القرية لها، اللاتي كن دائمًا ما يسخرن من اهتمامها بذاتها، والأفكار التي عادت بها من المدينة، وكذلك من قيامها بخلع برقعها أمام الرجال.. هذا كان يؤذي مشاعرها أثناء عودتها الأولى إلى القرية، لقد اشتاقت إلى ضوضاء المدينة والمحلات المتنوعة المغرية، وكذا المناظر المرحة، والضحك والتهييص مع النسوة في الحمامات المخصصة للنسوة.

هنا، لا يوجد أمامها سوى العمل الشاق الذي يجري يوميًّا. وفي الليل، تشعر بالتعب والإرهاق، وتكون مشتاقة للنوم، إلا أن صوت وابور السكة الحديد يقض مضجعها.

بينما كان مبروك يراقب عودة زوجته، وهي تسير على طول الشاطئ بين حقلين مزروعين، شعر أنه ليس واجبًا عليها أن تبدي هكذا على هذا النحو، كما اشتاق أيضًا إلى مباهج المدينة. ثم عاد إلى مواصلة عمله في حرث الأرض، وهو يتنهد.. يبدو أنه ليس هناك طريق مختصر للحصول على الثروة في كل العالم، سوى أن يسلك طريق محمد النوري.

كان أهالي القرية، رجالا ونساء، يتقابلون في الأمسيات؛ لكي يتناقشوا في الأنباء والأخبار، ويسووا الاختلافات التي نشبت بينهم خلال النهار. وفي الصيف، تتم هذه الاجتماعات غير الرسمية عادة فوق هضبة كومة التراب العظمى، أو فوق أرض بيدر معروف، أما في الشتاء، فهذا يتم في غرفة ضيوف الشيخ مصطفى. ولكن في الشتاء الحالي، قام منزل الشيخ محروس بإبطال عادة استخدام غرفة العمدة؛ حيث إن مالك هذا المنزل أصبح أكثر قبولًا في أعين العامة. حتى العمدة ذاته يذهب إلى هناك بعد صلاة المغرب، فهو من المغرمين بالنقاش مع غريمه؛ إذ تشكلت العداوة الدائمة بين هذين، لتبدو في شكل رقيق للغاية.

وعند التقابل والتلاقي، يحضن هذا ذاك ويغدق عليه ألفاظ التحيات والبركات، وتمثل هذه التحيات المتبادلة العمود الفقري لنقاشهما، فإذا حدث نوع من الاختلاف، نجد النطق يبدأ بمقولة، مثل: «بعد إذنك
يا روحي» أو «يسامحني الله إذا كنت غلطت في..». أو «أنا متأكد إنك فاهمني
يا عيوني». لقد استقر في أذهان كليهما أن العراك بينهما، مع إبداء العداوة ظاهرة إنما تترك للشباب، وأن هذا لا يليق، وقد تحولت شعورهم إلى اللون الرمادي.

عندما وصل مبروك إلى منزل الشيخ محروس في تلك الليلة بالذات، كان المتنافسان يستمعان بكل اهتمام لقصة، يحكيها عليهم اللص؛ فقد جلس كلاهما مجاورًا لغريمه في مكان الصدارة، يدًا في يد، يتبادلان نظرات، كلها اندهاش حقيقي عند نقاط معينة في الأقصوصة. كانت الغرفة تغص بالحاضرين، ولكن أمكن توفير مكان لابن العمدة ليجلس على أريكة، وظل الباب الغفل مفتوحًا، بينما تكدس في مدخل الباب، وعلى الأرضية، جماعات من النسوة، والأطفال، والفقراء ورؤوسهم جميعًا ملتحفة اتقاءً لبرد الليل.

إنهم عبارة عن جنس طيب دائم الابتسام، معرضين أحيانًا لثورات من الغضب كما يفعل الأطفال، ولكن بلا أي مظهر من مظاهر الحقد أو الغل.. إنهم قبل كل شيء كائنات اجتماعية، فقد ساهم آباؤهم في حرث أرض الدلتا منذ أيام نوح. أما الحسد، وهو العاطفة المتداولة في حالة الرخاء، فهو رأس كل الجرائم النكراء، تجده منحصرًا بين عائلتي محروس ومصطفي، واللتين تحوزان بمفردهما الثروة. أما تلك الضرائب الباهظة التي تفرض بشكل متعسف وابتزاز من قبل الرسميين الإقليميين، فإنها تحل على الجميع بثقلها، وكل مصيبة تحل عليهم - مهما كانت بسيطة - تجعلهم متوحدين كالإخوة، فيهزون أكتافهم قائلين: «هكذا الحال في كل الدنيا!»، ثم يتوجهون بشكواهم إلى الله؛ حيث ينظرون إلى وجهاء العالم كمجرمين، عُيِّنوا لكي يذلوا ويسيئوا إلى الفقراء وأفاضل الناس، وهم في طريقهم إلى السماء، بالطريقة نفسها التي ينتهجها اللصوص والمجرمون، عندما يمنعون المرور إلى الطريق المؤدي إلى مدينة النور. في جلستهم المريحة على الأرضية، كانوا يقاطعون الحاكي، ويتشاركون في النقاش دون أي مانع، بينما هناك لمبة ذات طابع إفرنجي، معلقة في خطاف مثبت بالسقف، تلقي ضوءها على الوجوه.

انحنى الشيخ مصطفى نحو ابنه، متسائلًا باهتمام: «كَمِّلْت كتابة الجواب؟»

- «الحمد لله».

هنا استفسر الشيخ محروس:

- «جواب، ما شاء الله! في أي غرض؟».

- «ده جواب مني إلى حضرة جناب سعيد بك رمضان، صديقي والحامي لي، ربنا يحفظه لي، الراجل بيعزني من كل قلبه!».

صاح الشيخ محروس بحماس، ولكن ظهر على وجهه، كأنما قد ابتلع حصاة: «والله، كل الناس يحبونك».

أما اللص، وقد انتهت قصته، فإنه قدم ليجلس بجوار مبروك، قائلًا:

- «والله، أنت زميل ما فيش زيه، في الحكايات الحلوة والمناقشات». ثم ضحك، مردفًا: «لكن قول لي، ليه أنت صرخت جامد يوميتها، وخوفت الصيدة؟».

إنقاذًا لـ«مبروك»، انضم إلى جانبه كل من رشيد وعدد من الشبان الآخرين، قال أحدهم:

- «يا محمد، الرجولة والشجاعة طبع فيك، لكن صعب ده يكون موجود في شخص يجرب للمرة الأولى. مين لا يشعر بالخوف في الليل، وهو قاعد جنب غول زيك؟ المفروض كنت تخليه يجرب حاله في النهار، وسط مجموعة كبيرة من رجالتك».

تنهد العجوز حافظ، الذي كان يستمع إلى هذا الحديث: «اغفر لينا الذنب يا الله»، ثم بدأ في تكرار بعض النصوص القرآنية والتقاليد الخمسة للنبي، التي تتحدث ضد هذه المسائل، ولكن لا أحد كان مهتمًّا بحديثه.

ضحك محمد قائلًا: «ليل أو نهار.. كله واحد بالنسبة لي..عشان كده، بكره، قبل ساعة من الغروب، نكون كلنا قاعدين على حرف غيط البلح في كفر زين، إيه رأيك؟».

صدرت عدة صيحات من الشباب: «ده كويس خالص، ومبروك مش حيحس بالخوف بالنهار، وهو وسطينا».

كان هذا التعاطف، بينما يتوقع إمارات المهانة والاحتقار، أمرًا عظيمًا في نظر مبروك. ومع ذاك، أحس مبروك برهبة كبرى من مغبة وقوع محنة جديدة، ففي مرات عديدة، تلك الليلة وما يليها، أقسم انه لا توجد قوة في العالم، مهما كانت، تجعله يبادر بالذهاب ناحية غيط البلح في قرية كفر زين، ولكن بتصميم عائم في ألا يتوجه إلى هناك.. وجد «مبروك» نفسه يسير وسط الحقول في ذلك الاتجاه ذاته، عندما خفتت حرارة الشمس.

***

الفصل الخامس

تقع قرية الحمام المدعوة «كفر زين» قريبًا من أحد أكبر السدود، التي تتحكم في فيضان النيل، وتمثل إحدى الطرق المطروقة في مصر، وتجد هذه القرية مختبئة وسط جمع كبير من أشجار الفاكهة، ولا يبرز من المنظر العام لها، سوى أبراج الحمام السامقة، التي تقام على شكل أبراج دائرية من الطين، يصل ارتفاع بعضها إلى خمسين قدمًا، تستدق في أعلاها حيث تمتلئ بالفتحات، وترفرف حولها هذه الطيور الوديعة التي تهدل باستمرار.. هناك أيضًا أخدود مزدحم بأعواد النخيل، وتحتل منطقة شمال القرية، وفي نهاية هذه البقعة، يوجد دغل من البوص الطويل القوي، وكذلك بركة مياه خريفية. في هذا المكان بالذات، غيَّر اللصوص من شكل وجوههم باستخدام قطع الفحم، والبعض منهم قام بتغطية وجهه بالشال؛ بحيث لا يظهر منه سوى عينيه، وبعد إتمام ذلك، ظلوا هكذا فوق السد يختلسون النظر عبر أعواد البوص. ظلت مجموعات الفلاحين تعبر وشمس الغروب تنطبع عليهم، مثيرين سحابات من الغبار خلفهم، بدت كأنها نار تتدحرج ناحية الجانب المعتم من غيط النخيل، حيث انتصبت أبراج حمام كفر زين، بعد تشابكات كثيفة قرمزية من أوراق الأشجار.

كانت العجلة الواضحة في عيون الشباب تعامل، بكل حزم وضبط من قبل محمد النوري، ذاك الذي كانت عيناه تمسحان الجسر، وتقرآن كل مجموعة قادمة بكل ذكاء، كما لو كانت تلك عبارة عن كلمة في مستند واضح المعالم.

قال النوري مخاطبًا مبروك: «لسه معاك الكتاب؟ اقرأ والله شوية فيه، خليهم يسكتوا ويتلهوا لغاية ما يحين الوقت».

صاح الآخرون باشتياق: «أيوه، اقرأ من كتابك يا حكيم».

أخرج مبروك من عبِّه كتابًا متهالكا، ثم وهو جالس معقود الساقين، مستندًا بظهره إلى عود بوص غليظ، قرأ عليهم بعضًا من قصة حب شارلاس لكاميل، بينما استمر المستمعون في التنهد والأنين، يضمون ذواتهم في وجد وهيام، عندما يستمعون لكلمات، لا يفقهون لها معنى.

«هس.». هذا ما صدر فجأة من محمد، جاعلًا العالم كله يعوم أمام عين قارئ القصة الغرامية، فقد كانت تلك الأمسية الذهبية، كذا هديل عدد لانهائي من الحمام في الجرف الملاصق، و أيضًا القرب من ذلك الطريق المزدحم، وفوق كل شيء، موضوع القراءة لجمهرة شديدة الإصغاء.. كل

هذا استطاع أن يسكن من حركة مرور الدماء في عروقه، وقضى على كل مخاوفه. فقط الآن، عندما قفز محمد وجماعته، برق في وجدانه قدرًا كبيرًا من البسالة والشجاعة، ولكن مسألة توقيف الناس في عز النهار، في مكان عام، هو في الواقع أمر يستلزم أكثر من الشجاعة الإنسانية.

تعطل مبروك، وهو يعيد الكتاب إلى عبه؛ لذا كان آخرهم، وبعد كلمة صادرة من زعيمهم، اندفعت العصبة خارجة من دغل البوص، وفي الحال كان محمد والمتقدمون منهم على قمة المصرف على شكل مجموعة متوحشة من البشر، مدعمين بمختلف أنواع الأسلحة، يظهرون كأنهم أقوى من الحياة ذاتها، وسط سحابات من الغبار وخلفهم، تستعد الشمس للغروب، فجرى مبروك خلفهم، خائفًا من أن يترك وحيدًا.

كانت هناك مجموعة من التجار، يجلسون مع بضائعهم فوق ظهور حميرهم، وعند أول إشارة هجوم، هبطوا جميعًا ورقدوا على الأرض، مرتعدين يطلبون الرحمة، ووجوههم مغمورة في تراب الطريق، فقط واحد منهم – شاب سوري، كان يرتدي الملابس الإفرنجية – وقف صامدًا معترضًا، تعارك ببسالة مع اثنين حاولا الإمساك به، وعلى الرغم من أنه ضُرب بالنبابيت وأصيب بقطع من سيف بتار، إلا أنه ظل يهدد المهاجمين ويلعنهم.

بعض القادمين من الفلاحين، عملوا دورة كاملة بعيدًا، تجنبًا للوقوع في أسر تلك المأساة الواضحة، كما تركوا مكان السد وأسرعوا جريًا وسط الحقول أو خلال حرف الجرف، وهم مرعوبون يصرخون، حامدين الله على النجاة، ولم يستجب أحدهم لصيحات السوري في طلب العون، وصرخت امرأة من بعيد: «عار عليكم يا ناس، يا مسلمين، وربنا ده ذنب عظيم تعملوه». ولكن الرجل الذي كان معها، قبض على ذراعها بعنف وهو يشتمها، ثم سحبها بعيدًا عن هذا المنظر المؤلم.

بالنسبة لـ«مبروك»، كان الغبار المنتشر في نظره كأنما هو البخور، ولون النار يصبغ كل شيء؛ مما جعل كل ما يحدث أمامه كأنما هو الجنون بعينه، فتقدم إلى الأمام، وانهمك في تفتيش ملابس تاجر راقد، مستمتعًا بأنين الرجل، ثم التفت عندما سمع أحدهم ينطق باسمه.

نظر مبروك، ولاحظ أن الشاب السوري استطاع أن يهرب من بين يدي القابضين عليه، وبيدين مبسوطتين أمامه أخذ يجري كالأعمى تجاه أحراش البوص، فاندفع خلفه لكي يعيقه، ولكن عند حافة المصرف، وقع المطارد فوق دغل من الحسك الشوكي، وفي الوقت نفسه، ارتمى فوقه

مبروك، وتدحرج الرجلان معًا حتى وصلا إلى أسفل المنحدر.. يعضان، يخمشان، ويناضلان في عاصفة من الغبار. استطاع السوري أن يولج إصبعه في فم مبروك، قاصدًا أن يمزق خده، وحاول مبروك أن يعض أصابعه، وصنع كل منهما جهده لكي ينزع نسمة الحياة من غريمه، الذي أصبح في النهاية تحته، وصرخ السوري «ستموت من أجل هذا، عندي معارف يا ما في الحكومة، والله وبحق ستنا مريم أخليهم يعذبوك! ما تفكر أبدا أني مش حأقدر أجيبك من عشر تلاف واحد!».

ضربة قوية من أربعة نبابيت، كانت كافية لأن يرقد هذا الشاب فاقد الوعي.. وأخيرًا وصل محمد بنفسه إلى موقع تلك المعمعة، وهتف بكل تقوى: «الحمد لله!»، ثم انحنى يفتش السوري.

أما مبروك، وهو منكوش الشعر، يدمي من طرف فمه، فقد وقف يلهث، ويحملق في هذا الجسد الساكن، ثم تلجلج، وهو يقول:
«لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم»، كان يفترض - وهو في هذه الحالة من التشويش - أنه قد قضى على هذا الرجل.

قال محمد: «هو بإذن الله ما ماتش، انت عملت اللي عليك، وآدى صرة مليانة فلوس دهب – على الأقل فيها خمسين جنيه – نصها حيكون من نصيبك، عشان بسالتك»..

لكن «مبروك» لم يستمع لشيء، سوى للتأكيد المطمئن بأن هذا الرجل الراقد تحت قدميه ليس ميتًا؛ لذا تنفس الصعداء كما يفعل دومًا في مثل هذه المآزق، فهو يشاهد الآن بوضوح قلوف النخيل، وقد تحولت إلى اللون الأحمر، كأنما الدماء قد صبغتها، ولاحظ كذلك تلك العتمة التي غلبت على كل اللحظات الحرجة، وكذلك شكل الهاربين، والغبار يتبعهم نحو أشجار وأبراج كفر زين، وخلال كل هذا النضال، لم يتوقف الحمام عن الهديل.

أخيرًا، صاح محمد مخاطبا المأسورين: «مع السلامة انتو!». كانت تلك الكلمة متوقعة؛ لذا رفع سبعة من التجار جباههم من تراب الأرض، وبينما يراقبون ما حولهم متحسرين، شكروا اللص باعتباره إنسانًا شفوقًا ومخلصًا، وبتعليماته، أحضروا حمارًا وأرسوا جسد الشاب السوري الساكن فوقه، تتبعهم تأسفات الحرامي بسبب تلك الحادثة غير المقصودة، ثم باركهم محمد ودعاهم ليواصلوا مسيرتهم. وبعد ذلك، أمر محمد أتباعه بأن يتفرقوا راجعين إلى منازلهم، إلا إذا كانوا راغبين في أن يلتحموا في معركة مع خفراء قرية كفر زين، وهم عبارة عن عشر شطوح ماهرين في ممارسة لعبة التحطيب.

كان هذا التنبيه كافيًا سريعًا؛ إذ قاموا بمسح ما رسموه على وجوههم، وسلكوا طريقهم عبر دغل النخيل بمجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثة، يدًا بيد، كأنهم مجموعة من الأصدقاء يتمتعون بمسيرة في المساء. غربت الشمس تمامًا، وحلت طبيعة غبراء على المنظر كله، كما يحدث للعين المقبلة على الموت، وقبض محمد على يد مبروك قائلا: «والله أنا مبسوط من إنك كنت جدع انهارده، كان ليك النصيب الأكبر في الموضوع. في مهنتنا دي، أنا أحب أوي الناس المتأكدة من نفسها، دلوقتي إذا لزمني أي حاجة، أقدر أعتمد على صداقتي لوالدك المحترم».

هذا، بينما خفض مبروك رأسه أرضًا، وشعر أن يده قد شلت، وهي في قبضة يد هذا اللص العتيد.

***

الفصل السادس

لم يبد الشيخ مصطفى أي مظهر للغضب، عندما علم ما فعله ابنه من جرم.. كان كل ما عمله أن وحد الله ولعب في شعر ذقنه لفترة، داعيًا الأمور لتجد لها مكانًا في ذهنه، ضمن أمور أخرى يعلمها، هذا بينما تغير وجهه تدريجيًّا من إمارات اليأس إلى الاستسلام. وعندما حكى له محمد النوري عن بسالة ورجولة صديقه الجديد، وكيف أنه بكل جرأة وجدعنة سقط فوق السوري الغني، لم تتحرك عضلة واحدة في وجه هذا الرجل العجوز، ولم يتأثر كذلك وهو يشاهد ما أبداه مبروك من ندم، ولم تؤثر فيه دموع تأنيب الضمير.. لم يفعل شيئًا سوى أن يهز كتفيه علامة نفاد الصبر. ورغم ذلك، سمح للص أن يعامله بنوع من الألفة الجديدة، وبذلك اعترف ضمنيًّا أن تهور ابنه قد صنع رابطة معينة بينهما؛ بشكل لا يضفي عليه منظر العمدة، فهو الآن ليس سوى ذلك المستبد الصغير في القرية.. لقد خبا الآن كيانه، الذي كان واضحًا في السابق شيئًا فشيئًا؛ وأصبح صوته ناقصًا دماثته وصدقه المعهود؛ إنه لم يعقد حاجبيه تجاه أي إنسان، أما الآن فهو دائم العبوس.

لقد أدرك الشيخ مصطفى، بتأكيد جازم، أن مؤشرات الخراب قد اقتربت إليه؛ لذا دعا مبروك يكتب خطابًا آخر لسعيد بك رمضان، صديقه الذي يعمل في البلاط الملكي، يخبره فيه أن له أعداءً يتربصون به، وأنه يخاف من وقوع مصائب وشيكة. كان هذا السعيد بك رمضان قد ارتقى من وظيفة مرمطون في مطبخ الخديوي إسماعيل ليصبح مشيرًا وناصحًا له في مسائل، لها صفة السرية، وتم تثبيته على أيام ابن إسماعيل، الخديوي الجديد محمد توفيق.. إنه شخص يرحب به وزراء الدولة والجنرالات، وكان الشيخ مصطفى يترجى الكثير من تدخلاته؛ إذ إنه لا يطلب منه سوى مظهر بسيط من الفضل، الذي يمكن به تخويف أعدائه، وكذلك كان العمدة يعتمد تمامًا على التأكيدات، التي يتلقاها عند حدوث أي ملمات بفضل صداقته مع سعادته؛ حيث يظن أن هذا الرجل نادرًا ما يرفض له طلبًا، ولكن في هذه المصيبة الأخيرة، فإن الأمل بدا أمامه عسيرًا، ومن المتوقع أن ينتهي بخيبة الظن.

في صباح يوم، ومبروك جالس تحت نخلة مزروعة في ساحة منزلهم، ويتحدث مع الخفراء، الذين كانوا قد حضروا ليتلقوا تعليماتهم من العمدة، سمعت أصوات وجلبة وقع أقدام حيوان تدك الأرض، كما سمع صوت يتحدث بلغة عربية مهذبة، طالبًا من يدله على منزل الشيخ مصطفى. بعد دقيقة، ظهر خادم حافي القدمين، يقود خلفه بغلًا، يجلس على ظهره رجل سمين، يرتدي جبة وقفطانًا مع بنطلون أسود رسمي. قبض الخفراء على عصيهم، ووقفوا في حالة انتباه، وأسرع

مبروك إلى الأمام موجهًا تحيات منتقاة، ولكن هذا الرجل أخذ في هز رأسه في حزن وأسى؛ وكذلك فعل خادمه.. كانت مظاهر الحزن البالغ والهم المقيم واضحة على السيد والخادم كليهما.

تساءل الراكب بصوت باك: «الشيخ مصطفى في البيت؟»، أجابه مبروك بأن والده داخل المنزل، فباركه الرجل السمين، واستفسر عن اسمه، فقال:

- «اسمي مبروك، ابن الشيخ مصطفى».

- «ها، بأه أنت هو، ساعدني يا ابني أهبط؛ عشان أضمك لصدري.. أنا سعيد بك رمضان، العبد الفقير لله، وصاحب أبوك».

مسح الرجل دمعة فرت من عينه بلطف بكم قفطانه، بينما خادمه يصيح:
«يا مسلمين!»، ثم ناح الخادم بصوت موجوع، وهبط الرجل من فوق صهوة بغله بمساعدة مبروك، ثم ألقى نظرة شاملة على تلك الساحة القذرة.

كان عود النخلة ملوثًا بالغبار حتى منتصفه، وأكنان الطيور تبدو فقيرة متخلفة، وظهر عدد من النسوة غير المهندمات، يحملقن في هذا الرجل الغريب، الذي قال:

- «ما شاء الله، يا له من مكان رائع، والدك إنسان محظوظ فعلًا، أرجو من الله أن يكون كل الناس في درجة غناه وعزه. يا روحي!
يا كبدي! يا الله أنت الحامي العظيم!»، ثم أضاف خاتمًا قوله: «يا رحمن
يا رحيم، بعض الناس هم فعلًا من المبروكين!».

تجمع عدد كبير من الأهالي، عندما انتشرت الأخبار في القرية كلها بأن هناك رجلًا عظيمًا قد حضر، كما قدم الشيخ مصطفى مسرعًا، بعيون منكسرة، ويداه مدسوستان داخل أكمامه السائبتين، وتقدم كأنما سوف يقوم بتقبيل قدمي راعيه المعفرتين، ولكن هذا الأخير ومعه خادمه منعاه قسرًا من إتمام ذلك.

صاح البيه في صوت مرعب: «استغفر الله، الله وكيلي، الواجب عليَّ أني أضمك لصدري، كيف حالك يا حبيبي؟ أرجو من الله أن تكون في كامل الصحة والسعادة، أما عني أنا... لي الله... يا لحزني... أنت يا الله هو الحافظ الأمين».، ثم أرسل ذراعيه حول عنق العمدة، واسترسل في البكاء بلا تحفظ، فقام الشيخ مصطفى ومبروك والخادم بمساعدته، حتى وصلوا به إلى غرفة الضيوف

بكلمات تعزية ومساندة، بينما أخذت بقية الجمهور في حمد الله، وهم ينظرون إلى معجزة ذلك التواضع الجم الصادر من هذا الرجل النبيل.

جلس الرجل العجوز في مكان الصدارة على الكنبة، وساقاه متقاطعتان تحت وسائد ناعمة، ثم رفع عينيه المغرورقتين بالدموع، مباركًا هذا المنزل وكل القاطنين فيه.. ما شاء الله، إنه لم يشاهد طوال عمره مثل تلك الغرفة المريحة، ولم يمتع ناظريه من قبل بمثل تلك الوجوه الطيبة الرائعة، وهنا ساهم خادمه في هذا السياق، وهو جالس على مقعد خفيض بجوار الباب، قائلًا: «والله، ده شرف كبير لنا نكون هنا!».

امتلأت غرفة الضيوف سريعًا برجال القرية، الذين حضروا واحدًا بعض الأخر، كل يخلع بلغته ويلقي بتحية متواضعة، وهو واقف عند مدخل الباب، ثم يحتل أقرب مكان يجده خاليًا ليجلس عليه، مع أشكال متنوعة من النسوة وأطفالهن فوق الأكتاف، جميعهن ازدحمن عند مدخل الباب، حاجبين شكل تلك الساحة القذرة عن الأنظار.

أخذ الضيف يربت على يد مضيفه متمتمًا: «أنت صحتك كويسة؟ أنت مبسوط؟»، قال ذلك، وهو يحملق في وجه مضيفه بإصرار كله حزن، ثم أبدى مشاعر طيبة متمنيًا كل الخير للموجودين؛ لذا حمد الجميع رحمة الله، وسألوا في الوقت نفسه عن أسباب حالة جنابه الحالية جسدًا ونفسًا. وعندما صعب عليه أن يواصل تفادي مثل هذه الاستفسارات، رفع ذلك الرجل المهم صوته، وبدأ في البكاء مجددًا. وكما لو كانت تلك شفرة متفق عليها، رفع خادمه صوته في صيحة مؤلمة: «يا رحمن! حرام والله يا سيدي! حرام الشر والظلم اللي ملا العالم يا سيدي!».

حل نوع من الفزع على وجوه السامعين، ثم قبض الشيخ مصطفى على يد ضيفه، وهو يحملها نحو شفتيه، ثم استحلف سيادته بالنبي، وبالسيد البدوي، أن يفصح عن سبب حزنه هذا، ولا يخبئ شيئًا. ولذا، تدريجيًّا، ظهر التماسك في كيان هذا البيه الحزين، وتحولت مسألته إلى أقصوصة:

- «يا حامي الحمى يا رب! يا كسوفي ومصيبتي! شوية يغمى على من الحزن. اسمعوا يا حضرات وخلوا بالكم من حكاية عمري، واعتبروها درسًا لكل من عايز يتعظ». ثم أردف:

- «معروف طبعًا أني أنا كنت مكرم خالص أيام سيدنا إسماعيل باشا – ربنا يحفظه ويخليه – وهو اللي الخواجات عدوينه، اللي خلوه يتنازل عن العرش. آه، ده اللي كان أمير فعلًا! يا سلام على كرمه وجوده! كان راجل شهم كله نخوة! جلالته صرف ملايين الجنيهات؛ عشان يخلد نفسه

بالإنجازات الجبارة اللي حتعيش ياما بعده. كان يدي الشخص ميت جنيه بقشيش، ويعتبرها لا شيء؛ مع ذلك ما كانش إنسان أهبل أو عبيط – لا والله ما كانش. كان يعرف راسه من رجليه كأحسن بني آدم عرفته.

لعدة سنوات، خدع كل الخواجات تمامًا، وجعل أغراضهم الخبيثة تخدم أغراضه، مثلًا عملية غزو السودان عشان إلغاء تجارة الرقيق، بينما، هو كان يشجع التجار، ويشتري العبيد بالآلاف. ولكن أخيرًا، وعلى الرغم من روحه العالية، وقع فريسة بين أيديهم.. كانت تصرفاته الحرة بلا حدود، أكثر من كونها تصرفات ملوك، وده اللي خلاه مديون للخواجات. كان راجل صح وكله شهامة، أتمنى من الله يبارك فيه، وهو الآن في المنفى.

أنا فاكر كويس يوم ما خمِّني مرة في قرشين من حسابي، وكان دائمًا في سماحته ولطفه، يحكي المسألة دي لأصحابه وناس البلاط، وأنا موجود وسطيهم. لكن للأسف، مع سيدي ابنه، كل شيء اختلف. هو فعلًا إنسان نبيل وحقّاني ما له نظير، ولكن يعوزه لطف وسماحة والده. أكثر من مرة أيام زمان، كان سيدي أبوه يقول لي: «ابني راجل طيب»، يعني بكده أن النخوة تنقصه.

«مرة تانية قال لي «الأمير محمد توفيق راجل أمين ويحب الأجانب، لكن انتظر شوية وشوف إزاي هما يتغدوا بيه». لكني أنا، العبد الفقير، كنت أحب الأمير ابنه، ودايمًا كنت واقف في صفه، حتى وأنا أخاطر بغضب أبوه مليكي وسيدي. مش أنا اعتبر واحد من العيلة، كأي عبد آخر؟ مش كل العيلة دي عزيزة عليَّ زي اعتزازي برجولتي ؟ ومثل أي عبد، انتقلت بالورث من الأب إلى الابن، ويعلم الله أني خدمت الابن بنفس الإخلاص والهمة كما فعلت مع الأب؛ وعلى الرغم من أن مهام وظيفتي كانت أكبر؛ بسبب التفتيش المستمر على كل النواحي والعمل على اختصار المصاريف، كما أن المرتب أصبح قليل خالص، والكرم والجود بتاع زمان انتهى حاله...

«ما عادش لي نفس الامتيازات القديمة، من أني أتحدث وأتناقش مع مولاي. مع ذلك، ما حصلش أبدًا أني خنت سيدنا في أقل المسائل، ولم أزود في طلباتي ولو ببارة واحدة. لا، وحياة النبي، مش هي التهمة اللي لصقت بي. مع ذلك كله، اطردت من عملي، أيوه يا أصدقائي الأعزاء، بالحق هذا ما حصل – أنا سعيد بك رمضان، صاحب ورفيق الأب، والعبد المخلص لكل هذه العيلة، اطردت زي أي شغّال بالأجرة. وعشان إيه ده كله؟ الله وكيلي، مش حتصدقوا أبدًا السبب! اطردت مش عشان أي تقصير في شغلي وواجباتي، ومش عشان عصيت الأوامر؛ ولكن ببساطة قال إيه، إنه من وقت للآخر كنت آخد هدايا صغيرة من أصدقائي العطوفين والمتعشمين فيَّ. حد

سمع كلام زي كده؟ مش دي أمور لا تصدق؟ مش ملاحظين أن أيد الإفرنج واضحة في المسألة دي؟ يا خسارة خراب البيت اللي حل على البيت اللي أنا حبيته! يا الله، إزاي تخليني أعيش لغاية ما أشوف ابن إسماعيل باشا، حفيد محمد علي، وهو لعبة في إيد الخواجات المعفنين!».

توقف الراوي عن الحديث لمدة دقيقة، واضعًا يده على وجهه، بينما تصدر من خادمه الجالس بجوار الباب أنات مستمرة كلها ألم ومعاناة، ودمعت كل عيون المستمعين عطفًا ومواساة، وصاحت النسوة: «ربنا يعزيك، أنت بالحق مظلوم!»..

صدرت من الرجل تنهيدة عنيفة، ثم استأنف:

- «أنا مسلم، واترك مسألتي ومظلمتي في أيد الله يحكم فيها! على أيام إسماعيل باشا، كان في حوزتي ودن مولانا اللي دايمًا كان تلاقيه مبسوط، وأنا أشير عليه في مواضيع كثيرة خارج مسئولياته الرسمية؛ مع ذلك، كان يعمل بمشورتي كثيرًا، ولا يستنكف أنه يذكر اسم اللي أعطاه المشورة بكل حرية. أصبحت مشهورًا في كل البلاد وأصبح لي نفوذ وكلمة، عشان كده كان الناس اللي يساء إليهم بسبب تعنت أي مأمورية عامة، أو يتهموا ظلمًا قدام القاضي، كانوا يطلبوا تدخلي ووساطتي عند حاكم البلاد، وتقديرًا لخدماتي كانوا يقدموا لي أحيانًا هدايا بسيطة، ودي كانت عادة معتادة في القصر، كل واحد من رجال البلاط يفعل مثلي؛ ولكن أنا منين أعرف أن الأمور تغيرت الأيام دي؟ أنا راجل عجوز
يا أسيادنا، وفي سن تلاقي فيها مفاصل المخ تنشف وتعصلج زي مفاصل الجسم؛ لأنه ينقصها طراوة الشباب، وصعب على البني آدم إنه يتطبع بطبع جديد، أو تلاقي حد يرحم العجوز، ولكن الشباب اللي اتعينوا في القصر، وهما خايفين، عرفوا بالأفكار الأجنبية، اللي عشِّشت في عقل مولانا، وابتدءوا يتجسسوا على زملاتهم من خدم السلطان...

«من أسبوع فات، استدعيت للحضور في مجلس رفيع القدر، تحدث معي جلالته بكل عطف وإحسان، لكنه أبدى أسفه، وقال إنه مضطر إنه يستغني عن خدماتي ويطردني، وتفضل بعد كده بشرح الأسباب. قال إيه، أنا كنت أتقبل هدايا كل أسبوع، عبارة عن لحوم وفراخ وخضروات من أصدقائي في كل البلاد، وأني كنت أبيع الحاجات دي في السوق وأربح منها، بينما كنت آكل كل وجباتي من مطبخ قصر مولانا...

«ده – يرحمنا الله – دعاه مولانا بأنه خيانة. أنا قمت نطيت، على الرغم من أني راجل عجوز، وركعت تحت رجليه، ولحست جزمته من يأسي، مش روحي أسيرة لهذا البيت السامي، مش ده حيجرني لعالم الأغراب؟ لكن أفندينا كان عنيد خالص، وعلى الرغم من أنه كان يتحدث معي بكل حنية وذوق، وذكر خدماتي السابقة الجليلة، وقدم لي هدية من جيبه الخاص. ربنا يباركه على الدوام! لكن تفيدني إيه الفلوس دي، بينما أنا مطرود من الخدمة، من الحياة اللي أنا حبيتها وعرفتها؟ بعد كده يقول عني إني خاين ومش أمين، حتى وإن قالها بكل ذوق وإنسانية – أنا اللي خدمت أبوه بكل أمانة سنين وسنين، وما كنتش أخاف من تنفيذ أي عمل أكلف بيه، مهما كان صعب أو مسئ، أنا كنت أحبه! وبعدين يطردني بالشكل ده، بينما سيدنا محتاج لكل المخلصين حواليه؛ وبينما الدراويش يعيبون فيه لأنه لغى طقس الدوسة([1])، والعلماء وكبار البلد يتمتمون ويتعجبون بسبب منعه الصارم لتداول العبيد؛ بينما الجيش يعبر عن إرادة خاصة بيه ومستقلة عن جلالته..

«آه ياني، عن الخراب المستعجل، اللّي حل على البيت اللي حبيته! يا الله، اذبح واحرق الكفره، اللي ضحكوا على سيدنا عشان يسلك كده! أنا راجل عجوز وكل يوم بأضعف عن اليوم التاني، لكن كم كان سروري، لو كنت قضيت بقية عمري، وقوتي المتبقية في جسمي وعقلي، في خدمة وحراسة سيدي في ساعة الخطر، وأساعد في الدفاع عن عرش ابن سيدي إسماعيل باشا..

«من ساعة مصيبتي دي، الساعة الرهيبة، أصبحت متجولًا في كل البلاد، أصبحت شحات وما فيش لي بقى غير «رحمتك يا رب! كرامتي اضطرتني إني أروح لأصدقائي الأعزاء، اللي كانوا يبعتوا لي هدايا عشان أبلغهم عن حالي الجديد، وإني ما أقدرش حاليًا أخدمهم في حاجة، وكنت في بيت واحد منهم.. وقبل ثلاث ساعات زي دلوقتي امبارح، استلقيت الخطاب العزيز اللي بعته لي أحسن وأفضل شيوخ البلد. للأسف، حاليًا أنا كلي أحزان وغم، ضاعت كل أفراحي، الله أكبر!».

ما أن انتهى سعيد بك رمضان من روايته، حتى بدأ في الانتحاب مجددًا، بينما كان خادمه، الجالس بجوار الباب، يجود بمرثية كلها بكاء ونوح، راسمًا كل عبارة، بشكل يعبر عن مدى الظلم الذي وقع على سيده، متوسلًا بالله والعالم كله ليشهد على ذلك. أما مجموعة النسوة اللاتي تجمعن عند مدخل الباب، فإنهن كن يبكين كما لو كن يبكين على ميت، وتبادل كل الرجال حول الغرفة عبارات التعازي والمواساة. لقد كان الشيخ مصطفى يبكي صامتًا، وهو يشهد انهيار آخر فرصة له للبقاء عمدة، ولكن حتى في عمق هذا الحزن، لم ينس واجبات الضيافة، ورجا من هذا الرجل

المظلوم أن يشرف منزله شهرًا أو حتى سنة. في الحال، كما لو أن هذا كان يتوقع تلك الدعوة، طلب الرجل - على الفور - من خادمه أن يحضر إلى الداخل حاجياته، من فوق صهوة البغل.

***

1(1) طقس الدوسة: هو طقس ألغي من مصر، فيه يتراص التابعون والمخلصون للطائفة على الأرض، بينما يقوم أمير الجماعة بالمرور عليهم، وهو فوق صهوة جواده.

الفصل السابع

كل صباح، ينهض سعيد بك رمضان ناويًا أن يرحل، ولكنه دائمًا ما يرضخ لتوسلات مضيفه الشيخ مصطفى، من أنه سوف يشرف القرية لو استمر معهم يومًا إضافيًّا آخر، وكان كل من هو غير مشغول بعمل ما يأتي ليجلس معه؛ ليستمع إلى حكاياته عن أمجاده السالفة. أمام النسوة والأطفال، أصبح هو المحبوب والمفضل، فهو إنسان لطيف، رجل عجوز مكافح، يتميز بأنه يرحب بمظاهر المرح البرئ، مع قدرة عجيبة على تحوير شكل ذهنه؛ ليتوافق مع اتجاهات محدثيه. كانت أخت مبروك الصغيرة، المدعوة نعيمة، تتبعه في كل مكان؛ وهو سعيد بمرافقتها، داعيا إياها «سكرتي»، و«عروستي الصغيرة»؛ لذا كان بقيادتها، يستطيع أن يتمشى خلال الحقول كلها، يشاهد البهائم وهي ترعى، والناس وهم يعملون.

كان خارج نطاق عائلة مضيفه التي تخدمه، دائمًا ما يرحب بمحمد النوري، يمسك بيد اللص لدقائق، يحملق ذاهلًا في وجهه، ثم يقول: «أنت بالفعل استرجعت بطولات عنترة وأبو زيد الهلالي، الأتراك بيقولوا إننا جَبَانات هنا في مصر، لكنهم يكذبون طالما واحد زيك موجود. أدعو الله أن يزيد من قوتك ويطول في عمرك!»، ثم يدعو هذا البطل أن يحكي له واحدة أو اثنتين من بطولاته.

لكن منذ تلك الحادثة الصعبة التي حدثت في كفر زين، آثر محمد أن يعيش حياة هادئة، يعمل في الحقول صباحًا، ثم يعود ليستريح مساءً كما يفعل الرجال الآخرون. لقد مرت ثلاثة أسابيع منذ حدوث تلك الضربة الموفقة، وبدا كل شيء مفعمًا بالأمان، كما هي شمس النهار؛ إذ قام المسئولون بزيارة قرية كفر زين، ثم تم جلد عمدتها، وهذا كل شيء، وقد كان هذا السكون يشغل بال اللص ويقلقه كأي شيء غير عادي يحدث، لذا وهو قمين بأن يخشى حدوث شيء ما، كان يشعر بالتشاؤم، عندما يشاهد صقرًا يحلق في العلا، ثم يشاهد الطيور الصغيرة وهي تتفرق منزعجة في كل مكان، ولأنه يعلم أن سعيد بك هو رجل متعدد المواهب والتجارب، لذا غامر في أن يعرف رأيه في هذا الموضوع.

حدث ذلك في ظهر يوم صبوح، عندما حضر الرجل العجوز - بصحبة الطفلة نعيمة - نحو مجموعة من الأشجار تقع وسط الحقول؛ حيث كان هناك ثور يجتهد وهو يدور حول الساقية، التي كان صوتها يجلجل ويصول ويسمع بعيدًا. جلس كل من مبروك واللص بجوار البيه يبديان قلقهما

عما يحدث، يحملقون جميعًا عبر الحقول، حيث في ضياء تلك الشمس الساطعة، نشط عدد من الرجال في هدوء يعملون مع قطعانهم، ظاهرين على البعد كأنهم مجموعة من الحشرات تتغذى على ورقة شجر ضخمة.

بعدما استمع، أجاب البيه: «لا تخافوا أبدًا»، ثم داعب الفتاة التي استكانت بجواره قائلًا: «لو كانت هي أيام إسماعيل باشا، إذًا ما كان لكم أن تخافوا وترتعبوا، لكن الله وحده الذي يعلم إيه اللي ممكن يحصل دلوقتي. أقترح إنكم تتقربوا لمدير المديرية وتمنحوه هدية!».

أجاب محمد: «المدير ده بالذات زي أبويا وأمي. خوفي مش منه، لكن إذا قررت الحكومة الرئيسية أنها تعمل حاجة، المدير ده ربما يخاف ويخوننا، ويمكن ما ينطقوا بكلمة قبل ما ياخدوني».

قال البيه معقبًا: «الحكومة تتصرف من غير ما تبلغ المدير! يا دي المصيبة! الأمور اتغيرت فعلًا! أيام إسماعيل كان كل مدير يبلغ بالقول «أنت مأمور وأنت عمدة، اعمل اللي يعجبك». ما كانش يفكر بالنيابة عنهم أبدًا! ولكنه يحتفظ بعامل الخوف في قلوبهم جميعًا.. كل شيء كان يسير تمام التمام، ولكن الآن، سيدي الطيب ابنه هو اللي يفكر بالنيابة عن أصغر عمدة، ويعلمه يشتغل إزاي، طبعًا الخوف ينقضي عندهم طالما عندهم أوامره، ويمكن لهم في أي وقت يقولوا، إذا الأمور ساءت «الطريقة دي هي من اختيار أفندينا»، فهنا تلاقي الضبط والربط يسيب في كل أنحاء وادي النيل، وعلى الحكومة المركزية أنها تشرف بنفسها على كل حاجة تدور في البلد، زي السيد في بيته، لما يلاقي خدامين كثير عنده بطالين».

توقف الرجل العجوز عن الحديث لبرهة، مستغرقًا في تفكير عميق: «اسمعوا اللي ناوي أعمله، أكتب جواب لصديق لي في إدارة العدلية أعلم منه حقيقة ما يحدث في هذا الموضوع».

قام اللص بتقبيل يديه بشعور قلبي متدفق، فقط راجيًا منه أن يكون كتومًا ومختصرًا في الكتابة، وهنا ضحك العجوز مجلجلًا: «أنت فاكرني عيل صغير؟ يا الله! دعنا نشتغل في الحال!» ثم طلب من مبروك أن يعود معه إلى القرية.

تبادلا في طريق العودة القليل من الحديث، وبدا أن انتباه العجوز كان مركزًا على ثرثرة الطفلة المجاورة له، التي قالت: «أنت طبعًا يا روحي حتديني جاموسة حمرة، مش كده يا عيني؟».

- «جاموسة حمرة! استغفر الله! دي نلاقيها فين في العالم ده كله! والله دي إذا حد لقاها تصبح لقية تتسجل في الكتب»، هكذا صاح البيه، إلى أن أخبره مبروك أنه من عادة الفلاحين أن يدعوا الجاموسة حمراء أو بيضاء من لون أجزاء معينة من جسمها، فضحك العجوز قائلًا: «أيوه طبعًا، أديكي جاموسة حمرة، لكن إيه اللي يحصل بعد كده يا لؤلؤتي؟».

على الرغم من مظهره الدال على أنه مفتون بالفتاة الصغيرة، إلا أن عينيه أبديتا نيات أكثر جدية؛ وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة غريبة متفرسة؛ بديلا عن تلك التقطيبة الحزينة المعتادة.

ظن مبروك أنه قد تم استدعاؤه؛ ليكون هو كاتب الخطاب، ولكن عندما وصل إلى البيت وأحضر لوازم الكتابة إلى غرفة الضيوف، أمسك بها سعيد بك بين يديه.

وقبلما يجلس سعيد بك للعمل، حذر مبروك: «ما تكونش مغرم قوي بالحرامي ده! هو فعلًا راجل كريم، لكن يشبه الحصان الجامح، هو إنسان خطر. من الأفضل إنك تركب ضهر بغل ماشي على مهله زيي، وأحسن شيء إنك تواظب على دراستك، لأنك أنت الحكيم الصغير!».

جلس البيه معقود الساقين فوق الكنبة مستعدًّا للكتابة. كانت الورقة مبسوطة في كف يده اليسرى، على بعد بوصات قليلة من وجهه، الذي كان يتغير وتتبدل أساريره أثناء الكتابة، فحينًا تحدث تقطيبة هائلة على وجهه، ثم ترتخي ملامحه وتهدأ حينًا آخر. لم يصدر أي صوت داخل تلك الغرفة الظليلة، ولم يسمع سوى خربشة ريشة الكتابة على الورق.. كل ما وصل إلى أسماعهم من الباحة التي أمامهم، هو نواح العروس الصغيرة، وهي تبكي بحرقة تحت يد أمها الثقيلة. وسرعان ما وصل إلى مدخل باب غرفة الضيوف رجل بلحية بيضاء، خلع حذاءه، ودخل يتحسس بعصاة. إنه حافظ الخطيب الأعمى، رمى التحية، ثم جلس وهو يردد حبات مسبحته، سعيدًا بشعوره بالصحبة. في فترة صمت، أبدى البيه ملاحظة، كما لو أنه يفكر بصوت عال:

«اختلاف مشاعر الإنسان وتقييمه لما هو صحيح وسليم شيء غريب! إحنا نعتبر إنه ذنب لا يغتفر لو سلمنا صاحب لينا للعدالة، ولكن الأجانب اللي بيتحكموا في عقل أفندينا يقولوا إن ده واجب ولمصلحة البلد، وأفندينا يظن أن ده هو التصرف السليم».

زمجر الخطيب الأعمى قائلًا: «رحمتك يا الله، إذا تم تكريم الخباصين، إذًا دي نهاية سلامة الرجالة الجدعان».

أجاب البيه: «أنت بتتكلم بالحق!»، ثم استمر في الكتابة صامتًا حتى النهاية، ثم أعلن - وهو ينشف الصفحة من آثار الحبر - عن رغبته في إرسال الخطاب بنفسه، وسال مبروك أن يخبر خادمه لكي يجهز له البغلة، ولكن لم يتم العثور على الخادم في أي مكان؛ لذا فكر مبروك في أن يؤدي له هذه المهمة.

خرج البيه والرعب مرتسم في عينيه، عندما علم بتعذر العثور على خادمه، لذا خاطب مبروك: «بالله عليك، كمِّل جميلك، فأنا راجل عجوز وتخين، ما أعرفش أركب ظهر البغل لوحدي، عايزك أنت تمشي جنبي وتمسك عني اللجام».

- «على عيني وراسي».

طوال الطريق إلى المدينة والعودة، كان البيه يهزل ويحكي مع قائد الركب، ومنذ حديثه مع محمد النوري عند الساقية، اتخذ لنفسه دور المسيطر القابض على الأمور، مؤجلًا مظهر تواضعه التمثيلي، أما أخلاقه وتصرفاته فقد انسحبت وركنت في حالة من العجز وعدم القدرة؛ لتصبح في حالة من العظمة والسؤدد، وأصبحت عيناه قادرتين أن تمسح المناظر الطبيعية أمامه، كشيء أقل من مستواه.

خاطب رشيد أخاه، مبروك، عند عودته: «إذًا ضيفنا العزيز ظهر على حقيقته، وشوية شوية حنكون عبيد عنده ونهمل شغلنا في الغيط اللي هو مصدر حياتنا، حتى «نعيمة» بطلت تلم الختا عشان تتعمل جلة للفرن، وأنت ملزم عليك تمسك اللجام عنه، لما يركب بغلته لمسافة بعيدة».

كان رشيد هو الوحيد في منزل والده، الذي لم يشعر بالسرور من تواجد هذا العظيم في منزلهم؛ فهو يقيِّم كل هؤلاء العظماء باعتبارهم حيوانات مفترسة تنتظر وقوع الفريسة، لا ينظر إلى هذه المسألة إلا باعتبارها غزوة على شكل تكريم، أجبر عليه والده، الذي يضطر أن يولم وليمة كبرى كل يوم، بل إنه حتى عندما قام مبروك بإخباره بتفضل البيه في بذل كل جهده؛ للعمل في مصلحة محمد النوري، لم يفعل والده شيئًا، سوى أن يهز كتفيه متمنيًا أن ينتهي الموضوع على خير.

كل صباح، كان سعيد بك رمضان يرسل خادمه إلى المدينة، يسأل عن ورود أي خطابات له، ويسير بنفسه دومًا حتى شط النيل، متجهًا ناحية الكوبري؛ لكي يتقابل مع المرسل العائد. في يوم، بعد ذلك الوقت الذي فيه وعد محمد، عاد من تمشية مبكرة وأرسل الفتاة الصغيرة لتستدعي «مبروك» الذي حضر سريعًا من الحقل.

قال البيه لـ«مبروك»: «كله تمام، على صديقنا الحرامي أن ينام مطمئنًا بلا خوف. الراجل اللي اتسرق هو مندوب راجل يوناني، بنكير من الإسكندرية. القنصل عمل شوية دوشة أولا، ولكنه هِدي بعد كده».

تنهد مبروك، وبكى قليلًا معبرًا عن ارتياحه، قائلًا: «الحمد لله!».

كل ليلة منذ تنفيذ هذه الجريمة، يتصور مبروك في ذهنه حقل النخيل في كفر زين، ويستمع مرة أخرى إلى تهديد السوري المجروح، وأنه سوف يتعرف على وجهه مرة أخرى وسط عشرة آلاف وجه. الآن، من فضلك يا رب، يا ليت هذا الكابوس ينزاح؛ لذلك أسرع بهذه الأخبار الحسنة الجديدة إلى مكان الساقية في السهل، حيث يجلس محمد في الظل، ومعه حافظ الخطيب الأعمى.. هرش اللص رأسه، وأعاد وضع الطاقية والعمامة، قائلًا: «هما بالتأكيد خدعوا الراجل الطيب العجوز، والاستشارات دي عمرها ما تريح.. كنت أتمنى من الله أن أصلح حالي مع المدير، ولكن المأمور أعتبره زي أبويا وأمي، وهو مستعد ينصحني، بإذن الله سوف اذهب إليه بكره ومعايا هدية، وأنت يا مبروك عليك تدفع نصها. عشرة جنيه مش مبلغ كبير مقابل حياتنا إحنا الاثنين».

وافق مبروك ولكن بتردد؛ لأنه كان واثقًا من تأكيدات سعيد بك. ولكن في تلك الليلة، عندما نبش في مخبأ النقود، بدا له أن ذلك يعتبر ذنبًا كبيرًا، سوف يقترفه، عندما يستغني عن خمس جنيهات، وبكت زوجته وهي على ركبتيها بجوار الحفرة، ممسكة بالضياء بيد، وبالأخرى تقبض على الجنيهات الذهبية المتبقية.

همست باهتياج: «أنت مجنون تديله الفلوس دي، مش البيه قال لك ما فيش خوف خلاص؟ وهل تظن فعلًا إنه حيدي الخمسة جنيه للمأمور؟ دي هدية راجل غني، ومحمد ده راجل حويط وما يحبش الظلم. أنا أقولك، خلّي فلوسك معاك، أحلف إنها اتسرقت منك! أنا عن نفسي حأسرقها منك، وأخبيها في مكان ما تعرفوش».

شغفها هذا، وكذلك الحكمة التي تبدت في نصيحتها، توافقت تمامًا مع توجهاته، وتغلبت على مدى إعجاب مبروك باللص؛ وعندما حل الوقت المتفق عليه صباحًا، حضر محمد سائلًا عن المال، فصاح مبروك، وهو في حالة من اليأس: «ما عنديش!».

سارعت زينب في معاونته، قائلة: «بالقرآن الكريم، ده حق، ما عندوش»، ثم انتحبت، وأردفت قائلة: «مبروك اتسرق، يا مصيبتنا،

يا خسارتنا! ده بالتأكيد حصل امبارح، لما كنا كلنا في الغيط. تعالى بنفسك وفتش. لم يتبقى لنا شيء».

أدار محمد وجهه عن المرأة، والتفت بحدة ناحية مبروك: «بقي الحكاية كده، الخلاصة إنك مش عايز تساعدني. ما يهمكش، أنا ادفع عننا إحنا الاثنين، أنا ما أحسدش الكلب على عضمته، يا كلب يا ابن الكلب!».

ما أن سمعت والدة مبروك الشتيمة التي وجهت لابنها، حتى انضمت إلى زينب في شتم اللص، الذي بصق - بكل صمت - على الأرض، وخرج تاركًا سعيد بك، الذي حضر مسرعًا ومرعوبًا من غرفة الضيوف؛ لكي يبذل جهدًا في إطفاء هذه المعركة.

بعد عودة اللص من المديرية، بحث عن مبروك وصافحه قائلًا: «إيه موضوع الفلوس ده اللي يقف بيني وبينك؟ أنا بس غضبت لما شفت المرة بتشور عليك. ولا يهمك.. أنت لسه صغير»، ثم أمسك بيد مبروك، وقاده حتى كومة التراب الكبرى خارج القرية؛ حيث يمكن أن يتحدثا معًا ولا يسمعهما أحد، وهناك أخبره أنه شاهد سكرتير المدير، الذي كان باردًا معه، في بادئ الأمر، إلى أن أخبره بالحماية التي يتمتع بها بواسطة سعيد بك رمضان، وهنا أصبحت تصرفات هذا الكاتب ودية فجأة، وهنأه على صداقته لهذا الرجل ذي النفوذ.

قال مبروك: «يبقى كده البيه أتكلم بالحق، والمفروض ما نخافش من حاجة، الحمد لله! أنا لما سمعت إن فيه قنصل في الموضوع، افتكرت أن ساعتي الأخيرة قربت. في الحقيقة، كنت خايف خالص لدرجة أني فكرت أطلق موضوع الهجامة ده نهائيًّا، وأصبح بإذن الله فلاح مسالم».

جلس اللص فترة صامتًا، وهو يربت على يد مبروك، ينظر نحو السماء، وبدت أوراق شجرة تين شوكي قريبة منهما، كأنها أياد سوداء مجردة من الأصابع، وخلفهم كانت كل المناظر تحفل بالغموض، كانت أشبه ببرقع أسود يغطي السهل كله تحت النجوم.

***

الفصل الثامن

بزغت الشمس يحوطها ضباب، وتطلق وهجًا كأنها فرن دخاني، صابغة أعواد النخيل بلون أحمر قرمزي، أما هواء الصباح فقد كان ينقصه النشاط، وتلونت حركة الحياة بصبغة متباطئة. وعندما أخرج مبروك قطيع الماشية من الإسطبل، خرجت هذه الحيوانات بشكل بطئ، واحدة بعد الأخرى، وقد خفضت أنوفها، تتشمم الهواء دون ثقة بالغة، فقد كان ذلك موسم الخماسين، ومن هذه الدلائل توقع الشاب أن رياح الخماسين سوف تهب قبل حلول الليل، ثم سار، وهو يتثاءب خلال الممر المتعرج بين الزرائب، بينما تسير الجواميس أمامه واحدة تلو الأخرى. أما الطفلة نعيمة، وهي حافية القدمين، ترتدي طرحة قرمزية حائلة، فقد تعثرت بجواره، وهي قابضة على يده. انتهت حدود القرية سريعًا، كأنما هي مدينة محاطة بالأسوار؛ حيث تنتهي الأرض ببزوغ السهل، وهناك بدت كل الأشياء الناتئة، كأنها خيالات في ظل هذا الضباب الناري.

فجأة من قلب كومة التراب الكبرى، التي جلس عليها يومًا يتحدث مع اللص منذ يومين، بزغ رجل مانعًا إياهم من المرور، إنه عسكري.

أصدر الرجل أمرًا: «عد إلى بيتك».

اعترض مبروك، وركبه ترتعد: «يا أخي، أنا لازم أروح الغيط ببهايم أبويا».

- «اسكت وإلا ضربتك على بوزك.. دي الأوامر، ودا كفاية على واحد زيك!».

على ضوضاء هذه المناقشة، ظهر شرطيان آخران، تدخل أكبرهما سنًّا بالقول: «بشويش يا عبد الله، ليه أنت صعب خالص على الولد، لكن لازم تعرف يا ابني إن الأوامر تقول إن ما حدش من البلد دي يسيبها، قبل ما يحضر المفتش من المحروسة».

- «لكن بهايم أبويا؟!».

- «خلِّي البنت الصغيرة دي تاخدهم وترعى بيهم».

آخرون من القرية تم منعهم أيضًا، وهم قادمون، رجال ونساء جعلوهم يستديرون خلفًا وينتحبون.. لم يسمح إلا للأطفال فقط بأن ينطلقوا إلى الحقول، وبكلمة من مبروك، انطلقت أخته كالسهم خلف من هم في عمرها، وكذلك بعض النسوة، اللاتي كن في مراحل مختلفة من الحمل.

طمأن رجال الشرطة الفلاحين الخائفين بقولهم: «بإذن الله ما فيش حاجة تستدعي إنكم تخافوا، إحنا بندور على حرامي معين، لكن انتو، من شكلكم تبانوا ناس طيبين».

بهذه الكلمات، ظهرت علامات الموت على مبروك، وكسته من زوره حتى أدنى قدميه.. وتركزت كل مظاهر الحياة في رأسه؛ حيث تدفقت وخفقت؛ لذا ، عاد سالكًا الممر الضيق مستسلمًا لإرادة الله.

كانت ساحة منزل والده مزدحمة بجموع من الرجال والنساء والأطفال، فقد ظهر كل مجتمع القرية عند مقر العمدة للتشاور بخصوص هذه المصيبة، التي حلت على البلد. أما مبروك، فإنه بجهد جهيد استطاع أن يجد لنفسه طريقًا عبر غرفة الضيوف، ودخلها في اللحظة التي ظهر فيها سعيد بك رمضان عند المدخل.

صاح الفلاحون متوسلين: «يا بيه، قول لنا نعمل إيه! ساعدنا يا بيه!». رفع الرجل العجوز يديه وعينيه إلى السماء بوجه محتقن، وما كاد يتحدث حتى اندفع رشيد وأزاحه جانبًا بشكل عنيف مصدرًا حفيفًا قائلًا: «إحنا شفنا بالفعل قدراته، يا حامي حمى محمد النوري!»، ثم خاطب الجمهور، بينما انسحب البيه فورًا من الغرفة، وهو يدعو الله مذعورًا.

كان صوت رشيد الواثق مع ابتسامته الجذابة مبعث الأمل أمام هؤلاء اليائسين، وباتفاق موحد، هرعوا جميعًا أمام هذا المفضل.. كان جلبابه يجذب من هنا وهناك، وأياد ممدودة نحو وجهه، في تضرع وشغف لكل من يستطيع القرب منه؛ لكي يستمع إلى وجهات نظرهم عما يجب فعله، وقال أحدهم: «خلينا نسلمهم الحرامي!» وآخر: «خلِّي العمدة يمسك الحرامي ويسلمه للعساكر! هو على كل حال غريب عن بلدنا!».

استمر رشيد في الصياح: «اسمعوا، اسمعوا يا إخوانّا!»، وأخيرًا استطاع أن يجعل صوته مسموعًا فوق هذه الغاغة (الجلبة): «دلوقتي أبويا بيتفاوض مع العساكر، وبعد شوية يرجع يقول لنا نعمل إيه؛ لأن إحنا إذا عملنا حاجة ضد محمد النوري، فالحرامي ده حيدل على مين ومين كان يساعده، وهو بيسرق».

بذلك حدث صمت رهيب، لدرجة أن ضحك ومشاغبة ولد كان قد تسلق عود النخلة حتى منتصفها، ووصل إلى مستوى سقف البيت، وكان يضحك مع الأطفال في الأسفل (فالأطفال يلعبون مع الأطفال، كما تفعل الكلاب مع الكلاب) وهذا جعل كل الأنظار تتجه نحوه، وما أن لاحظ أن كل

العيون مركزة عليه، حتى شعر برعب بالغ، وسقط متدحرجًا فوق الرؤوس، وأخذ يعوي. التقطت عشرات من الأيادي هذا المزعج، وكادوا يخنقونه؛ لكي ينتهي من عويله، لأن «رشيد» كان ما زال يتحدث، والكل راغب في أن يستمع إليه.

- «لكن النوري ده راجل جدع وكريم، وطالما إحنا نساعده، هو مش حيقدر يخوننا، وعلى الله إنه يقدر يهرب من عدوينه!».

- «صح، صح! ربنا يعينه!»، هكذا صاح الجمهور، وقد استكانوا لهذه العواطف النبيلة؛ ولكن أذهانهم تغيرت قدرًا مع ظهور الشيخ مصطفى بجوار رشيد، وكان قد استطاع أن يمر خلالهم، وهم غير منتبهين.

- «العمدة، اسكتوا العمدة، ربنا يعينك يا شيخ، إيه الأخبار
يا مصطفى؟»

طرح العمدة يديه عاليًا، قائلًا: «الله اكبر! المفتش قرب ييجي! بينما كنت أتحدث مع العساكر، حضر راكب، وقال إن سيادة المفتش ابتدأ يتحرك من المدينة، جهزوا المكان بسرعة، ونادوا على الخفر».

- «يا رب العالم كله! ربنا يساعدك يا عمدة، أنت راجل مظلوم والله!».

لم يتوقف العمدة لكي يستمع إلى المزيد من المواساة، فقد كان كل اهتمامه منصبًا على الترحيب بالمفتش، الذي سوف يكون قراره محددًا لمصير كل القرية، وأن عليه أن يجعله أكثر رحمة وحنوًا؛ لذا كان العمدة يندفع هنا وهناك، يدفع الناس من حوله، ويلقي بالأوامر والتوجيهات. أما الخفراء وعددهم سبعة، فقد تلقوا الأوامر بأن يسرعوا بالوقوف، عند حدود القرية؛ لكي يتسابقوا أمام جناب المفتش صائحين بحمده والثناء عليه، ثم انهمك رجال ونساء في كنس وتوضيب غرفة الضيوف، وضرب الوسائد التي لا يزال الغبار معششًا فيها؛ وانهمك آخرون في تسليك طريق نظيف، وسط كل تلك القاذورات الملقاة في الساحة، البعض منهم سارع لاستعارة أدوات الخدمة والحلويات، وكذلك يطحنون حبوب البن، ويجهزون أنواعًا مختلفة من الشربات؛ لذا تدفق العرق على الوجوه لأن الهواء صعَّب عملية التنفس، ولكن لم يظهر على أحد التعب أو الكلل، كان الكل يسرع في عمله، كما لو أن حياته تعتمد على ذلك. تمت إزاحة الأطفال الذين كانوا يلعبون على

الأرض جانبًا، أو ضربوا كأنهم مجموعة من الكلاب أو السلال، وكان هناك رجل أعمى يتحسس سبيله حول الباحة، هذا يصدمه وذاك يزيحه، حتى ما أصبح يدري أين يقف.

فجأة سمعت أصوات عالية تنطلق من أطراف القرية، ثم اقتربت هذه الأصوات، واستقرت على شكل نداء كله هياج، وبعدها اندفع الخفراء إلى الساحة، كلٌّ بلباس شكله ترابي مع لبدة بنية اللون تستقر فوق الرؤوس، ممسكين عصيهم، ثم انهمكوا في القبض على الرجال من أعناقهم، يدفعون بهم في اتجاه الجدران، أما الأعمى، فقد دفع بقوة فاستلقى بطوله على مدخل باب. أما مبروك، وهو عابر لكي يدخل غرفة الضيوف، محملًا بطبق به بعض الملبس، أمسك به أحد الخفراء وأزاحه فتبعثرت الحلويات على الأرض. وفي لحظة، كانت تنطلق صيحات الحمد لله، بينما يتدفق العرق من كل مسامات الأجساد، ويغطي العيون التي فقدت حاسة الإبصار، وأصبح الجميع كأنهم جماعة من المجانين.

استطاع مبروك أخيرًا أن يستجمع أطرافه المرتجة، وأن يتسلل مسترشدًا بالجدران حتى باب غرفة الضيوف؛ حيث وقف والده وأخوه وسعيد بك رمضان في الانتظار. وفي ذلك الوقت، تعرض الخفراء أيضًا للمعاملة نفسها، التي كانوا يصنعونها مع الجمهور، حيث أزيحوا جانبًا وضربوا من العساكر المرافقين لحضرة المفتش.. كانت كل العيون منخفضة، والأيادي منطبقة بكل احترام، عندما توقف حصان المرعب أمام باب غرفة الضيوف. وفي لمح البصر، كان الشيخ مصطفى جاثيًا على ركبتيه، يلحس حذاء المفتش بلسانه!

- «كفاية، كفاية.. أعوذ بالله إنك تعمل معايا كده! شيء مؤسف إنك تفعل هذا، راجل عجوز زيك ومسلم!».

كان المتحدث رجلًا تركيًّا نحيفًا ذا شارب أسود مشذب، ووجهه شاحب مما يدل على صحة متدنية، عيناه الفاحصتين تبدوان قريبتين عن بعضهما، يستقر بينهما أنف رفيع محدب، ويرتدي قفطانًا وبنطلونًا.. كل ملابسه إما سوداء أو بيضاء، ما عدا طربوشه القرمزي.. هبط من حصانه، ثم ألقى نظرة فاحصة على الحاضرين، وعندها شعر مبروك، للحظات، أن روحه قد تعرت أمام هذا الرجل، وبعدها عبر الرجل داخلًا غرفة الضيوف.

بعد ذلك، أسرع مبروك ليمسك برأس الحمار، الذي هبط من على ظهره كاتب سيادته- وهو شاب سمين قبطي، يرتدي ملابس إفرنجية تحت الطربوش، شعر مبروك بالحسرة وهو يشاهد

شكل ملابسه في السابق. همس رشيد بأنه ذاهب ليبحث عن محمد، لذا حاول أن يتسلل من الساحة، ولكن أحد الحراس أوقفه وجعله يرجع إلى مكانه، وبعدها قام هو ومبروك باختراق المزدحمين أمام باب غرفة الضيوف، وأمكن لهما الدخول للجلوس مع الكبار. وجدا المفتش جالسًا بجوار سعيد بك، يتحدثان معًا كأنهما صديقان قديمان، وبنوع من الراحة، اكتشف مبروك أن السوري ليس من الحاضرين.

بعد أمد، توقف المفتش عن حديثه الخاص مع سعيد وتساءل: «فين العمدة؟».

- «أنا هنا حاضر». نهض الشيخ مصطفى ووقف أمامه، كأنما ينتصب أمام رؤية فائقة الضياء تغشى العيون.

- «فيه في القرية دي حرامي، لص مشهور».

- «اسأل العفو من الله يا سيدي! حرامي! وسطينا حرامي وإحنا مش عارفين؟ أستغفر الله من الشيطان الرجيم. الحمد لله إننا لم نتعرض جميعًا للسرقة، أو إننا اندبحنا وإحنا نايمين!».

تبعت بقية الفلاحين الحاضرين المتحدث عنهم، نائبهم، بشكل جماعي، بينما حل شلل فجائي على أطرافهم.

أبدى المفتش ملاحظة قائلًا: «أنا متعاطف معكم جميعًا»، ثم بأدب جاف أردف قائلًا: «لكن الآن، أنا أرجوكم، لا تضيعوا الوقت في الكلام، أظهروا لي الشخص اللي اسمه محمد النوري».

في هذه اللحظة، ظهرت على وجه الشيخ مصطفى علامات الحيرة، وأخذ يستعرض وجوه الحاضرين قائلًا: «أنا لا أراه، مش هنا معنا، فين هو؟»، وما أن وقع نظره على أحد الخفراء، حتى ناداه: «يا خفير، اجر، هات لنا المجرم الشرير ده!».

بهذا النداء، أسرع ستة من الخفراء من سبعة، كالريح بينما تنطلق من حناجرهم صيحات مرعبة، ولكن السابع - الذي وجه إليه الأمر أولًا - ظل في مكانه قائلًا: «هو مش قاعد في بيته، المرة بتاعته قالت إنه سافر في مأمورية».

التفت العمدة للمفتش، وهو مشتت الفكر، «مش في بيته، خرج في مأمورية. أنت سمعت بالطبع سعادتك؟ أعمل إيه يعني؟».

تلاعبت أصابع المفتش البيضاء الرقيقة في شعيرات ذقنه، ومع ابتسامة ساخرة هز كتفيه قائلًا: «وما الذي لا يمكن لك أن تفعله؟ وهل هذا شأني؟ افعل ما يعجبك».

«مش هنا، سافر في مأمورية».. هذا ما كرره الفلاح العجوز، بشكل يوحي بالغباء المطلق؛ وتكررت هذه الكلمات بنفس نغمتها على ألسنة بقية الفلاحين الحاضرين، كما لو أنهم شاهدوا في طريقهم فجأة حائط صد.

تابع حضرة المفتش العمدة، بعطف مدروس، ثم قال له: «أنت راجل طيب وتتميز بالذكاء، وأنا أرغب لك السلامة عشان خاطر سعيد بك، اللِّي هو صديق لك.. لا تخف، لكن اسمع، بطل كدب، لأن هذا مصيره العقاب، وبالله العظيم، سوف أحزن للغاية عندما أشاهدك وحضرتك عريان تتلقى جلدات السياط. وأكثر من كده، الكذب ما فيهوش فايدة، لأنه عندنا معلومات مؤكدة تقول إن محمد اللّي لقبه النوري، راح امبارح المديرية، وإنه رجع بعد العصر، وإنه قضى الليلة هنا. ومن نص الليل، كل مخارج القرية محروسة، وما حدش طلع من القرية؛ لذلك أترك الموضوع كله لكم لتقرروا فين الراجل ده الآن.. لا تفكر أبدًا أن تشكك فيما أقوله لك؛ لأن اللي أخبرنا بالمعلومات دي مش غريب عن البلد دي».

نظر العمدة بنظرة كلها وحشية إلى وجه محروس، عدوه القديم، الذي أرسل نظرة شك تالية على شخص مجاور له على الكنبة، وتحرك كل الفلاحين غير مستريحين، وأخذ كل منهم يلقي بنظرات مستريبة على الآخر، وكان مبروك هو الوحيد الذي كانت عيناه مركزتين على العظماء والوجهاء، حيث شاهد يد سعيد بك رمضان، ضيف والده، تقبض وهي ترتعد على كم المفتش؛ لذا لقن مبروك نفسه شهادة الموت.. هذا الشيطان الماكر يعلم كل شيء عن سرقته للرجل السوري؛ لذا كان وهو جالس هناك، مبتسمًا، ويداه تحيطان بكرشه الواسع.. لقد أدرك مبروك أن هذا الكلب الخائن يمتلك بين يديه حياة كل الحاضرين، سواء لمصير كله خير أو شر، مادام الفلاحون، بطابع كله عطف وتعزية لرجل تعرض للظلم، أخبروه بسذاجة بكل أسرارهم.

***

الفصل التاسع

في الخارج، هبت ريح عاتية فجائية، كنست الباحة وخبطت الأبواب والنوافذ، وأشاعت جوًّا دافئًا مشبعًا بغبار دقيق لونه بني، فقام الرجال بتغطية أفواههم.

صاح العمدة: «الخماسين! اقفلوا الأبواب وسكوا الشبابيك!»، لقد كان خائفًا من تأثير ذلك، وما قد يسببه من ضيق في صدر حضرة المفتش، وربما يؤثر ذلك على مزاجه. لكن قبلما يتم تخلية مدخل الباب من النظارة، حضر الخفراء مسرعين، يحيطهم غبار الجو الذي كسى كل شيء، يلوحون بعصيهم، ويصيحون: «الحمد لله، تم القبض على الحرامي!».

ردد الكبار في الغرفة: «الحمد لله!».

همس رشيد في أذن أخيه: «يا خسارة، ربنا يرحمه!».

وقف الخفراء عند الباب، يلهثون ويضغطون بأيديهم على أجنابهم. في الدقيقة التالية، سمعت أصوات صاخبة مبتهجة تقترب، مسببة حالة من الاندهاش، الذي انطبع على وجوه الفلاحين الخائفين، مبروك تركيزه بعيدًا عن وجه هذا الخائن العجوز المكار، رأى مجموعة من العساكر يدخلون الساحة، ويحيطون بالجسد الفارع للنوري، أكثر من كونهم قابضين عليه، وقد بدا عليهم أنهم كانوا في حالة من المزاح معه. ولكن عندما تحققوا أنهم أصبحوا على مرمى البصر، أصبحوا فجأة منتظمين، وأمسك اثنان منهم بمعصم هذا الشقي يجرونه وسطهم، بينما أسرع الباقين إما أمامه أو خلفه، يبصقون على وجهه أو يلكمونه في ظهره، ويلعنونه بشتائم منتقاة مرتفعة النبرة. بهذا الأسلوب تم طرحه داخل غرفة الضيوف، ثم جعلوه يقف أمام المفتش، بينما رفع العساكر أيديهم بالتحية فخورين بإنجازهم.

لهث قائدهم، وهو يقول: «يا أفندينا، امسك هذا الحرامي! والله تعبنا عشان نقبض عليه لأنه شاطر زي الشيطان. ده كمان حضر وجلس معانا وإحنا مش عارفينه، أخذ يسلينا في قعدتنا الطويلة بحكايات مسلية، لدرجة إننا فكرنا أنه راجل محترم، وقد حاول يفلت منا مرتين مدعي أن ليه بقرة ضالة منه، ولكن في كل مرة كنا نمسكه ويرجع معانا وهو يضحك، مستعجب من خوفه على البقرة. بعد كده حضر لينا خفير من القرية، وهو يجري وينادي بصوت عالٍ: «يا محمد، خلِّيني أنا اللي أقبض عليك!» بعد كده اتكعبل المسكين ده في حجر، ووقع على مناخيره. مع صياحه، حاول زميلنا المبروك ده أنه يهرب، لكن آه، وحياة السيد البدوي، ده كان سبق صحيح!

الخفير ده كان ولد جرَّاي صحيح – زي برق السما – جِري ورا الحرامي، وقدر يمسكه واتدحرج معاه على التراب، وأخد له كمان طعنة في دراعه، وبعد كده لما شاف اللص إننا ثمانية لواحد، بطل يعافر معانا، وقدرنا نجيبه للقرية، قبل ما تهب الريح السخنة، اللي خلصت بعد كده على جهدنا وقوتنا».

قال المفتش بصوت ضعيف: «الحمد لله»، ثم التفت ناحية سعيد بك، وقال: «الدنيا حر خالص».

رد العسكري المتحدث: «والله كنت أتمنى من الله إننا كنا دلوقتي في المدينة جوه بيت محترم!».

هاتان الشكوتان من الحر كانتا في عبارات عامة، بغض النظر عن تلك الوجوه المتوترة المسالمة للفلاحين، وذلك الشخص فاقد الأمل الواقف وسطهم.. كل هذا كان يحقق رعبًا لا يحتمل في قلب مبروك، كل المنظر تذبذب أمامه، واعتراه خوف مقيم وتوتر حاد، متوقعًا في كل لحظة أن يقدم الخائن على الإبلاغ عنه.

أخيرًا، انتبه المفتش لهذا الأسير، وسأله: «اسمك محمد النوري؟». اعترف اللص بذلك بكل تواضع.

- «أنت حرامي وقاتل؟».

- «لا، بحياتي، يا شمس العدالة، أنا أكثر الناس المسالمين، وهما خدعوا جنابك لما حكوا عني الروايات دي. اسأل كل الرجالة الحاضرين، وسوف يخبرونك أني لم أسئ لأي واحد منهم».

وهنا أسرع الحاضرون في مدح أخلاق الرجل صائحين: «هو يتكلم بالحق، الحرامي ده راجل دوغري ومستقيم يا سعادة البيه، يحب الفقراء.. ده راجل مسلم، كان يعمل خير كتير، ده اتبرع بكسوة هايلة لشيخ بلدنا المبروك، سليم - سواق الحمير».

تساءل المفتش بلهجة خبيثة، موجهًا حديثه لسعيد بك رمضان: «هو بالحق، ده هو الراجل اللي بندور عليه؟».

هز البيه رأسه بلا حديث، ثم مد يده ناحية محمد، وهو يقول: «ربنا يلطف بك يا صديقي المسكين!».

سأل المفتش اللص: «عايز تقول حاجة؟».

- «أقول بس إني دلوقتي بين يديك»، ثم انحنى انحناءة رقيقة، وقبل يدي المفتش، ثم وقف زنهارًا.

- «خدوه بره واربطوه! وأنت يا شيخ، عمدة البلد، استعد تيجي معانا المديرية. هناك يستجوبوا المتهم ويواجهوه بواحد شامي، وهو اللي وجه ليه الاتهام، واللي كان عيان خالص عشان كده ما قدرش ييجي معانا. إذا حدث التعرف بلا شك، فسوف يتم نقل المتهم إلى العاصمة بالقطر العصرية دي، وعلى كل حال، هما في النهاية حيشنقوه».

مع هذه الكلمات الأخيرة، استغفر كل المستمعين الله طالبين رحمته على هذا الرجل المظلوم، ومبروك الذي ظن أن التحقيق قد انتهى، بدأ في التنفس بحرية، ولكن المفتش استدعى كاتبه وتناقش معه أولا هامسًا، ثم قال بصوت عال: «اقرأ المواصفات جيدًا، وانظر في الناس حواليك!»؛ لذا أخذ قلب مبروك يضرب في رأسه، بينما فرد القبطي ورقة، وقرأ ما فيها، وتقدم يحملق في وجوه كل الحاضرين، ثم تذكر مبروك، وهو ينظر إلى الممتحن، زملاءه في مدرسة الطب، وتصور ذلك الرعب المتمدين، عندما يسمعون أنه مجرم مدان.

تمتم الكاتب معتذرًا: «من الصعب الحكم بالاستعانة بهذا، شيء مؤسف أن الشامي كان مريضًا، ولذلك لم يرافقنا».

اندفع المفتش قائلًا بعصبية، وهو يسحب الورقة بعنف: «إنه لم يكن مريضًا، بل خائفًا.. خد في بالك بعض الملامح العامة ودور عليها، بعدين قارن الأمور الأخرى، هذه هي أبسط طريقة. انظر هنا، الحواجب عالية تتجه للخارج، وهذه ليست خصلة عامة.. ابحث عن هذه الخاصية».

حينئذ تذكر مبروك حادثة السرقة، وأنه كان قد طوَّل من خطوط حواجبه باستخدام قطعة الفحم بالطريقة الموصوفة نفسها، وهنا برق أمامه شعاع من الأمل، ولكنه لم يفرح بذلك كثيرًا، فقد تذكر أن هناك خائنًا يجلس بجوار القاضي، لقد كانت عيناه مركزتين على سعيد بك تتوسلان.

بعدما عاين الكاتب الوجوه مرتين، في ظل صمت كامل، لا يقطعه سوى همس بين الحين والآخر بين المفتش وسعيد بك، أو دعاء شاكٍ إلى الله من قبل هذا الأخير، الذي، كان واضحًا عليه أنه يعاني من الحر الشديد، خرج القبطي والورقة ما زالت بين يديه.

زعق الرئيس: «اقفل الباب وراك يا ابن الكلب! إحنا بالفعل نتخنق من غير ريح جهنم اللي جاية من بره».

بالنسبة لمبروك، بينما هو جالس هكذا، في تلك الغرفة المظلمة متوقعا نوعًا حلول مصيره، بدا له أن عيون المفتش كانت منصبة عليه فقط، وأن سعيد بك كان يشير نحوه، وعلى وجهه ترتسم ملامح خبيثة، وأن كل الفلاحين يحملقون فيه منزعجين، وقد أصبح هذا التصور قويًّا لدرجة أن خالطه شعور قوي بأن يتقدم ليسقط تحت قدمي الرجل العظيم، ويعترف بكل شيء، وربما كان عليه أن يفعل هكذا في النهاية. وبينما هو في هذه الحالة من الذهول، دخل الكاتب مصطحبًا خفيرًا اسمه علاء الدين مقبوضًا عليه، وهنا فقط شعر مبروك، كما لو أن هناك يدًا تقبض على عنقه، قد تخلت عن فعل ذلك فجأة. في الحال عادت إليه الأنفاس مرة أخرى على شكل شهقات قصيرة؛ فقد كانت لدى علاء الدين حواجب تسرح إلى أعلى، ولذا كان يطلق عليه دومًا لقب العفريت، والأكثر من ذلك، أنه لم يكن يشبه مبروك على الإطلاق.

قال سعيد بك بصوت عال، لكي يسمعه مبروك: «هو نفس الراجل». فعل البك ذلك، وهو يرمق مبروك بنظرة ماكرة ذكية؛ مما جعل الفتى يعيد حكمه المتسرع في الحال, خائن؟ لا، إنه رجل عجوز طيب، أحسن وأطيب بني آدم خلقه الله، محافظ على حق الضيافة. ملأت عينا الشاب دموع الاعتراف بالجميل.

- «نعم، هو أنا يا سعادة البيه!»، هكذا قال الخفير مبتهجًا، ثم أردف: «كنت أنا والله اللي قبضت على الحرامي اللئيم». هذا الغلبان المسكين فهم أقل القليل عن المسألة، وظن أنهم قد استدعوه؛ لكي يستمع إلى التقريظات بسبب شجاعته ومروءته.

همس رشيد في أذن أخيه: «عاملين كأنهم اختاروا عيل صغير من على بز أمه. علاء الدين ده راجل طيب، ما فيش في قلبه أي غل أكتر من اللي تلاقيه في غنمه، هو ربما، أحسن واحد يختاروه؛ لأن براءاته تظهر من أقل استجواب، ولكن ربنا يرد على الراجل العجوز ده حقده وغله! ظهر دلوقتي إزاي إن الكبارات يتحدوا مع بعض ويوقعوا الناس الطيبين. مع كده، أقدر أقولك إنه لسه فيه بعض الشرف؛ لأني فكرت للحظة إنه رايح يخونك، وبكده يخرب البيت اللي تاواه».

قال المفتش مخاطبًا الخفير: «أنت متهم بأنك سرقت وحاولت تقتل واحد شامي».

لم يفعل الخفير شيئًا سوى أن يفغر فاه، ملتقطًا آخر الكلمات، ليكررها مبتسمًا: «شامي؟ أنا مش شامي سعادتك، وشكرًا لله، أنا مؤمن حقيقي ومولود في مصر».

ظهرت مظاهر الغضب على وجه المفتش، ظانًّا أن الخفير يسخر منه، فصاح به غاضبًّا: «بتمثل عليَّ البلاهة تمام، وإنشاء الله حنلاقي الوسيلة اللي تبدد المظاهر دي كلها».

وبهذا استدعى عسكريين لكي يكبلا هذا المجرم، وفي الوقت نفسه نادى سعيد بك خادمه لكي يجهز له البغلة.

نهض المفتش: «الحمد لله عملنا انتهى هنا»، وقام الجميع احترامًا له، مباركين إياه.

احتج العمدة قائلًا: «الدنيا بره مش مناسبة لسعادتك، الخماسين لسه شغالة، استريح هنا من فضلك حتى لبعد العصر، بيتي هو بيتك، ويا ريت ما تمنع عني الشرف ده».

ولكن المفتش لم يلتفت أبدًا إلى هذا الأسلوب المؤدب، وبدا على سعيد بك أنه انتوى أخيرًا أن يرحل. خارج الباب، بدأ الرجل العجوز في الانتحاب، قام بحضن «مبروك» وباركه بكل لطف، ثم استدعى بعد ذلك نعيمة، عروسه الصغيرة.. ساعده مبروك في ركوب البغل، وشاهده وهو ينحني ناحية المفتش، الذي كان قد امتطى صهوة جواده بالفعل، وخاطبه همسًا، فأجاب التركي بصوت عالٍ، بينما ترتسم على وجهه ابتسامة عجيبة: «مثل هذه المسائل لا يهتم بها أفندينا، وعلى جنب أقولك، أنت تعلم أن روحي لا تطيق الطبطبة. ومع ذلك، فإن كل خدماتك سوف تسجل، لكن أنت عايز إيه بالضبط يا عزيزي؟ كيف نرد جميلك؟ والمكافأة التي يتقاضاها أي جاسوس تعتبر صغيرة بالنسبة إليك».

ظهرت على الرجل العجوز مظاهر الأسى والحزن، وسارع إلى البكاء والنحيب، كما كانت حاله، عندما حضر إلى هذه القرية للمرة الأولى.

***

الفصل العاشر

قامت زوجة محمد النوري وأبناؤه، مع كل العائلة، حتى جده التعيس علاء الدين، بالسير جميعًا وراء العساكر ومعهم السجناء، بينما ركبت مجموعة العظماء، بما فيهم العمدة، في مقدمة الركب.. ازدحم الفلاحون، ومن ضمنهم مبروك عند كومة التراب الكبرى يراقبون الجميع وهم يرحلون، يهيلون بالسباب على حكام البلاد والعساكر أيضًا، وكل من يضطهد الفقراء، ويجعلون الحياة كلها في خطر، وقام الشيخ مصطفى عند الرحيل بإبلاغ أبنائه اختصارًا بوصيته، خوفًا من ألا يعود إلى قريته مرة أخرى؛ لذا دمعت عينا الأخوين، وهما يشاهدان ذلك الموكب الحزين يسير محاذيًا لشاطئ النيل.

كان الوقت ظهرًا، ولكن الشمس فاقدة الضياء؛ فهناك سحابة بنية اللون ترتفع باستمرار بعيدًا عن وجه الأرض، تتقابل مع سحابة أخرى بنية، مستمرة في الهبوط من عرض السماء.. ومن المرتفع الذي يحيط بخط السكك الحديدية، وكذلك من الأرض الزراعية المحروثة وأكوام التراب، تصاعد الغبار، كأنها دخان في دوامات كثيفة معلقة في الجو، كل هذه عملت على إخفاء كل ألوان العالم، وخلال هذا الإظلام المكتوم، سار الموكب الصغير. وعلى الرغم من تنوعه اللوني، فإنه كان منظرًا حبيسًا، أما صراخ النسوة وعديدهن المستمر كما على ميت، فإن الهواء الكثيف كان كفيلًا بكتم كل هذه النداءات وذلك العواء.

في الحال، صاح رجل: «هيّا إلى الصلاة! كل اللي حصل ده بسبب كفر الناس، صلوا يا أولادي؛ لأن الساعة قرب زمانها!»، ثم بدا على الفور بالأذان، إنه حافظ، الخطيب الأعمى؛ لذا رجع كل من ترك خلفًا، إلى منزله لكي يتوضأ ويصلي الظهر.. لم يعهد عالم القرية يومًا كئيبًا مثل هذا الحين.

وجد مبروك زوجته زينب راقدة على الأرض، مكتئبة حزينة لما جرى لمحمد النوري، قالت: «يا خسارة الراجل المظلوم المسكين، ده باركني وهما واخدينه عشان يعدموه. وحياة النبي هو من الشهداء ومش أقل من كده، ده راجل مسلم، بينما اللي متهمه راجل شامي نصراني! كنت أتمنى من الله أننا ما كنا منعنا عنه الخمسة جنيه الدهب...المجرمين دول ناويين يخلصوا على الحاج مصطفى، على الأقل يمكن يجلدوه على رجليه، يا دي المسكين! يا خراب بيتنا!، يا خوفي ومصيبتي!».

جلس مبروك على الأرض، في أكثر مكان إظلامًا بالغرفة الصغيرة، وخبأ وجهه بين يديه.. أما زينب، فطبقًا لعادتها عندما تكون مشغولة البال، فإنها انهمكت في غسل وتنظيف الأدوات المنزلية، ونقل هذا أو ذاك من هنا إلى هناك بلا سبب، ولم تتوقف عن الأنين والتشكي بسبب هذا اليوم السيء.

تم غلق الباب، ووصدت النوافذ اتقاءً لهبوب الريح المجنونة، أما الطفل، وقد ضايقه الحر، فإنه أصبح متبرمًا وواصل البكاء. عبر الساحة، سمعت أصوات تشبه العديد، بينما كان صوت رشيد يجلجل، محاولًا بلا طائل أن يهدئ من روع النسوة العجائز، أما مبروك، من شدة جلوسه هكذا ساكنًا، غطس أخيرًا في النوم. صحا مبروك أخيرًا عندما انحطت يدا زينب على كتفيه، ورقدت بجواره على الأرض، صدرها يلامس ركبتيه، فأمسك وجهها بين يديه، بينما كانت عيناها مملؤتين بالرجاء، فقالت له: «أنا طالبة جميل منك يا حبيبي، خد الخمسة جنيه اللي إحنا منعناها من الراجل الغلبان ده، وضيف عليها خمسة تانيين، وأعطيهم لمراته وعياله، هما محرومين من الزاد دلوقتي. بص، أنا حاطة الفلوس دي في الكيس ده، بكده نكون عملنا اللي علينا، أوعى من فضلك تقول لا، عشان ضميري يستريح».

- «بسم الله». وافق مبروك، عندما استلم منها الكيس.

خطة هذا الكرم المفاجئ خففت عنه شعوره بالدونية، التي جعلته منخفض الهمة، وما أن تناول بعض الطعام الذي قامت زوجته بتجهيزه، حتى وضع الكيس في عبه وسار محاذيًا لشاطئ النيل، قاصدًا أن يتلاقى مع زوجة محمد النوري، وهي عائدة من المدينة. كانت الرياح الساخنة ما زالت تعصف، وبقدوم فترة المساء، تحول لون الهواء المحمل بالغبار تدريجيًّا من اللون العسلي إلى لون القهوة، أما شط النيل الذي كان عادة مزدحمًا بالناس في ذلك الوقت، فإنه أصبح الآن خاليًا تمامًا.

وعبر طريق السكة الحديد، سار حذرًا حتى وصل إلى الجسر، وهناك عند قرب نهايته، جلس منتظرًا. أما النيل وهو يعكس لونه البني المعتاد، فقد بدا كأنه كله من الطمي، كانت خطوط أسقف المدينة تظهر ثم تختفي طبقًا لمزاج سحابات الغبار العابرة. لم يجلس طويلًا هناك، حتى سمع وقع أصوات أقدام تدب على أرضية الجسر. حقق النظر، فوجد أنهم مجموعة من الناس القادمين، وكذلك رأى مجموعة من النسوة يرفعن أيديهن ويتضرعن إلى السماء، وهن يسرعن الخطوات لكي يحاذين عددًا من الرجال، الذين حملوا فوق أكتافهم ما ظن أنه جسد ميت أو من سوف يموت.. لقد عرفهم مبروك، إنهم أناس من قريته.

- «لا الله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم»..

هتف مبروك بهذه الجملة، وأسرع نحوهم، والرعب ينهشه خوفًا من أن يشاهد جثة والده؛ لذا تساءل مفزوعًا «إيه الموضوع يا ناس؟ مين اللي مات؟».

- «ده الراجل المظلوم المسكين.. استحمل يا علاء الدين!».

انطلقت النسوة في بكاء حزين، ولكن أحد الرجال شرح له الموقف: «هو مش ميت يا مبروك، ولكنهم خلوا رجليه ما تقدرش تستحمله، وهو ماشي عليها».

- «الله أكبر، بس ده فعل ما فيهوش أي قدر من التمدن، إزاي يعاملوا الراجل بالشكل ده، لقد أصبح كل ده ممنوع بحكم القانون من سنين طويلة».

- «لا عن إذنك يا حبة عيني، ده بالقانون إذا اتعمل بشكل سري.. القانون يمنع أن ده يتعمل علانية بواسطة الحكام، والمفتش ما يعرفش حاجة عن القانون ده، عساكر المديرية عملوا اللازم وأكتر، بكل همة ونشاط، وأنت تعرف طبعًا أن فيه مجلس استشاري يبحث المواضيع اللي بالشكل ده، ولما المجلس يطلب تحقيق العدالة، كل شيء يتعمل قانوني، وطلباته لازم تنفذ.. أنا لا ألوم من عذبوه؛ لأن الأعمى يمكن يلاحظ أنهم كانوا مضطرين، ومع ذلك، الموضوع ده كان صعب على علاء الدين، بعد ما قالوا له إنه برئ، لكن ما الحيلة قصاد الحكام؟ العالم كله ماشي كده».

وهنا انطلق صوت المعذَّب المحمول: «أكثر شيء أثَّر في يا سي مبروك، هو أني كمان اترفدت من شغلي كخفير – أنا اللي مسكت الحرامي في نفس الصبحية، واستلقيت طعنة في دراعي، ولما الشامي قال لهم إني مش أنا الراجل، ظنيت أنهم حيستبقوني في وظيفتي، لكن كل ده ما يهمش، لأن أبوك ما بقاش خلاص عمدة، وأنا أحب أبوك المحترم، وما اهتمش إني أخدم عند واحد غيره».

- «إيه اللي حصل مع أبويا، فهمني!».

- «كله خير إنشاء الله، مع أنهم وقفوه عن الشغل، لكن كلها ساعة، أرجو من الله، ويرجع لكم سليم.. هناك عاملوه بكل احترام، بس هما سحبوا منه العمدية».

- «وفين مرات وعيال محمد النوري؟».

- «مراته قالت إنها عايزة تتبعه لغاية مصر.. هي معاها فلوس كفاية، وتتمنى تصرف شوية عشان تخفف عنه سجنه».

- «بسم الله الرحمن الرحيم». هكذا صاح مبروك.

اقترب مبروك بعد ذلك نحو علاء الدين، ثم تناول الكيس من صدره، ووضعه في يد المعذب التي تشبه المخلب؛ بسبب ما يشعر به من ألم. استغرق المتألم لحظات حتى يدرك طبيعة الهدية، ولكن ما أن تحقق، حتى صاح:

- «لكن – يا رحمة الله – ليه لي أنا بالذات يا حبيبي؟ إيه اللي عملته عشان أستحق الكرم ده كله؟»

صاحت النسوة، وقد تجمعن حوله: «هو إداك إيه، ورِّينا!»، وعندما شاهدوا طبيعة الهدية، صاحت إحداهن «صرة دهب! ربنا يعمر بيتك، دلوقتي حتخف على طول يا علاء الدين يا غلبان! آه، الكريم الحنين، ربنا يعينك ويبارك فيك!». لا هن أو الرجال المرافقون يشعرون بالحسد، وهم يشاهدون من يقدم هذه الثروة الكبيرة لمسكين معذَّب، ولكنهم أيضًا فعلوا كل ما في استطاعتهم لتغيير مسار أفكاره؛ لذا كانوا يبتسمون ليظهروا مدى سرورهم تجاهه.

- «لكن، لكن – يا سلام – إيه اللي أنا عملته عشان أستحق ده كله منك؟»، كان هذا تساؤل علاء الدين للمرة الثالثة.

انحنى مبروك نحوه، وهمس في أذنه، ثم قال له بصوت مرتفع: «فاهمني ولّا لأ؟».

كانت مظاهر الذكاء تزحف بطيئًا على هذا الوجه، الذي ينقبض ألمًا؛ ولكن ما أن فطن للمعنى، حتى صاح كما من خوف: «ربنا يطول في عمرك، وربنا يكافئك، بالحق انت أكرم بني آدم، وأحلف لك بأنه ما عندي، ولو شعرة واحدة من الحقيقة.. أنت مش مديون لي بحاجة، بالشرف ما في حد في الدنيا دي كلها زيك، أمير المؤمنين ذاته ما كانش ممكن يعاملني بالكرم ده كله.. علاء الدين حيكون عبدك حتى الممات».

***

الفصل الحادي عشر

في فترة الفجر المبكر، قدم مبروك إلى الساحة؛ لكي يتحدث مع والده.. كان الهواء نظيفًا رائعًا، وكانت هناك نسمة تهز أوراق النخلة فوقهما؛ إذ اختفى الظلام والكآبة التي صاحبت الخماسين، جاعلة من رعب اليوم السابق أمرًا غير مصدق، كأنما هو كابوس طرأ على الذاكرة.. أشرق وجه الشيخ مصطفى بالبهجة والسرور، فهذا جدير بشخص تم إنقاذه من حبل المشنقة؛ لذلك قضى وقتًا أطول في صلاة الفجر، وفي أداء الفرض أظهر وجدًا، صعب عليه أن يخفيه، وأخيرًا عاد إليه الاهتمام بشئون أرضه الزراعية، لذا قام بتقبيل خدي ابنه تكرارًا وقدم شكرًا وحمدًا لله، وكذلك للسيد البدوي.

صاح الشيخ مصطفى: «بإذن الله، حأزور جامع أمير النجدة، معاك ومع كل أهل بيتي في مناسبة مولده الشهر الجاي، وأقسم بالله أني سوف ألمس مقامه، وأتشرف بأني أدور حواليه سبع مرات في كل يوم من أيام المولد السبعة، كما أني أقدم ندر مالي لحراس الضريح؛ عشان يوزعوه على فقراء طنطا؛ شكرًا لإنقاذي هذا الإنقاذ العجيب.. امبارح لما حضر المفتش، لقيت روحي تصرخ جوايا «يا شيخ العرب!»، كمان وأنا في طريقي للمديرية، وبينما المساجين يتم استجوابهم، ما بطلتش أبدًا ألح على سيدي أحمد البدوي، ربنا يقبله! – وهو لم يهمل أبدًا مطلبي، أنا لم أتعرض للأذى، وما زلت بمالي وحالي. كمان لما شافوا إني صاحب سعيد بك رمضان، خدام السلطة، ما فكروش يسيئوا لي أبدًا، كان توبيخهم لي مؤدب خالص. لذلك أنا، ومتوقع العزل من الوظيفة، اعتبرت أن ده هو فضل من الله وإحسان. كده الواحد يقعد وسط الناس، يشوف فين الغلط، بدل ما يبذل جهده وهو في العالي، وغيره يشوف عيوبه وغلطاته. أنا مشتاق فعلًا أشوف محروس، حيعمل إيه في مكاني كعمدة – وهو طبعًا ليه ذكاء حمار وصبر دبور غضبان! بالتأكيد حنتفرج على عرض لطيف – الحمد الله وللسيد أحمد!».

ما أن أكمل الشيخ مصطفى حديثه، حتى قام بفتح باب الزريبة لكي تخرج البهائم، وتابعهم حتى الغيط - ممسكًا بعصا - ومبروك بصحبته، كانت تلك هي الساعة التي تستطيل فيها الظلال، وتبدو كرجال يسيرون، كل سطح ينظر تجاه الشمس، فيجد نفسه مصبوغًا بالذهب الأحمر، وكل الوجوه التي تقابل معها في الطريق، بدا عليها السرور والراحة الأكيدة، فقط هو مبروك الذي كان مستغرقًا في التفكير؛ خوفًا من أن يقود البحث إليه، وفجأة، ناداه أحدهم من الخلف، وهنا رأى علاء الدين يحجل وراءه بقدر إمكانه مستعينًا بعصا.

ما أن اقترب هذا الرجل المظلوم من مبروك، حتى همس إليه: «بقولك إيه، بحق ربنا لازم تهرب من المكان ده. الليلة دي فضلت صاحي عشان رجلي اللي بتوجعني، شعرت في عقلي إنك لسه في خطر؛ لأن الراجل الشامي اللي صدق في كلامه عني، لسه قاعد في الجوار. خد مراتك وابنك وعصايتك، وسافر كده على بعد ساعة أو ساعتين، واقعد عند واحد من أصحاب أبوك، عشان تكون في أمان لغاية ما الموضوع يتنسي – اجري واتشاور مع أبوك المحترم، وأنا أرجع وأحذر أهل بيتك، وأجهز لك الحمار عشان ما يضعش أي وقت».

لم يحتج مبروك إلى مزيد من الإقناع؛ لذا جرى سريعًا حيث شاهد والده واقفًا قرب دغل من الأشجار القديمة، التي تظلل الساقية.. مع كلمات مبروك الأولى، جلس الشيخ مصطفى واستغرق في تفكير عميق، تاركًا القطيع لشأنه، ناظرًا إلى أمامه، عبر حقل من البرسيم الأخضر النضر؛ حيث انتصب بناءً مكعب أبيض، يعلوه مرتفع من الطين على شكل التينة، محزز جيدًا.. إنه ضريح شيخ القرية سليم - سواق الحمير. عند القاعدة، جلس حافظ الخطيب الأعمى، ومعه الطفل، الذي يعتبر العين بالنسبة إليه، يمد في وجهه متلمسًا كامل شعاع الشمس، مستمتعًا بالدفء، فاقترب منه الشيخ مصطفى مناديًا: «يا حافظ! أنا متبرع بثمن كسوة للمقبول عند ربنا، إذا تفضَّل الله وخلص بيتي من خطر معين».

هذا الصوت المرتعد لهذا الفاضل، ترددت نبراته عبر حقل البرسيم، قائلًا: «بإذن الله، ربنا يحفظ بيتك من كل سوء وخطر!».

بعد لحظة تفكير، قال الشيخ مصطفى لابنه: «سافر يا ولدي أنت وعيلتك إلى كفر زين، لمنزل الشيخ عبد الرازق، واطلب الضيافة عنده باسم الله، فلن يرفض طلبك لما يعرف انت ابن مين. المكان ده اتفتش قبل كده، وزاره خدام السلطة. خليك هناك لغاية ما أبعتلك وأقولك الدار أمان.. بالسلامة سافر، واجعل موضوع الرحلة دي سر حتى على اللي ولدتك!».

وبهذا أمسك الكبير عصاه مرة أخرى، واستمر في طريقه، كأنما
لا شيء قد حدث.

بينما يسرع مبروك متجهًا للقرية، قابل علاء الدين الذي أسرع نحوه، وهو يعرج، مخبرًا إياه أن كل شيء على استعداد. في باحة منزله، وجد مبروك حمارًا فوق ظهره خرجان متوازيان، وزينب بالجوار والطفل بين يديها، بينما أمه والنسوة الأخريات يصفعن أيديهن وينتحبن في يأس، وفي

الحال، امتطى مبروك ظهر الحمار، وهو يضرب بطن الحمار بقدميه، صائحًا: «حا!» سار الحمار وئيدًا وسط الأكواخ، وزينب تجري وراءه يحوطها الغبار.

على طريق شط النيل، بينما تجري المرأة بجواره، ظل مبروك ينظر خلف كتفه في اتجاه المدينة، خائفًا أن تقع أنظاره على مجموعة من العساكر، ولكن كل المجموعات على مدى البصر، من خلال سحابات الغبار، كانوا من الفلاحين. ثم بعد قليل، وافق على رأي زينب بأن يتحركا ببطء قليلًا، فهو يشعر الآن بالأمان؛ ولذا وجه أنظاره أمامًا. كانت قرية كفر زين تمثل الرعب بالنسبة إليه، فمجرد تواجدها على سطح الأرض، منذ وقوع الجريمة، هذا يقض مضجعه. حيث تبدو شاهدًا صامتًا وقاسيًا على ذنبه. إلا أن هذا المكان، عندما ظهرت تلال الطين وأبراج الحمام أخيرًا في مجال البصر، من خلال أوراق الشجر الكثيفة، كأنها مجموعة من لبد الخفر، بدت أكثر قبولًا ومرحًا، ترتفع كما هي وسط الأشجار، بينما يتصاعد هديل الحمام حولها.

عندما استفسر مبروك من فلاحي الحقول عن منزل الشيخ عبد الرازق، قيل له إن الرجل تجده منهمكًا الآن في إصلاح النورج الخاص به في أرض درس الحبوب، وطار بعض الأطفال، برغبتهم الكاملة؛ لكي يبلغوا الرجل بمقدم هؤلاء الضيوف، وما أن وصل الزوار إلى المنطقة التي تم الإدلاء عنها، وتقع وسط بعض الأشجار، حضر إليهم سريعًا رجلًا عجوزًا نبيل المحيا ليعلم غرضهم، فنزل مبروك باحترام من فوق ظهر حماره ونقل إليه رسالة أبيه. بعدها قام الشيخ بإلغاء الرسميات ملقيًا بها في مهب الريح، وحضن الشاب، راجيًا منه أن يشرفه في منزله، ولو لمدة عام كامل إذا لزم الأمر، ثم قاد الموكب عبر حواري القرية، حيث عهد بزينب وطفلها إلى نسوة الدار، وقدم بنفسه اللحم ووعاء الشرب إلى مبروك. لم يحاول الرجل، سواء الآن أو فيما بعد، معرفة أسباب الزيارة، وعندما أبلغه مبروك طائعًا عنها، لم يبد عليه أي قدر من الاهتمام.

لقد تم نسيان موضوع السرقة في كفر زين، ولم يتم نسيان موضوع، عمدة القرية، الذي تم جلده بسببها؛ والتي كان يستأهلها؛ حيث إنه كثيرًا ما كان يجلد الآخرين بأقل قدر من العدالة، وسبب عديدًا من المآسي، عندما كان يرسل الشباب، الذين هم عماد حياة عائلاتهم، إلى الخدمة العسكرية. أما ما كان يزعج أفئدة فلاحي القرية هذه الأيام، فقد كان حضور بعض الرجال اليونانيين من المديرية، الذين أتوا - من يومين فقط - حاملين بنادقهم، وصوبوها على عدة مئات من طيور الحمام للتسلية وتزجية الوقت فقط.

قال الشيخ عبد الرازق، وهو غاضب: «يعلم الله، هم فعلًا قضوا وقت حلو! وخلصوا على مئات من خلقة ربنا؛ عشان بس كل واحد منهم يفتخر، «أنا قتلت أكبر عدد من الحمام». لو كانوا قتلوا حمامنا، وهو طاير في سما قرى أخرى،
فلا مانع؛ لأنها تعتبر طيور هاجّة وبرية؛ لكن هنا، والحمام يتجمع عشان يستريح، وقدام عيوننا، ده والله حرام! وعندما اعترضنا قدامهم، ضحكوا على ذقوننا، وقالوا «إحنا واخدين إذن من العمدة»، كما لو أن العمدة ده يملك زمام الحياة أو الموت وسطينا!».

استمع مبروك إلى هذه الحكايات المستمرة عن الحمام بكل وقار وأدب، ولكنه كان ينظر إلى شئونه الخاصة؛ باعتبارها الأكثر أهمية، وعندما كان يسير وسط الأشجار في برد النهار، بدت أقدامه كأنها تنسحب بشكل مغناطيسي تجاه موقع السرقة. كان يخشى من ذلك كثيرًا، ويتملكه خوف وجزع أن يذهب إلى هناك، وصوَّر له خياله أن هذه المكان مسكون بروح انتقامية ولدت هناك؛ بسبب الفعل الخاطئ الذي حدث هناك، وبدا له أن هذه الروح ما زالت في الانتظار؛ لكي تطالب بحقها منه مهما طال به الزمن، ولكن تفكيره الدائم بهذا المكان كوَّن لديه حثًّا أقوى من عزيمته. أخيرًا، في أمسية، وعندما وقعت أنظاره على البقعة، شاهد عددًا كبيرًا من الناس يسيرون في الطريق غير مهتمين به، فاستجمع شجاعته وسار عابرًا المكان، ثم استدار متخيلًا المنظر الذي يتذكره جيدًا، لقد كانت الساعة نفسها والشمس الغاربة نفسها، التي صبغت أعواد النخيل باللون الأحمر، وجعلت الغبار الذي تثيره أقدام المارة يبدو كسحب نارية، تبدو خلفها أشجار وأبراج حمام كفر زين، كسحب أقل سمكًا بلون أزرق عميق.

بقلب استقر في مخه، أخذ مبروك يستعرض مكان وقوع الجريمة.. هنا ارتمى على السوري، وفي هذا المكان تقلبا معًا هابطين المرتفع؛ بدا أمامه، كأن تراب المنحدر ما زال مثارًا، وهناك أمامه أيضًا دغل البوص؛ حيث ظل اللصوص قاعدين منتظرين، وهناك - عند مجموعة من أعواد البوص - شيء ما يلمع – إنه صغير الحجم، لا يزيد حجمه عن علبة سعوط..

لقد مر مبروك من قبل ثلاث مرات، وعيون مختلسة إلى هذه الحلية، ولكنه لم يجرؤ ولا مرة من أن ينحني لكي يحقق النظر فيها؛ فهكذا تظهر الأشياء القيمة بمعرفة الأرواح الشريرة، وحراس الكنوز الخبيثة، وعندما يندفع أحد لالتقاطها، يقبض الرصد على تلابيبه. لكنه الآن، وهو يحول اتجاهات أفكاره إلى النواحي البدنية، وما يبشر به الإفرنج من ضرورة توافر الشك، استطاع أخيرًا أن يستجمع كل شجاعته ويناضل ضد تحذيرات روحه؛ ثم - أسرع جريًا وهذا الشيء بين يديه -

فوق مرتفع الشاطئ، كما لو أن هناك جنيًّا ابن جني ابن جان يتعقبه؛ كان نسيم المساء يداعب قفا عنقه، مما ظنه كأنه نفس الشيطان ذاته. ثم مر به رجلًا عجوزًا راكبًا حماره، وألقى عليه السلام، وهذا الصوت المفاجئ جعله يجفل، وأعاده بذلك إلى عالم البشر؛ لذا حشر هذا الشيء سريعًا في عبِّه، مدركًا أنه ليس سوى علبة سجاير معدنية.

وهو في المنزل، فحص لقيته بكل تدقيق.. إنها علبة مصنوعة من الفضة أو ما شابه ذلك ومصنوعة بإتقان، عليها مطبوع اسم «حبيب لطيف» بالحروف الإفرنجية.

«هذا اسم الرجل الشامي المسروق». كانت تلك هي ملاحظة مضيفه، عندما قرأ عليه مبروك الاسم، وفي داخل العلبة، كانت هناك خمس سجائر، بفحصها، ثبت أنها من أنقى الأنواع.. قبل الشيخ عبد الرازق سيجارة منها، وتناول مبروك أخرى، ودخنا السيجارتين صامتين محملقين في العلبة الفضية.

قال عبد الرازق أخيرًا: «لو منك لقمت بدفنها، خوفًا من أن تستخدم ضدي».

نظر نحوها مبروك بإعجاب: «والله! لكن ده حرام، إنني أفكر في أن احتفظ بها لغاية ما القدر يواجهني بمالكها».

إنه لا يفكر في دفن العلبة، ولكن مع ذلك يزعجه أن تظل معه؛ خوفًا من أن تسبب له ضررًا. ما معنى شعوره القوي من أن يعود لزيارة هذا المكان الخاطئ، وكيف رقدت هذه العلبة طويلًا، ولم يصادفها أحد إلا إذا كانت مكتوبة في سجل قدره؟ هذه العلبة ليست سوى طلسم، له صلة بمصيره، سواء أكان جيدًا أم سيئًا. هل يلقي بها في منتصف النهر، يدفنها في أعماق الأرض؟ ومع ذلك، كان متأكدا أنها في كل الأحوال سوف تعود إليه، لقد جعل زينب تشاهدها عندما قدم ليستريح، ثم وهي تدخن واحدة من السجائر المتبقية، طلبت منه بكل برود أن تحتفظ بها؛ لكي تضع فيها بعض الحلي، فوافق مبروك لكي يتخلص منها.

كانت تشغل بال زينب فكرة وحيدة مسيطرة هذه الأيام، هي أن تعثر على كنز محمد النوري، وبعدها تعود هي وزوجها إلى العاصمة، إلى الحياة التي طالما أغرمت بها.. كانت زينب تجادل كثيرًا في أن هذا الكنز له وجود فعلي، فمحمد النوري كانت تجارته رابحة دومًا، ولكن لم يظهر يومًا أن لديه قدرًا كبيرًا من المال في جيبه، إذًا ثروته مدفونة في مكان ما؛ ولأنه سوف يموت، فإن هذا الكنز يؤول بالحق والمستحق إلى مبروك، الذي كان صديقه الصدوق وشريكه في العمل

مؤخرًا. قام مبروك بتعنيفها بسبب حديثها هذا؛ فهو ذاته يؤمن بوجود هذا الكنز، وليس لديه أي مانع من أن يستولي عليه إذا عثر عليه، ولكن ليس هناك أدنى دليل على مكان تواجده، كان يبتئس، وهو يفكر في مصير محمد المرعب.

ولكن على وجه العموم، مرت أيام مقام مبروك في كفر زين بكل المرح والسعادة.. كل أمسية، كان هناك تجمع يحدث في منزل أحد عواجيز القرية، أو عندما تكون الليلة دافئة، يتم اللقاء داخل حوش للدرس تحت ضياء النجوم، وفي هذه اللقاءات، يحكي الرجال حكاوي لطيفة عن الخال أبو نواس أو الحاج جحا، وفيه تتم مناقشة أحداث اليوم بخيره وشره بشكل فلسفي، مع تقديم الحمد والشكر لله. كان يتم استقبال مبروك – دومًا - باعتباره ضيفًا مكرمًا، ثم عندما ظهر علاء الدين مجددًا وقد برأت قدماه في صباح يوم، وعصاه في يده، قام بإبلاغ مبروك أنه آمن في أن يعود إلى قريته. لذا والأسف يحوطه، امتطى مرة أخرى ظهر حماره، تاركًا خلفه الأشجار الباسقة والأبراج الساطعة لكفر زين.

كان في وداعه الشيخ عبد الرازق وأولاده وآخرون من أهل القرية، ورافقوه لمسافة وسط حقول القمح، وقال له عبد الرازق: «أنت لازم تزور طنطا في أيام مولد سيدي أحمد البدوي، وإنشاء الله، إحنا نتقابل هناك بعد يوم أو يومين، ولغاية ما يحين ذلك، أرجو من الله أن يحفظك».

عند وصول مبروك إلى منزل والده، لم يسمع شيئًا سوى عن المولد القادم، وأن الزائرين من قريته للمولد سوف يبدأون رحلتهم بعد الاستيقاظ غدا؛ لذا انهمك الفلاحون والدراويش في صقل وتنظيف ما يدل على تبعيتهم، ورسمت على رايات الشيخ - سواق الحمير العلامات المقدسة، المعروفة بعدما بسطت ونزع عنها الغبار المتراكم.. في كل بيت، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق، ويتم تجهيز الأكل والطعام اللازم للرحلة، وقام علاء الدين باطلاع مبروك على النوعية الجيدة من الحلويات، التي ينتوي أن يعرضها للبيع في المولد، آملا، ببركات الله، أن يرسي بذلك أساسًا لتجارة بسيطة ناجحة. لقد كان مبروك، بعد الله، هو من يجب أن يقدم له الشكر والثناء لخلق هذه الفرصة المدهشة، لأنه دون كرمه العظيم، ما استطاع علاء الدين أن يحصل على الأدوات اللازمة لطبخ هذه الحلوي وتجهيزها بأفضل المكونات.

في تلك الليلة، نقح على مبروك ضميره، بسبب ما تبقى لديه من المال المسروق من السوري، ومشهور عن السيد البدوي عند كل الناس أنه يصحح ويرشد عن الأخطاء والذنوب، كذلك وأنه قادر على إعادة المسروقات إلى أصحابها؛ لذا كان يعتبر أن زيارته لمقام أب المواساة، في حين

يمتلك في الوقت نفسه ثروة كلها ذنوب، إنما يعتبر أنه يرتكب ذنبًا عظيمًا. عندما قام باستشارة زينب في هذا الأمر، شاركته هذه المخاوف والظنون، ثم قدمت له اقتراحًا، هو أن يترك الذهب مخبأ في مكانه، مدفونًا في حفرة الأرض، وأن يحلف بأن يقوم بتوزيعها لاحقًا على الفقراء والمساكين عند عودته سالمًا، وبهذه الوسيلة لن تصبح هذه الأموال ملكًا له، وتكون مخصصة في الوقت نفسه لهدف نبيل. لكن وقبل كل شيء، ليس من المحتمل قطعًا أن السيد البدوي، المسلم الأمين

– ولا أحد مثله – سوف يهتم كثيرًا بما ضاع من هذا النصراني. لو كان المسلوب مؤمنًا حقيقيًّا، إذًا لاختلفت المسألة، وكانت زينب بنفسها تنتوي أن تسأل شيخ العرب، بلطفه المعتاد، أن يدلها ويرشدها إلى الكنز المخبأ لمحمد النوري؛ ليكون ملكًا لمبروك؛ لأنه الوريث الشرعي لهذا اللص الطيب.

مبكرًا، في صباح اليوم التالي، بدأت الرحلة، واحترز كل فرد منهم من ألا يخطو بابه إلا بالقدم اليمنى، قائلًا: «بسم الله الرحمن الرحيم!»، مهتمًّا بأن يكون المظهر الديني الذي يدعو للحفظ والسرور، هو الذي يحتفظ به في قلبه وضميره. بعض الرجال من الدراويش، ارتدوا العمامات الحمراء تكريمًا للسيد أحمد، وانطلقت الزغاريد من أفواه النساء، وصفقن بأيديهن عندما تحركت القطارات.. أما الأولاد الذين جلسوا أمام آبائهم على ظهور البغال والحمير، فقد أخذوا يصفقون ويهللون بأيديهم، أو يقضون وقتهم بالرقع على طبول صغيرة..

تدفقت تلك المواكب فوق الطريق المجاور للنيل، مثيرين سحابات من الغبار. في وسطهم - فوق ظهر جمل - استقر حافظ، الخطيب الأعمى، يرفع عاليا راية الولي سليم - سواق الحمير، وقماشها الفاخر يرفرف مع هبات الريح. وبعد هنيهة، أصبحت تلك الراية ثقيلة على تلك اليد العجوز، لذا تناولها منه أحد السائرين على أقدامهم، هنا توقفت الزغاريد والتصفيق للحظات، إلى أن وصلوا إلى قرية، وفي الحال انطلقت الضوضاء مرة أخرى، وطافت الراية عاليًا، وهي فوق ظهر الجمل.. كان كل من يقابلهم يبارك رحلتهم، وبعد وقفة نصف النهار، اختلطوا بمواكب زاحفة أخرى، حتى بدا الطريق الطويل أمامهم حيًّا ممتلئًا بالناس.. الكل يتحرك في اتجاه واحد، بدت الرحلة كأنما هي مسار جماعة من النمل، تعبر سهلًا لا نهاية له. عند الأفق، شيء ما كسر رتابة ذلك السطح المستوى؛ حيث ظهرت للعيان شكل مرتفعات ومنارات شامخة، فوق قمة ما يبدو في شكله، كأنه سحابة صغيرة، ولكنها كانت في الحقيقة هي الكوم، تلك المدينة التي تشغي (تزدحم)

بالناس، وفي هذا، انطلقت من حناجر الناس عديد من عبارات الحمد والشكر لله، ورجل له صوت حاد، أنشد:

طنطا، فيكي كل النور،

فيكي البطل والنور.

يا من أنت أهل العدل،

والراحة للقلب الحزنان،

يا صاحب الفضل والإحسان...

***

الفصل الثاني عشر

هبط الراكبون أمام خان مؤقت، وهو واحد من كثرة، انتشرت بقرب المدينة وتركوا البهائم هناك، وبعد ذلك تشتت الجماعات.. اتجه العدد الأكبر مباشرة إلى مدينة الخيام التي نصبت في الحقول، وكذلك إلى الأماكن التي تجمعت فيها كل وسائل المرح، وتتركز فيها جماعات الدراويش الورعة، وما أن ترتفع الرايات المعلقة للشيخ سليم، حتى تصاحبها الهتافات والتحيات – مع ذلك، ذهب مبروك مع كل أهله إلى مسجد السيد البدوي، يتحركون جميعًا ببطء تحت رحمة كل هذه الجماهير، التي زحمت كل الشوارع، وكان الميدان الذي أمام المسجد، يفيض بالمريدين، واستغرق الأمر من الشيخ مصطفى وأولاده وقتًا؛ لكي يستطيعوا اقتحام ممر لهم حتى المكان الرحب؛ حيث يتواجد ضريح السيد.

بعد الزيارة، خرج مبروك باحثًا عن علاء الدين، الذي كان يزعق على بضاعته في السوق.. كان عليه أن يحارب في كل بوصة من الأرض؛ حتى يصل إلى الشارع الرئيسي، الذي تراصت فيه المصاطب، التي وقف عليها الباعة عاليًا وسط بضائعهم، يجذبون إليهم محبي شيخ العرب. وأخيرًا، بعد اجتياز منطقة المباني، أصبح الصخب والضجيج البديل عن الاستماع؛ حيث استقرت هناك في الحقول، عبر خط السكة الحديد، قطعة أرض واسعة تعتبر وقفًا على الولي، تحتشد فيها خيام واسعة وأخرى ضيقة، وكذلك أخصاص، وأكشاك خشبية ودروات مغطاة بالجريد.. كل هذا جعل منها مدينة أخرى مستقلة، تبلغ ميلًا في الطول، وفيها تعثر على المتعة بكل أشكالها؛ إذ تقدم كل رخيص لكل باحث. أدرك مبروك أنه من الحماقة إمكانة العثور على شخص معين وسط هذه الجموع المتكاثفة؛ لذا اكتفى بالتجوال هناك، سعيدًا، مستعرضًا منظرًا بعد آخر، وواثقًا أن الصدفة هي الكفيلة أن تجعله قادرًا على العثور على بائع الحلوى في الطريق.

لمع غروب الشمس ثم انطفأ عبر الأرض المستوية، بينما توردت قبة ومنارات جامع السيد البدوي بلون قرمزي خلفها سماء فيروزية، ثم خفتت هذه الألوان مع العالم كله، وساد اللون الرمادي. بدا الشكل الخارجي للخيام يميل إلى اللون الأسود، وفي الحال برقت الأضواء الصناعية هنا وهناك، بينما فوق الجميع، فوق قمة الكوم الذي بنيت عليه المدينة، اكتسبت قبة الولي حلقات من نيران خفاقة، وطارت هذه النيران على شكل دوائر تحيط بالقبة.

في لحظة، أصاب مبروك صممًا، وهو يستمع للفظ الله، الذي يُزعق به في ركن مجموعة متفاعلة من الدراويش؛ في اللحظة التالية، وجد من تغمز له، وهي ضمن صف من الفتيات اللاتي يتراقصن، ويرجرجن صدورهن، فوق مسرح خارج خيمة عرض بمصاحبة الطار والدربكة، هذا بينما ارتفع صياح باعة المياه باسم السيد البدوي، يمنحون الماء دون اقتضاء الثمن لكل عطشان. وباسم السيد أيضًا، صاح العساكر المكلفون بحفظ الأمن والنظام، عندما يبعدون الناس ضربًا؛ لكي يمر أحد السادة المرموقين.

«يا شيخ العرب»، «يا أبو المعونة والنجدة»، «يا سيد الرأفة»، هذا ما صاح به كل متثائب، أو من وجد أنه يعوزه النطق بأي كلمة، حتى بائعات الهوى، كن يتوسلن بالولي لكي يرسل لهن الزبائن. أخيرًا، في وقت مبكر من الليل، وجد نفسه في مكان غير مزدحم من السوق، مكان واسع مفتوح، وهناك عمود ينتصب في وسطه، إنه مسرح يعتبر أحد الأعمال العظيمة للدراويش، وهنا كان عليه أن يخطو حذرًا؛ لكي لا يدوس على الناس، الذين رقدوا ناعسين على الأرض الترابية. وبقرب نهاية الميدان، كان هناك نبراسان يقذفان شعلاتهما هنا وهناك؛ طبقًا لحركة الرياح، تضئ وجوه دائرة من المتفرجين، وداخل الدائرة كان هناك عملاق ضخم يحرك ربع- عصا يدعو الرجال أن ينازلوه بهذا السلاح. أحد الأبطال تقدم نحوه، ولكنه سرعان ما هزم وسط ضحكات المتفرجين.. مبروك، وليس لديه ما يفعله، اندفع نحو الساحة، فتم وضع عصا طويلة بين يديه.

- «آه، وآدي عيل تاني داخل، عجل صغير.. دلوقتي شوفوا حأعمل فيه إيه، بعد دقيقة واحدة، حآكله أكل». هكذا جأر المتحدي بتكشيرة مخيفة، جعلت القوة تغادر أطراف مبروك، ومع ذلك استطاع هذا الشاب أن يسير قدمًا في الحركات المبدئية، حيث ضرب الأرض بتعمد أنيق، أولًا على الجانب الأيمن، ثم على الجانب الأيسر، ثم تصادمت عصاه مع عصا خصمه في منتصف الهواء.. كان وجه الآخر ضخمًا بلا شعر، يحمل الكثير من الندوب، يبدو كأنه الشيطان في ضوء تلك الشعلات المتماوجة.

في الحال، سعت إليه عصا خصمه بقوة وتصميم، تصحبها صيحة مرعبة، غطس بها مبروك إلى الأرض، منكمشًا على ذاته، وأفلت العصا من يده. كانت نظرة الرعب التي ارتسمت على وجهه مصدرًا لمزيد من المرح والضحك لدى الجمهور، وأخيرًا استطاع هذا الشاب أن يستجمع ذاته ويباعد ضاحكًا، بينما يزعق المنتصر: «مين في العالم ده كله يقدر يغلبني، سيدي البدوي هو اللي بيشدد إيدي اليمين!».

- «هو أنت يا مبروك؟» هذا ما نطق به صوت عند كوعه بينما يغادر هذا الجمع، عندما التفت وجد أنه علاء الدين، «أنا قربت أتفرج على التحطيب، بكده لقيتك.. الحمد لله، أنا بعت حلاوة كتير، ووزعت بعضًا منها من أجل خاطر السيد، ودلوقتي ركنت العدة ودورت على اللي يسليني.. شفت خيمة المديرية؟ هناك فرقة موسيقية هايلة بتلعب «لما مرِّيت عليها»، تعالى نشوفها!».

قاد علاء الدين مبروك عبر الساحة المفتوحة، وعبرا العديد من الخيام؛ حتى وصلا إلى ميدان آخر، حيث تتواجد هيصة كبرى أمام خيمة ضخمة مشعة بالأضواء المبهرة، عند مدخلها، كانت تصدر نغمات موسيقية ملائكية، مصدرها الناي والقانون والطبول، تتضافر جميعًا بشكل رائع. اقترب مبروك وصديقه، وانضما إلى الجمهور حول مجموعة الموسيقيين، الذين كانوا جالسين أرضًا.

عند مخرج الخيمة الخلفي، وسط العظماء الذين جلسوا بكبرياء في الداخل، كان هناك رجل متربع على الأرض، يعرض ألعابه بمصاحبة ثعبانين من نوع الكوبرا، كانا يلتفان حول رقبته، يصطدمان برؤوسهما اللعينة على وجهه، بل حتى كان يلحسان لسانه بألسنتهما المشقوقة؛ لذا ما أن شاهد الفلاحون ما يفعله حتى استعاذوا بالله، ولكن السادة العظماء الذين اتكأوا في الداخل على مقاعد وثيرة، كما يحدث في قصور الملوك، فإنهم لم يبدوا أي اهتمام بهذا أو بالموسيقى، إلا أن كل واحد منهم كان منهمكًا في الحديث مع آخر، وعلامات الاهتمام على وجوههم، وكان معظمهم يرتدي الطربوش الرسمي والبنطلونات السمراء.

استفسر طفل كان جالسًا، فوق كتف أبيه: «مين دول يا آبا؟»

- «يا حبيبي، دول من خلايق ربنا». كانت تلك هي الإجابة التي تحفل بالاحتقار.

أما قطيع العوام، فإنهم كونوا نصف دائرة عند النهاية المفتوحة للخيمة، وكان في استطاعة مبروك أن يتحقق من نهايات هذا الهلال من الوجوه. فجأة، وهو مروع، تحقق مبروك من هذا الوجه الذي طالما طارده.. إنه وجه الرجل السوري الذي قام بسرقته في كفر زين. كان وجهه تحت الطربوش الطويل يبدو أبيض أجنبيًّا وسط هؤلاء الفلاحين المعممين سمر الوجوه، في الحال، قام مبروك بسحب كم علاء الدين، طالبًا منه الرجوع خلفًا.

- «يحمينا ربنا!» هكذا صاح بائع الحلوى بحماس، عندما شرح له مبروك سبب هذا التراجع، ثم أضاف: «طَب خلينا نروح بسرعة لخيمة دراويش الشناويّة، أنا أقل واحد منهم، وهناك حتكون في

أمان بإذن الله، طبعًا عارف أن الشناوية هما رؤساء الطريقة الأحمدية، ومين يقدر يهين سيدي أحمد في مناسبة مولده؟»..

بمقولته هذه، قاد مبروك سريعًا إلى خيمة أخرى كبيرة، بالكاد أقل إنارة من خيمة المديرية.. في تلك الخيمة، كانت مقر حلقة الذكر في أوج نشاطها، حيث أمسك حوالي أربعين من المريدين أيدي بعضهم البعض على شكل دائرة حول أحد أعمدة الخيمة، يلهجون وينطقون باسم الله، بانحناءات وميل عنيف يمينًا ويسارًا، مع اهتزازات وارتجاجات حادة للجسد. قبض علاء الدين على يد مبروك، وقاده مارًّا بالمؤدين حتى قلب الخيمة، حيث جلس بعض العواجيز الأفاضل، الذين يرتدون ملابس فاخرة، يتناقشون ويستمتعون بالحلويات والمشروبات التي يقدمها لهم خادم.

قام علاء الدين بتقبيل يد أحدهم، كان يحتل موقع المضيف – وهو ليس أقل من كونه الشيخ الأكبر لطائفة الشناوية – كذلك قبّل يد شخص آخر يجلس على يمينه – وهو واحد من الفقهاء المنتمين للجامع الأحمدي، وهذا ما أخبر به علاء الدين صديقه همسًا، وفعل مبروك مثله، ثم جلسا معًا على مقاعد منخفضة، وقدمت لهما بالتالي المشروبات والحلوى.

ما أن شاهد علاء الدين أحد أعضاء حلقة الذكر يسقط أرضًا، حتى انتفض سريعًا وأخذ مكانه، وأخذ يردد اسم الله بإيماءات بطيئة جهة اليمين ثم جهة اليسار، وترك مبروك جالسًا بمفرده، لقد كان مبروك يشعر أنه في أمان وطمان، بينما اسم الله يتردد حوله. شاهد وسط هذا الجمهور الذي تجمع خارج خيمة الذكر، القوى المحيرة لعدوه، تضرس أسنانها بسبب هروبه من أسرها، ثم استطاع ذهنه أن يستوعب ويتفهم الحديث، الذي كان يجري بين الكبار الجالسين بقربه.

قال الشيخ القادم من الجامع، وهو يهز رأسه بقوة: «والله الأمور أصبحت سيئة للغاية في البلاد الأيام دي.. الناس اللي حضروا من العاصمة انهارده، أكدوا أن التذمر العسكري يتزايد، وإن قلة أدبهم اللي حصلت من ثلاث شهور، خلت عرابي وإخوانه يخافوا لبعدين أفندينا ينتهز الفرصة ويخبص عليهم، وهما مش واخدين خوانة. كل ليلة تلاقيهم مجتمعين في بيت عرابي، يتشاوروا إزاي يخلوا قوتهم أشد، وهما خلوا ناس من عندهم يبعثوا رسائل لكل المديريات، ذكروا فيها كل الإساءات، وطلبوا من كل الأعيان أنهم يمضوا على عرائض، يطالبوا فيها بتحقيق إصلاحات عادلة في الحكم، الكتير منهم مضى خايف من قوة عرابي، اللي ظهرت في التمرد الحالي. آه، شيء مؤسف أن حاكمنا الحالي ما أخدش في باله نصائح أبوه الذكي، لما قيل إنه نصح ابنه إنه يتخلص من عرابي وأصحابه بسرعة، لكن محمد توفيق إنسان رحوم ما حاولش أبدًا إنه يتخلص

منهم.. لكن مهما كان الموقف، أتمنى من الله أن لا يحدث تمرد شامل، لأن أفندينا ده راجل مسلم وحقاني خالص».

قال زعيم الدراويش، وعلى وجهه تكشيرة عجيبة: «هو بصراحة غلط لما لغى طقس الدوسة!».

- «بالنسبة للموضوع ده، لا أعرف شيء، موضوع ما يخصنيش، بصراحة الموضوع ده زعلكم أكثر من اللازم، ومع ذلك مش ممكن نعتبره موضوع ضار بصلب العقيدة، لكن إحنا العلماء غضبانين بالأكثر؛ لأن أفندينا ماشي على عوم الإفرنج في موضوع العبيد.. إنه يسحق التمرد اللي حصل في السودان ده شيء، لكن أن يتدخل في شئون تنظيم أمورنا المنزلية، فهذا شيء تاني. القرآن ذاته يؤكد ضرورة إتباع المعاملة الإنسانية مع العبيد، لكن الواحد إزاي يعامل ناس تانيين بالإنسانية في حاجة اتمنعت نهائي؟».

هنا، لم يستطع مبروك الامتناع عن الإفصاح عن رأيه بكلمة، إلا أنه تحدث بكل تواضع، يداه مختبئتان داخل أكمامه، عيونه خفيضة؛ فهو يشعر بالحرج أمام كل هؤلاء الفقهاء، الذين يستطيعون الاقتباس من أقوال النبي ومن والاه؛ تأييدًا لما ينطقون به.. أما هو، فإنه لا يستطيع أن يمدهم بأي معلومات من علمه الحديث، مقارنة بمعارفهم، فكل ما تعلمه ليس له أي صلة بالمعارف الدينية والإلهية؛ لذا ظهرت عليه ملامح الخضوع والاستسلام، وهو يقول: «لكن هل من المعقول أن كل ثروة مصر تقع تحت تصرف الخواجات ووكلائهم؟»

أجابه الشيخ القادم من الجامع، بينما هناك ابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه: «آه يا ابني، وهل ده ممكن يدخل ضمن شئوننا، سواء أنا أو أنت؟ وأي نصيب يمكن أن نحصل عليه في أي وقت من الدخل، اللي يتجمع هنا في مديريتنا دي التابعة لبر مصر؟ هو بس أفندينا اللي بيعاني؛ لأنه ورث ديون أبوه.. انهارده، كل القوى العظمى في أوروبا تعتبر من عبيد المرابين اليهود، اللي بيكرهوا المسلمين، وأفندينا - وهو مضطر يوافق على طلباتهم - يتمنى من كل قلبه إنه يسدد كل الديون، وكده يتخلص منهم؛ لأنه يعرف إنه مرتبط بعقود ملزمة. فيه كتير ناس بتقول إن سيطرة اليهود علامة على ظهور المسيح الدجال، وربنا هو الوحيد اللي يعلم! لكن من المؤكد إن قيام ثورة دلوقتي

، تحقق للخواجات فرصتهم، يعني باسم أفندينا، يمكن لهم إنهم يسيطروا على كل بلدنا، وبالطبع

لا يمكن فرض الجهاد على سلطة مسلمة حقَّانية؛ فده حيكون على شكل تمرد دون غرض ديني مقبول، ومصر هي اللي حتكون مقطوعة عن باقي الدول الإسلامية، والخواجات حيهزموها ويحتلوها كمان، وده اللي خلَّى بعض الناس تقول إن أحمد عرابي ورجالته إنما مدفوعين من

الأوروبيين، ولكن أنا متأكد عكس الكلام ده، هو راجل طيب، مدفوع وبيتصرف في أمور، هو مش فاهم معناها، والعساكر نازلين يسقفوله».

ما أن انتهى هذا الشيخ من حديثه، حتى خاطبه شيخ الدراويش: «والله العظيم، انت بتتكلم كأنك ملاك من السما، لكن اسمح لي اختلف معاك شوية. أفندينا مش بس غلط في موضوع إلغاء الدوسة وتجارة العبيد، لكن إتقال كمان إنه بيشجع التفكير الحر، ومش من المؤمنين بمعجزات الأولياء».

نطق الشيخ بذلك، وهناك نظرة ماكرة تلمع في عينيه، بينما يقبض على شعيرات ذقنه مراقبًا تأثير حديثه؛ ذلك أن صديقه هذا كان أحد الأوصياء على ضريح السيد البدوي، وهو مكان يحفل بالمعجزات، ويعتبر مصدرًا عظيمًا لزيادة الدخل.

«أف..».، هكذا بدأ شيخ الجامع، ولكنه سرعان ما فطن للمطب؛ لذا غير من لهجته واستمر بأسلوبه التعليمي: «بالطيع، فيه كتير من المعجزات المزيفة، مجرد خيالات مريضة من العامة، لكن من يجرؤ أن ينكر إن فيه معجزات حقيقية؟ بالطبع ده لا يمكن يصدر مننا إحنا، أهل بيت سيدنا البدوي، لكن هناك أدلة يومية على شفاعته، اسمع دي كمثال:

«... مرة، كان هنا في بلدنا واحد قبطي غلبان، عينه القسيس عشان ينضف الأواني المصنوعة من الذهب المستخدمة في صلواتهم. في يوم، الراجل ده سرق الأدوات دي، ولفُّهم في قماشة وحطهم في صدره وخرج بيهم. في السكة، قابلوه شوية حرامية، فتشوه وسرقوا منه الأدوات دي. القسيس بالرغم من دموع الراجل، اتهمه بسرقة الحاجات دي اللي بيقدسوها ويكرموها، ولم يكتف بضربه، لكنه كمان حرمه من الطايفة. أصبح الراجل ده في حالة يأس، أخد يدعي كل أولياء المسيحيين، ولكنه لم يحصل على أي إجابات، في الآخر قال في نفسه ما فيش قدامي غير السيد البدوي – الله يعزه – بعد كده، وهو ماشي في السوق، شاف الأدوات دي معروضة في محل، بس كانت متوسخة، عشان ما تبان إنها مصنوعة من الدهب. هو مسك فيها وخطفها وجري، الناس جريت وراه لغاية الكنيسة، واستقبلهم القسيس بالنيابة عن العامل. التاجر قعد يزعق «يا مسلمين!»، وطلب إنهم يعرضوا مسألتهم عند القاضي، وبحق السيد البدوي، القاضي حكم بالحق للأقباط، وحالًا اعترف التاجر بأسماء اللصوص؛ لأنه كان خايف لبعدين إيده اليمين تنقطع. إمبارح، حضر عندنا القبطي المسكين لغاية باب الجامع وطلب يتكلم مع حد من الفقهاء. أنا بنفسي خرجت له، حكى لي حكايته، وطلب انه يقدم مبلغ مالي بسيط للضريح والفقراء. عشان كده، مين يقدر يشك في بركاتك يا شيخ العرب، بينما حتى الكفرا بيشهدوا ليك؟».

انتهى الذكر الآن، لذا جلس المؤدون، وهم ينهجون أو أنهم رقدوا مجموعات على الأرض. هم، وكل من استمع للقصة، حمد الله على رحمته؛ لكن مبروك، جلس أعمى أطرش، جزعه كله ينبض، وفي حالة من الذهول، كما لو أنه وقع من فوق ظهر جمل. حتى الآن، كان يظن أنه لا يمكن للولي المسلم أن يقف في صف المسيحي، ولكن استقر في وجدانه الآن مدى قدرة شيخ العرب، وإنه الآن يعمل ضده، وإلا من أرسل لهذا السوري الملعون لكي يحضر المولد؟

دعته الفطنة إلى أن يرحل على الفور من مجلس هؤلاء المتدينين، خدام سيدي أحمد، الذين ربما يقدمون الآن على القبض عليه وتكبيله، أو هكذا ما رسمه له خياله المشوش. لذا بعد كلمة مع علاء الدين، استأذن حضرات هؤلاء السادة، وتابع كل من الصديقين تجوالهما في شوارع مدينة الخيام، وما أن علم علاء الدين بما يشغل بال صديقه، حتى قال:

«القصة دي ما لهاش أي صلة بحالتك، دي تختص بواحد غلبان، لجأ لسيدنا أحمد في محنته، فالفقراء حتى المشركين منهم هم عزاز على الله، لأنهم
لا ينسونه أبدًا، لكن الشامي ده راجل غني ورأسه لفوق، عشان كده مش ممكن يلجأ لسيدنا، وطبعًا سيدي السيد حياخد في باله إنك أنت راجل كريم، وما تنساش الهدية النبيلة اللي منحتها لي أنا العبد الفقير».

وقف علاء الدين صامدًا أمام خيمة كاملة الضياء؛ حيث وقف رجل له رئتان تليقان بثور، يزعق داعيًا الناس أن يشاهدوا حكمة الخواجات، وهي معروضة في السيرك اليوناني، اللي هو ملك واحد اسمه إسكندر، حيث تعرض فيه كل أنواع المدهشات. كان علاء الدين يود الدخول، ولكن مبروك اعترض، فما كان يشغل باله انتزع منه كل رغبة في الاستمتاع؛ لذا فشلت جميع صيحات العارضين أو ابتسامات الراقصات السمينات في جذبه للدخول. لذا في النهاية، تعشيا معًا في شارع تقديم الفضلات، ذاك الذي لا يطرقه سوى موردي الأسماك الفاسدة، ثم، وهما يرغبان في هجر مجال المتعة والفرجة، سارا في مجال سهل واسع مفتوح، الذي
بدا- بعد الصخب والضجيج - خاليًا، كأنما هو صالة فسيحة فارغة، فهذه المدينة التي كانت مكدسة بالجماهير، أصبحت الآن خالية تحت سماء مرصعة بالنجوم.. كان كل شيء غارقًا في الظلام، ما عدا الإنارة التي تحيط بجامع السيد، تلك بدأت تدريجيًّا في الخفوت؛ بحيث ظهرت بعض الفواصل معتمة. وعلى مرتفع تحت شجرة توت عجوز، ذكر كلاهما اسم الله واستلقيا ليناما، حيث قامت

نسائم الليل برفرفة أوراق الشجر نحو السماء، وظهرت النجوم كأنما تغمز لهما؛ فرقد كلاهما ملفوفًا بعباءته، وخبأ كل منهما رأسه في حضن ذراعه، ومات بالنسبة لهما كل ضجيج البلد.

***

الفصل الثالث عشر

حَلمَ مبروك بأنه قد سرق بعض الأواني الثمينة من مقام سيدي أحمد، ثم اخذ يجري وهي مخبأة في جلبابه، وهناك جمع كبير يطارده، يقودهم ذلك السوري الملعون. أخيرًا، استطاع مبروك أن يصل إلى السهل المفتوح ولاح له الأمل في الهروب، إلى أن وقف أمامه رجلًا عجوزا حاجزًا إياه، والتمعت أمامه عينان براقتان صارمتان تحت لباسه العربي. هذه العيون جعلته مشلولًا مكانه وبلا معين، بينما وصل إليه المطاردون، الذين جثموا كلهم فوقه، كانوا على أتم استعداد أن يمزقوه إربًا من الطرف إلى الآخر.. وهنا استيقظ من نومه.

كانت المدينة وجامعها الشهير تحيطه هالات الفجر، بينما هناك شحوب معلق في الهواء فوق السهول اللامتناهية، التي ما زالت خافية عن النظر، وليل تحت حراسة نجوم هادئة، أما صديقه علاء الدين، فإنه كان ما يزال مستغرقًا في النوم.

لم يساور مبروك شكًّا من أنها كانت رؤيا، ولكن مشهد الشيخ العربي حقيقي، لذا وهو يعاني من برد هذه الساعة المبكرة، حلّ عليه وقبض قلبه بعض من تأنيب الضمير، واستقر في وجدانه أنه ملزم أن يتضع فورًا أمام مؤنبه العظيم؛ لذا - وهو مستسلم لقضاء الله - ترك علاء الدين نائمًا، وسار متجهًا نحو قلب المدينة.

فوق كل منطقة جافة، وداخل كل خيمة، رقد الرجال والنساء والأطفال، حتى الشوارع كانت مبثوثة بأشكال نائمة.. هنا وهناك، جلس رجل يدعك عينيه أو يرفع يديه للسماء، أما القلة التي استيقظت، فإنهم كانوا يسيرون الهوينى في الاتجاه، الذي يسلكه مبروك، تجاه المدخل المرتفع لجامع السيد البدوي.

كانت الظلال تتحول إلى اللون الأزرق، عندما عبر مبروك، ودخل القاعة الكبري، حيث، في الأيام العادية، يجلس داخلها طلبة الجامعة، مكدسين في مجموعات أمام معلميهم، إلا أنها الآن مزدحمة بالفلاحين، الذين قضوا الليلة هناك، بينما احتشد عدد كبير من الناس أمام مكان الغسيل والوضوء، لدرجة أن مبروك شكَّ في أنه سوف يلحق بموعد الصلاة، ولكنه نجح أخيرًا في أداء فريضة الوضوء، وانضم إلى مجموعة المؤمنين، الذين زحموا المكان المقابل للمحراب، في الوقت نفسه الذي انساب فيه صوت المؤذن الحلو، يهبط على آذان السامعين، كأنما الندى هابط من السماء.

ما أن انتهى مبروك من صلاته، حتى مرَّ متجها إلى مقام الولي، حيث يكثر الازدحام الشديد، لذا واجه صعوبة بالغة، حتى وهو يمد يدًا مشرعة حتى آخرها، فمن كل الأنحاء، كانت تصدر التحيات والبركات في شكل حب جارف.. واحد من الدراويش كان واقفًا بجوار مبروك، رفع يديه عاليًا، وصدر منه فيض من الحمد والشكر، وكأنما هو ملهم، قال: «سمحت لينا نزورك مرة تانية يا شيخ العرب، ربنا يتقبلك يا أب المعونة والنصرة! لكن كل من ارتكب ذنبا، عليه أن يحضر إليك، ويترجى عفو الرحمن، التفت دلوقتي ليه واعمل معاه الخير، وبرحمة ربنا حسناته تغطي على سيئاته في يوم الدين».

تلك الصيحة ومدلولاتها استقرت حالًا في قلب ووجدان مبروك، كما لو أنها صدرت من فم الولي ذاته؛ لذا كخطوة أولى للتكفير عن ذنبه، أقسم انه سوف يصبح سقاءً لمدة ثلاث ساعات في عز حر هذا اليوم، بصب الماء البارد لكل عطشان، على اسم السيد. وبهذا العزم، اقترب من مكان الضريح، وأخذ يتفرس في وجوه الجالسين، باحثًا عن أي واحد يعرفه؛ لكي يفصح عن قسمه هذا ويؤكده.

كان هناك عديد من النوافذ ذات الأفاريز العريضة، مثبتة في جدران الرواق، فوق هذه الأفاريز، استقر الفلاحون الذين أرسوا فوقها نساءهم وحاجياتهم للضمان، وكانت النسوة يجلسن مربعات، يمضغن المكسرات ويأكلن الحلويات، وينظرن من خلال المشربيات على الشارع.. استعرض مبروك من حوله، ثم شاهد اثنتين من النسوة يشرن إليه، عندما اقترب منهما، عرف إنهما أمه وزوجته.

قالت الأم: «شفت أبوك يا مبروك؟ ده بيدور عليك.. رحمتك يا رب، مصيبة وحلت على أخوك رشيد وحياة النبي! هو غلطان إنه ساب مراته في البلد، لأنه إمبارح واحد صاحبه خلاه يروح مكان كله مسخرة، المكان اللي بيقعد فيه الخواجات.. هناك حبيبنا رشيد وقع في حب واحدة نصرانية، كانت بترقص قدام كل الناس.. قعد يتنطط ويتنهد باسمها طول الليل، وانهارده الصبحية كان غضبان ومش عايز يتحدث مع حد، عشان كده هو يمكن يسمع لك لأنه بيحبك».

أجاب مبروك بأنه سوف يبذل كل جهد لمساعدة أخيه المتعب، لقد كان قادمًا لكي يخبر نسوة منزله ما يعانيه ويشغله، عندما لاحظ أن زينب تخرج من عبها العلبة الفضية التي كان قد وجدها في كفر زين، وما أن بدأت في فتحها بهدوء لتخرج منها شيئًا يخصها، حتى قام مبروك بخطف العلبة من يدها، وهو يصب عليها للعنات.. هل كانت زوجته بهذه الدرجة من الغباء، بحيث تحضر

معها ذكرى جريمته إلى حرم هذا، الذي يجتهد في رد الحق لأصحابه؟ لا شك أنه لهذا السبب كان ضائقًا به.

احتجت الفتاة، وهي تنشج من تهجمه المفاجئ عليها، قائلة: «العلبة دي أنت اديتهاني هدية، وربنا يعلم أنها مش مسروقة، لكن أنت لقيتها مرمية في الأرض.. طبعًا مش معقول سيدي أحمد يكون ضدك، لأنه كمان هو ورانا إزاي نلاقي كنز محمد النوري. مش كده يا أمه؟ شوية الستات دول بيقولوا إن فيه واحد مغربي هنا، ما فيش حد زيه في العالم يعرف فيه أي حاجة مستخبية. احنا عرفنا اسمه وساكن فين، تعالى معانا بعد الضهر انهارده، وخلينا نعرف ميِّته».

ما أن سمع مبروك ذلك، حتى هدأ قليلًا، ومع ذلك ظل قابضًا على العلبة الفضية، ثم وضعها في عبِّه، وبعد دقائق قليلة غادر الجامع.. أخذ يدعو الله أن يصادف غريمه في مكان عام، وبذلك يستطيع أن يدفع إليه بهذه العلبة «خد دي على اسم مولانا السيد»، ثم يختفي سريعًا وسط الناس.

الآن، في هذا الوقت المبكر من سطوع الشمس، مرة أخرى ازدحمت الشوارع بالناس من الجدار للجدار، وعند سلالم الجامع ظهرت رؤوس الناس متكاثفة، وهي تتحرك كما تفعل الرمال، وهي تتسرب من الساعة الزجاجية.. كان مبروك مرتديًا بلغته، عندما شاهد علاء الدين، وشاهد كذلك والده ضمن رهط من الرجال القادمين.

صاح الشيخ مصطفى: «الحمد لله اللِّي لقيتك، أخوك رشيد المسكين أتجنن! واحدة بنت أكلت مخه.. أنا حاولت أتفاهم معاه، لكن ولا فايدة، تعالى معايا دلوقتي، يمكن نقدر تعمل حاجة».

استدار الرجل بدلًا من أن يدخل الجامع، وساروا هم الثلاثة متجاورين، حتى مدخل حارة، حيث خف الزحام؛ حيث أمكن لهم أن يسيروا بارتياح يشاهدون الدكاكين على الجانبين؛ حيث ينادي عليهم البائعون لينظروا بضائعهم بحق السيد.. ولد صغير قدم بسرعة نحو مبروك، وأمسك بذيل جلبابه، قائلًا:
« على اسم السيد البدوى»، ثم تلعثم، وهو يضع وردة في يد مبروك، وبعدها غادر المكان بسرعة كما ظهر.

من هذه الحارة المليئة بالمحلات، استداروا ودخلوا حارة أخرى هادئة وخالية، وأخيرًا وصلوا إلى منطقة مفتوحة صغيرة، حيث يوجد بيت منهار من الطوب اللبن، وعلى كومة من المخلفات، جلس رشيد التعيس، وحوله عدد من المتفرجين الصغار؛ لذا انضم هؤلاء الجدد إلى تلك العصبة

من المعزين.. كلهم كانوا يستصعبون على الشاب، ويدعون أن يرحمه الله، ويحاولون بأساليب لطيفة أن يجذبوا انتباهه، ولكنه لا يلتفت أو ينتبه؛ إذ كان يئن ويتأوه ويهز نفسه بقوة، ينطق بين الحين والآخر بكلمات كلها حب وهيام:

«آه يا حبيبتي...هو أنا غلطت في حقك لما تجرحيني بالشكل ده؟ من فضلك خلِّي وشك عني، ارحميني! حرام تقتلي الناس بجمالك ده...يا روحي، رقصك مش حلو، وأي بنت في الأرياف ترقص أحسن منك، لكني أظن أن حوريات الجنة يرقصوا زيك...أنا بصيت في عين الشمس، بكده اترسمت صورتك في عيني لنهاية العمر.. أنا اتعميت، بقيت أمشي أحسس. فينك انتي يا حبيبتي؟ يا شيخ العرب، وريني هي ساكنة فين وخليها ترحمني، وما تبعدش عني أنا المظلوم، يا حلاوة... انتي حلاوة... يا حلاوة».

تنهد وتصعب الشباب الواقفون حوله، وقال أحدهم: «يا رب العالمين، مصيبته هي مصيبتنا إحنا كمان، محرومين من الحب يا شيخ العرب، يا حلاوة! فينك يا حلاوة!».

همس الشيخ مصطفى في أذن مبروك: «هي يظهر اسمها حلاوة وشغلها إنها تغري الترك والخواجات، وللأسف هي تقتضي مقابل خدماتها بأسعار أكبر من مقدرة الناس العاديين، وعلى الله ده يهدي خاطر رشيد».

مبروك، الذي كان يحب أخاه، جلس يراقبه حزينًا، بينما جعلت أكوام المخلفات التي تحيط بها جدران المنازل الطينية، جوهرة السماء تبدو أكثر بريقًا، كأنها عين لامعة في وجه غَضنٍ ذابل.. فجأة سمع رشيد، وهو يصيح:

«يا شيخ العرب!»، هنا داعب مبروك الأمل في إفاقة أخيه، لذا صاح أيضًا:

«يا شيخ العرب، أنا ندرت إني أوزع مية على العطشانين انهارده الضهرية، يا ريت تخلي أخويا رشيد يكون شريكي في العمل ده، وبإذن الله ينال كل ما يتمناه!».

مال رشيد تجاه المتحدث، مبتسمًا كأنما هو يستمع لقطعة موسيقية، وتدريجيًّا اختفت من وجهه تلك النظرة الغبية، وتمتم قائلًا: «كلامك حلو، ممكن أنا وأنت نتعب في عز الحر، لكن على شرط، بعد ما يحل الليل، تيجي معايا مكان مصيبتي. اعتبر دي مبادلة يا حبيبي!».

كل من جلس حوله، حمدوا الله على شفائه العاجل، فنهض رشيد، ووافق أن يرافق أهله إلى الخان؛ لكي يأكل ويشرب ليستعد للعمل الموكول إليه، بينما غادرهم علاء الدين، ذاك الذي يعرف

أسرار هذا السوق، لكي يستأجر لهما الأدوات المطلوبة.

في وقت اشتداد حرارة النهار، وضع كلا الشابين فوق أكتافهما قربة ماء، وتحركا هنا وهناك وسط الجماهير، يخبطان كوزين في بعضهما، صائحين: «المية الباردة يا عطشان!»...سارا وسط الخيام؛ حيث تشبع الهواء مليًّا بالغبار، في ساعة جعلت منها حرارة الشمس كل الأشياء تبدو بلا لون.. حملا الثقلين، يرضخان لطلبات الفقراء، حيث تقوم فوهة القربة بصب الماء، الذي به طعم الليمون في واحدة من الكيزان، لقد كان مبروك سعيدًا بهذا العمل الخيري، متأكدًا أن الرجل السوري ليست له أي سلطة عليه الآن، وكان يتمنى أن يظهر أمامه هذا التعيس، يرغب أن يشرب من الماء المطعم برائحة الليمون، حينئذ يمكن له أن يعطيه علية السجائر، وبذلك يزيح عنه أي التزام نحوه.

مع نهاية الساعة الثانية ظهرًا، كفَّ الأخوان عن عملهما التراحمي، وأعادا الأدوات إلى صاحبها، ثم عادا إلى الخان بظهور مرهقة متألمة، وهناك، قام رشيد، ذاك الذي لم يغمض له جفن الليلة الماضية، بالرقاد على الأرض، مستغرقًا للتو في نوم عميق، ففكر مبروك أن يفعل مثله، عندما وعي لحملقة أحدهم فيه، وهو مار في الشارع. وفي غمار ذهنه المختلط المشوش، مرت دقيقة كاملة، قبلما يعي أن هذا هو الشخص السوري.

في هذا الوقت، كان هذا الشخص قد اختفى، فطار مبروك وراءه، معتقدًا أن تلك هي اللحظة المناسبة؛ لكي يرد له علبة السجائر، ولكن هذا الرجل لم يعد في مجال البصر؛ ففي نهاية الشارع، كان يتحرك جمع كبير من الناس؛ لذا كان البحث عنه بلا أمل.. عاد مبروك إلى الخان مخيبًا، وتحسَّس في هدوء باحثًا عن العلبة، لكن هذه اختفت أيضًا.. داهمه أولًا شعور بالضيق جراء هذا الاكتشاف، ولكنه عندما فكر مليًّا، حمد الله. لعله هو السيد البدوي، وهو يغبطه على فعل الندم والتكفير، قام بنفسه بتخليصه من هذه المهمة الشاقة، ولعل العلبة، بشكل إعجازي، انتقلت إلى صاحبها.. كان مبروك يتمنى أن يكون هذا ما حدث بالفعل.

عاد مبروك إلى الخان، وجلس لكي ينام بجوار أخيه، لكنه سمع للتو صوت أمه وزينب، ثم وضح شكلهما المنقب ممثلًا سوادًا شاملًا في المدخل.. قاما بسؤاله عما إذا كان واجبًا أن يستشيرا الرجل المغربي بخصوص كنز محمد النوري، فأجاب: «على الله ينفع!»، ثم ذهب معهما.

بإرشاد ولد صغير، ساروا في عدة حوارٍ ملتوية، حيث لا شيء يقف في سبيل تكرار تلك الجدران الطينية، فيما عدا ما يصادفهم من أضرحة بيضاء، أو مدخل جامع صغير مزركش، وفي حارة مقفولة، طرقوا بابًا خفيضًا، كان هو المَعْلم الوحيد في جدار عال بني اللون؛ فسمعوا صوتًا عميقًا له نبرة أجنبية، يدعوهم للدخول، وهنا تركهم الغلام المرشد هاربًا.

***

الفصل الرابع عشر

كانت الغرفة إلى دلفوا إليها غارقة في ظلام دامس؛ لذا غمغمت السيدتان بشكل تلقائي: «العفو والسماح يا مباركين!»، وهو كلام معتاد قوله عند الدخول لأي مكان متخم بالجان والعفاريت. لكن ما أن نسيت عيونهم ضوء الشمس؛ حتى استطاعوا أن يتحققوا من ظهور ضوء بسيط، خلف باب موصد لغرفة خلفية، ووصل إليهم الصوت نفسه السابق مرة أخرى، صادرًا من هذا الحرم الداخلي، يأمرهم أن يحضروا إليه في غرفته، وما أن عبروا الباب حتى تقابلوا مع العراف، الذي بدا عليه أنه قد استيقظ من النوم حالًا، وكان نائمًا فوق مرتبة على الأرض، وما زالت الأغطية غير مرتبة.

كان العراف رجلًا طويل القامة، نحيلًا، في عمر متوسط، له فك مائل، بشرته نحاسية اللون، عيناه متقاربتان للغاية بالنسبة لأنفه المعقوف، التي تنقل للرائي مظهرًا شريرًا، بينما تحاول ابتسامته الواسعة المتكلفة أن تصحح من مظهر وجهه. لقد كانت عمامته المكبوسة بإحكام وجلبابه من أقمشة ثمينة، ولكنها قديمة وقذرة، كما كانت ساقاه وقدماه الحافيتان باللون النحاسي نفسه.

بينما انهمكت المرأتان في الثرثرة وعرض مشكلتهما، أتيح لمبروك فرصة لأن ينظر فيما حوله، فرأى بجوار المرتبة، مجمرة كانت تستقر في ركن، بجوارها عدد من الأواني غريبة الشكل، ومن ذلك الضوء الذي تسرب من بضع عوارض خشبية تسد نافذة الغرفة، يتضح أن هذه النافذة تطل على حارة أخرى؛ بسبب الأصوات ووقع الأقدام المسموعة عبرها.

طرح الوافدون سؤالًا:

- «ممكن تعرف لنا الكنز ده مدفون فين؟».

- «بتقولوا أعرف؟ طبعًا أعرف، لما تدفعوا المعلوم حأخلي الجان بإذن الله يدور في كل مكان، ودي أسهل طريقة وأضمنها، لكن إنتو بتقولوا الحق يا مخبيين وشكم.؟ غريبة تسألوا إنه ممكن يحصل المطلوب

ولّا لأ؟ أنا أؤكد لكم، طبعًا ممكن، إذا كان صاحب الحاجة مات فعلًا، لكن إذا كان لسه حي، ما فيش قوة في العالم تلاقي كنزه المستخبي. لكن أحب أبلغكم أن الطريقة دي أغلى. إنتو بتقولوا إن الشاب ده هو الوريث الشرعي؟ طبعًا هو مستعد إنه يدفع كويس عشان يحصل على الكنز».

قال مبروك، وهو مشرق الأسارير: «أديلك عشر الكنز».

هزَّ العراف رأسه، وظهرت على وجهه علامات المكر، التي تغلبت على ابتسامته: «لا والله، الموضوع ما يمشيش بالشكل ده! الثمن يندفع أولًا، يعني
– دلوقتى- دون كده ما فيش شغل.. أنا أحذركم، هو شغل صعب ويخوف، ودي آخر كلمة لي. ودلوقتي، حتدفعوا كام؟».

هنا حدثت احتجاجات حارة من المرأتين؛ لأنه مش معقول أن يتم الدفع قبل إتمام الشغل. لكن هذا العراف لم يصنع شيئًا سوى أن تزداد ابتسامته اتساعًا، مكررًا: «دي كلمتي الأخيرة!». أخيرًا، وقد كانت والدة مبروك معها بعض المال أحضرته معها لهذا الغرض، لذا قدمت عرضًا، لكنه قوبل برفض غاضب من الرجل، ثم بدأت المساومات بكل حرارة مجددًا. أما مبروك، وهو أقلهم طمعًا في الحصول على الكنز، ترك الأمور المبدأية هذه للمرأتين، وجلس، يفكر ويتدبر في الكثير مما يشغل باله.. ربما تكون العلبة الفضية قد سرقت منه. على أية حال، لم يستطع مبروك أن يخلي باله من إحساس، يؤكد له أن هناك سببًا إعجازيًّا لاختفائها، إلا أنه لا يستطيع أن يقرر ما إذا كانت هذه الحادثة دلالة على وقوع خير، أم شر قادم.

أخيرًا تم الاتفاق على الثمن، وبينما النقود تدخل جيب العراف، قام مجددًا بتحذير الراجين معونته من أن شجاعتهم مطلوبة إلى أقصى حد.

صاح العراف: «يا داود!» وصفق يديه، وهنا ظهر ولد صغير بشكل مفاجئ، قادمًا من الغرفة المظلمة الملحقة، لدرجة أن مبروك والمرأتين ظنوا أنه انبثق من الأرض، فأمره قائلًا:

- «حضَّر كل حاجة للسحر العجيب!».

قام الولد أولا بسد الثغرات في قطع الأخشاب الموصدة للشباك، باستخدام خرق بالية وبعض الجِلّة الجافة، ثم جذب المَجْمرة لتستقر في منتصف الغرفة. وركع بعد ذلك لوهلة وأخذ ينفخ في جذوة متوهجة، ثم أحضر بعدها موقدًا وصفًّا من الزجاجات.. اتخذ العراف موقعه وراء المجمرة، قائلًا: «ما حدش فيكم يذكر اسم القوي الكريم!»، ثم صاح بصوت عال أجش مخاطبًا الولد: «خد الوردة من إيده!».

لم يكن مبروك على وعي أنه كان ما زال مستمرًّا في شم الوردة، التي أعطاها له الولد الصغير هذا الصباح باسم السيد، إلا عندما تقدم داود نحوه بنظرة مترجية، وتناولها منه، ولكن العجيب في

الأمر، ما أن غادرت الوردة يده، حتى اشتاق إليها اشتياقًا عظيمًا؛ إذ شعر أنه بذلك قد فقد آخر عون له.

عاد الولد إلى جانب العرّاف، وبكلمة من الساحر، تناول الولد واحدة من الزجاجات وأخذ منها شيئًا، يبدو كأنه نوع من الغبار ونثره داخل المبخرة. فانتشر بعدها دخان كثيف شمل الغرفة كلها.

بدأ الساحر ينطق بكلمات تعويذة طويلة، لم يستطع مبروك أن يلتقط منها أي كلمة مفهومة، ومن وقت إلى آخر، كان العراف يتوقف عن النداء، ويتنفس بكلمة للغلام، الذي يضع مسحوقًا جديدًا على صينية الموقد، ثم يلقيها في النار. وفي كل مرة، ينبعث دخانًا عطريًّا حتى أصبح هواء الغرفة متكاثفًا بها، فشعر مبروك أن رأسه تعوم بفضل تلك الأبخرة الفعالة.

اختفت من نظره جدران الغرفة، وفي لحظة شعر كأنما هو في الصحراء، موقع كل سحر، بينما في اللحظة التالية شاهد نفسه جالسًا فوق سجادة سحرية، تطير به في الهواء بسرعة خيالية.. بدا له شكل السيدتين الجالستين وظهرهما له، كذلك شكل العراف الجالس القرفصاء، ووجهه، في وهج المجمرة، يظهر ويختفي، مع كل هبة من هبات الأبخرة، بينما يتحرك الولد صامتًا – كل هؤلاء ظهروا كأنهم يطيرون أمامًا نحو بلاد مجهولة، علم الآن ما سوف يظهر تاليًا – شيء فظيع، وبلا شك هو الذنب ذاته.. كان يتمنى أن يشاهد منظرًا آخر، واحدة من حيل العراف، أن يجد نفسه جالسًا ضمن عرض من عروض استحضار الأرواح، فقد كان الخوف الذي انتابه عندما شاهد الرجل السوري لا يضاهي ما يعانيه الآن. سمع اسم الحرامي يتردد ثلاث مرات بلسان العراف، وبدت كل المجموعة تطير الآن بسرعة مخيفة، والدخان يتطاير حولهم، ثم انطلقت صيحة غير أرضية، بعدها انفلقت الأرض، وفتحت فاهها في الوسط، وبرزت من هذا الشق عدة أشكال لها صوت مخيف.. استرعى واحد من هذه الخيالات انتباهه، وبشكل بطئ تكاثفت صورته، بينما خفتت الأشكال الأخرى الملازمة له، ثم ظهر شكل شخص يرتدي الملابس الإفرنجية، مع طربوش مزاح إلى الخلف بإهمال.. أخذ هذا الشبح يحملق في مبروك. إنه السوري، بنفس شكله، عندما عبر أمام باب الخان منذ ساعة تقريبًا. لم يدر مبروك بشيء إلى أن أفاق؛ ليجد الغرفة وقد أضيئت مجددًا، والمرأتان منخرطتان في البكاء، بينما العراف منحنيًا عليه، يستخدم بعض المنعشات.

سأل العراف بلهجة ماكرة: «هو انت يا ابني من النوع اللي يخاف من رؤية الأموات؟».

ارتعش مبروك قائلًا: «أنا ما شفتش أموات، لكن شفت شبه واحد حي، هو عدوي!»..

عبس الساحر وفي عينيه حيرة حقيقية: «شيء غريب فعلًا! لازم ده حصل عشان انت حاطط شكله في عقلك.. مش أنا قلت لكم ما تفكروش في اسم اللي قلت عليه؟». ثم بدأ الغضب يحل في لهجته: «الله يخرب بيوتكم، يا ولاد الكلب. ما فيش شكل ظهر بشكل واضح، يا للا روحوا مع السلامة، يا خنازير، روحوا وإلا أخلي السكان السفليين يقطعوكم حتت، وانتو كمان يا ستات، مع السلامة!».

اعترف مبروك ومعه السيدتان أنهم يحترمون قواه المدهشة، وبراءتهم الكاملة من جعله يغضب، ولكن هذا لم يهدئ من طبع الرجل، وبكلمات غاضبة أخرى طردهم من منزله؛ لذا خرجوا وكلهم خجل إلى الحارة المشمسة، شاعرين كأنهم قد سرقوه، على الرغم من أنه هو الذي سرقهم.

***

الفصل الخامس عشر

التقط مبروك أنفاسًا عميقة من الهواء الخارجي، إلا أنه مر وقت طويل، قبلما يستطيع أن ينظف أنفه وحلقه من دخان العراف، أو أن ينزع من فكره تلك الأشباح، التي تراءت له في ذلك المنظر الشاحب؛ لذا ما أن رافق أمه وزوجته حتى بوابة جامع السيد، حتى عاد إلى الخان؛ حيث ترك رشيد نائمًا، لكي يجد أن هذا المكان أصبح مقرًّا لأمر شديد الغرابة.

كان هناك فلاح شاب، يداه مقيدتان، يجلس على الأرض بين جنديين، يصرخ في نداء استعطافي للمارة، الذين وقف بعض منهم بدافع الفضول، مكونين جمعًا صغيرًا.

سأل مبروك أحدهم: «هو إيه الموضوع؟».

هز ذاك كتفيه قائلًا: «الجدع المسكين ده، يظهر، إن عمدة بلده اختاره عشان يخدم في الجيش، لكنه هرب، ودلوقتي العمدة، اللي يعتبر عدو للولد، قدر يمسكه هنا في المولد وسلمه للعساكر دول، ودول حيخدوه للقاهرة. بيقولوا إن فيه مسألة بين العمدة والواد ده ، وكتير من الفلاحين حيتقبض عليهم قبل ما تنتهي أيام المولد. وحياة النبي، دي أكبر إهانة لسي السيد، وعلى المتعلمين كلهم إنهم يشنعوا ويرفضوا الإجرام ده».

صاح الشاب المقيد: «يا مسلمين! أنقذوني بحق ربنا، اختاروني بالظلم المرة الأولانية، عمدة بلدنا هو عدونا – راجل خسيس – أبويا ميت، في رقبتي أمي وخمسة من إخواتي بيعتمدوا عليَّ عشان يعيشوا؛ بالرغم من ده كله، الراجل المفتري الشرير ده اختارني عشان أدخل الجيش. قدمت عريضة للمديرية، لكن هو خبص وقبضوا عليَّ، وأنا داخل ضريح سيدي البدوي! وممكن دلوقتي يبعتوني لأرض الشياطين، إلى السودان، إلا إذا ، بمعونة الله، ألاقي بدل.
يا مؤمنين، ما فيش حد فيكم يقدر يخلص راجل مظلوم؟ يا شيخ العرب، هو العدل اختفى خالص من الدنيا؟ ما فيش ناس عندها نخوة وسطيكم؟».

غمغم المشاهدون بعبارات كلها عطف على الشاب.. بحق الله، هنا يوجد بني آدم مظلوم، أكثر من أي شخص آخر، ولكن لا أحد بدا عليه أنه مستعد أن يصبح بديلًا عنه.

- «أوه، بالتأكيد حنلاقي وسط مئات المتجمعين هنا، في مولد سيدي أحمد، واحد كريم وجدع!».

هنا صاح أول الواقفين من مجموعة المشاهدين: «ده علمه عند ربي! وفيه احتمال إنه يحصل، يمكن نصادف نشوف واحد جدع، يعمل خير في الراجل المظلوم ده».

صاح أحد الجنديين القابضين عليه، وهو ساخط من تعاطف الجمهور: «والله الجدع ده غلطان أكيد، وعيب إنه يبكي بالشكل ده. الواحد وهو يسمعه يشتكي يفكر إنه حيسيب أمه وما فيش حد يراعيها، زي ستنا هاجر، بينما كل القرى مليانة بالقرايب. أما عن صنف عساكر الجيش، فهما دلوقتي أحسن من الفلاحين، من يوم ما أصبح أحمد عرابي – ربنا يخليه – هو اللي بيتكلم بلساننا. الحكام دلوقتي بيسمعوا كلامنا ويرضوا بحكمنا. أفندينا بذاته بقى يعطف علينا، وبعد شهور قليلة إنشاء الله حيبتدي الجهاد، بعدها نقدر نكنس الأجانب ونرميهم في البحر، وكل عسكري حيبقى ملك في بلده مصر- عرابي بيه هو صديقنا، هو اللي حيحقق كل ده لمصلحتنا».

اندفع مبروك وقد شعر بالتعب من هذا الجدال، قاصدًا القهوة ليسأل صاحبها عن أخيه رشيد، فأشار صاحب الخان، مع ابتسامة مرحة على وجهه، إلى بقعة على الأرض بجوار أحد الجنود؛ حيث كان رشيد نائمًا معتمدًا برأسه على ذراعه كما تركه مبروك.. لقد نام خلال كل الفترة، التي كان فيها يزعق ذاك المطلوب للتجنيد.

لم يشأ مبروك أن يوقظ أخيه، وطلب طبقًا من الفول، ومسحه بالكامل، ثم انهمك في حوار مع الجنود وأسيرهم الحزين. هذا الأخير كان ما يزال يلتمس معونة المارين، طالبًا بديلًا عنه، وشارك مبروك الجنود في السخرية منه.

قال أحد الجنود: «والله يا ريت يلاقي بديل، وإحنا من جهتنا مش نعترض على حاجة، ويمكن أحسن حاجة نعملها هي إننا نبعت منادي يلف كل جهات المولد، يقول: «يا أهل البلد، كل من يرغب في عمل خير، خليه يحضر وياخد مكان الواد الفقير ده اللي اتظلم وإتاخد غدر عشان يخدم في الجهادية». لو كان عرض فلوس، لأصبح الموضوع له شكل تاني؛ لأنه لو قدم مبلغ محترم، كان حيلاقي ألف واحد يقبلوا طلبه».

التفت الفلاح بحدة للجندي قائلًا: «أنت عارف كويس، أنا ما عنديش فلوس. أنت شايف وعارف مصيبتي، ومع ذلك بتضحك. أنت شيطان! يا ريت ربنا ياخدك، ويرميك في النار!».

- «أقولَّك إيه، صلى على النبي، وبطل شتيمة.. غلط إنك تغضب بالشكل ده. حاول تلاقي الشاب الكريم اللي بتنادي عليه والسلام عليكم، إحنا لسه قدامنا وقت، لأنه فيه شبان تانيين هربانين وحينقبض عليهم، وباين إننا مش حنسافر قبل بكرة الصبحية».

حل بعد ذلك وقت الغروب، وفي الساعة الثالثة صباحًا، صدرت تنهيدة عميقة من صدر رشيد، وانفتحت عيناه متسائلًا: «مبروك، أنت هنا؟»، ثم رفع رأسه بعد ذلك معتمدًا على يده، وتثاءب بقوة مستعيدًا كل وعيه، ثم سأل: «الساعة كام دلوقتي؟». عندما علم الوقت، استطاع بالكاد أن يستكمل أكل طعامه، الذي قدمه إليه صاحب الخان طبقًا لتعليمات مبروك، فهمس في أذن أخيه: «أنت حتشوفها يا حبيبي، يا بختك! بكده يا ريت ربنا يرحمك من الانشغال اللي أنت مهموم بيه».

ما أن أكل قليلًا، حتى خرج مع أخيه يدًا بيد، ورشيد يتحدث عن حبه بتنهيدات متكررة، أما الجنود الذين استمعوا إلى قصته من صاحب الخان، فإنهما أخذا يهزلان معه، ومبروك وأخوه يتحركان للخارج.. مرَّا أولًا ناحية الجامع الرئيسي، الذي تجمع حوله نفر قليل من الناس، ثم سلكا عبر عدد من الأسواق المظلمة؛ حتى وصلا إلى منطقة غير معروفة لمبروك – منطقة تقع بجوار الترعة؛ حيث ما يزال هناك عدد من المحلات تعمل، وكان حوالي نصف عدد الناس السائرين في الشوارع يرتدون الملابس الإفرنجية، على رؤوسهم الطربوش. هنا توقف رشيد، لا ينطق؛ إذ جذب يد أخيه ودفعه إلى مدخل منير؛ حيث كان يقف رجل عنيف الحديث والطباع، يتحدث بلثغة ولهجة بيروتية، طلب منهما ثمن الدخول، وعندما قاما بدفع المطلوب، لم يعد ملتفتًا لهما. قبض رشيد على مبروك، كأنما هي الكماشة، ومرا إلى منظر يعتبر بالنسبة إليهما هو العجب العجاب.

***

الفصل السادس عشر

منطقة أرض خالية، تحيطها ثلاثة جدران غفل، مسقوفة بشكل مؤقت بمشمع واسع، يعتمد على أعمدة خشبية، وهناك ستائر من القماش السميك مثبتة؛ حتى تمنع المنظر من الشوارع، بينما ترك ممر لكي يدخل عبره كل من دفع ثمن الدخول.. هناك أيضًا عدد من اللمبات معلقة على قطع من الأخشاب، مسمرة في الأعمدة الخشبية التي تسند المظلة العليا، وسلسلة من الأنوار الورقية المعلقة، فوق المسرح في نهاية المكان. على خشبة المسرح، اتكأت دستة من الفتيات، هن سوريات ويهوديات من مظهرهن، وهناك زهور مثبتة في شعورهن، يرتدين ملابس تقلد الملابس الإفرنجية، بينما جلس الموسيقيون على الجانبين، في صف أمام الحائط الخلفي، كل يضع ساقًا فوق ساق، أما بقية المسرح، فهي مجهزة بمقاعد وموائد صغيرة، جلس عليها عدد من الناس يأكلون ويشربون القهوة ومشروبات أخرى، لا يقرها الشرع أو القانون.

قام رشيد - وهو قابض على يد أخيه بقوة - بجذبه حتى مقدمة المكان، واختار مائدة قريبة من المسرح. في هذا المكان، العمم البيضاء فوق رؤوسهم، وبقفاطينهم السوداء الطويلة، جلس الأخوان بمفردهما، وسط رجال يرتدون الملابس الأوروبية والطرابيش، أما الفلاحون الآخرون، الذين كانوا يشعرون بالحرج من ارتياد مثل هذه الأماكن، فإنهم اختاروا الجلوس على مقاعد قريبة من مكان الخروج.

بعيون متعطشة لامعة، قال رشيد: «مش بحق المكان رائع؟» كان ينظر إلى أخيه أو يوجه أنظاره للأرضية، خوفًا من أن تمتلئ عيناه بالمستقرين فوق المسرح، حيث إن قربه من «حلاوة» إنما يكوي قلبه بالنار.

كانت هناك فتاة تقف فوق خشبة المسرح تغني، لها وجه ذو تقاطيع يهودية، خالٍ من الرقة والنعومة، وكانت تغني أغنية حب بشكل سيئ ، وهذا ما رسخ في فكر مبروك، الذي طالما استمع للمغنين في العاصمة.. كانت الفتاة تؤدي أغنيتها بأسلوب الفرنجة النمطي البارد، دون رقة أو تنويع، إلا أن «رشيد» كان يهتز طربًا وبعواطف جياشة، تتناغم مع كل كلمة ونغمة، فالحب الذي قبض على روحه، أصبح هو المسيطر والمهيمن.

همس: «شفت وشها؟ آه يا حلوة، انتي روحي وحياتي!» أخذ يشير لأخيه بكتفه ناحية خشبة المسرح، ولم يشاهده مبروك ينظر إلى هذا الاتجاه إطلاقًا، ومع ذلك استمر رشيد في الوصف:

«هي قاعدة نمرة ثلاثة بعد البنت التخينة، اللي على يمينك، شوف إزاي هي قاعدة كده مرحرحة، في غاية القسوة عليَّ، أهي راجعة بكرسيها لورا، كاملة في جمالها..يا شيخ العرب! عارف أنت معنى الحب والّا مش عارف؟ ممكن تسلم روحها لواحد من غير برقع على وشها؟ يا رب، خليها تتعذب! حط في قلبها ولو شوية محبة لي أنا! يا رب، ساعدني أخلص على حبيبها إذا كان ليها حبيب!»..

كان صوت رشيد يرتفع تدريجيًّا، محدثًا تأثيرًا غير مقبول، لدى بقية العصريين من المشاهدين.. أما مبروك، الذي تخيل أنه من الواجب على من يدخل إلى مثل هذا المكان أن يكون عاقلًا ورزينًا، كما أنه من الطبيعي أن يبدو على وجهه الحزن، إذا اشترك في تشييع جنازة؛ لذا حاول بكل جهد مستميت أن يجعله يصمت، مشيرًا إلى أن الفتاة ليست سوى مومس، ولا تستحق كل هذا الاهتمام والطرب، وأن المكان هو مرفق عمومي وله سمعة سيئة.. إلا أن «رشيد» أبى أن يهدأ؛ لأن أعماق روحه الخفية امتلأت بافتتان مسموم مسيطر.. استدعى هذا المنظر إلى خيال مبروك الأسلوب الشعري للحضارة والتمدن، واستدعى إلى ذاكرته ما قرأه عن شارلاس وكاميل.

اقترب منهما رجلًا يسأل عما يطلبان شربه، فطلبا القهوة.. ما أن احتسى رشيد فنجاله، حتى طلب آخر، غير ملتفت إلى قيام مبروك بثنيه عن فعل ذلك. أصبح رشيد أكثر استثارة، وهو يحملق فيما يجري فوق خشبة المسرح، وتابع مبروك نظرات أخيه، واستطاع للمرة الأولى أن يتعرف على «حلاوة». إنها فتاة في مقتبل الشباب، تبدو رزينة، وهي ترجع بمقعدها إلى الخلف بينما تلعب في أساورها. عندما حان موعد تقديم دورها، نهضت ببطء، ثم منحت زميلاتها هزة كتف وابتسامة تند عن الكسوف والإحجام.. كانت حركاتها اللطيفة سببًا في زيادة مظاهر خجلها، إذ تقدمت إلى مقدمة المسرح، وظلت هكذا واقفة ساكنة للحظات، تبدو مترددة، بعيون محرجة، كما لو كانت تشعر بالخجل؛ بسبب كل تلك العيون المسلطة عليها. رحب بعض من السادة العصريين بها بصوت عالٍ ناطقين باسمها، يلقون بنكات بطريقة مرحة غير مؤدبة. وهنا لمعت عينا رشيد، وبدت فيهما نظرات القتل والتدمير، لكنهما استكانتا بعد قليل، وعاد ينهمر داخلهما فيض من الوجد والهيام.

بدأ عزف موسيقى راقصة، صاحبها غناء بلازمة كردية، أداها بقية العارضين، ثم بدأت هي في الرقص، كانت كأنما تسير فوق أرجاء المسرح، تتقدم وتتأخر، مثل طفل صغير خائف، يتعلم المشي للمرة الأولى، يداها ممدودتين، على شفتيها ابتسامة إغراء. كانت تلك ليست سوى تقليد

لرقصة قديمة، لكن مبروك، بالكاد، كان مسلوبًا ومعجبًا برقصها بصورة أقل من رشيد.. أصبح ترددها ومظاهر خيابتها غاية في الجمال في نظرهما؛ فمثل هذا الفعل، كما خطر على بال مبروك، ما كانت لتفعله كاميل، التي لا تضاهى، لو كانت قد أرغمت على الرقص أمام جمهور.

هذه المشاعر التي سيطرت على رشيد، وجدت لها منفذًا بالدعاء لله، ويدعوها بأنها روحه ونفسه وعيناه، يترجاها أن تنزل إليه؛ لكي تنقذ حياته، بطريقة جعلت أكثر الناس تحفظًا يضحك ويبتسم، كما كانت انفجارات الضحك التي راجت حوله، مدعاة لأن يشعر مبروك بالإذلال والمهانة.

طلب المحب فنجان قهوة ثالثًا، مع أن «مبروك» كان قد ذكره بالمثل الذي يقول «الثالثة للسيف!»، وهنا صاح رشيد، وهو منتشٍ: «مرحبا بالسيف، يا الله، نفسي ألاقي سيف دلوقتي وحالًا!».

كل ما أتيح لمبروك أن يفعله، هو أن يدعو في سره الشيخ الشاذلي، نصير محتسي القهوة، وأن يوجه كل اعتماده على الله القادر، على إنقاذ أخيه من هذه الورطة.

ما أن انتهت الفتاة من عرضها، حتى نزلت إلى الصالة، وأخذت تدور حول الموائد وبيدها طبق تجمع فيه المال.. وضع رشيد عملة فضية في الطبق، وحاول أن يستبقيها بجانبه ولو دقيقة واحدة، ولكنها استطاعت أن تنزلق من يديه بشكل عفوي كما تفعل السحلية، وبضحكة موجهة إليه، استمرت في طريقها، تاركة خلفها رائحة عطرية، أخذ رشيد ينهل منها ويعب فيها، ثم لمحها تجلس إلى مائدة مع بعض الرجال، بدا من مظهرهم أنهم من الكفار.. وبوجه غاضب، حاول رشيد أن يجعل أخاه ينظر، ولكن «مبروك» أبى أن يدير رأسه، خوفًا من أن يقابل بالحملقات التي سوف توجه له بالتأكيد، ثم استطاع بعد ذلك أن يمنع أخاه من طلب فنجان القهوة الرابع، الذي وضح أنه مقدم على طلبه. وأخيرًا، لكي يهدأ خاطر رشيد، نجح مبروك في إغراء أخيه بمغادرة المسرح بمشاهده المؤذية، إلا أن «رشيد» صمم أن يمر بجوار حلاوة؛ حيث تجلس لكي يقول لها تصبحي على خير، وأن يوجه نظرة غاضبة إلى المجاورين لها. ما أن فعل ذلك، حتى ضحكت «حلاوة» احتقارًا، ثم وهما في طريق الخروج، أبدى أحد المرافقين لها ملاحظة، سمع منها رشيد كلمتي «الفلاحين المعفنين»، وهنا بذل مبروك جهدًا رهيبًا؛ لكي يثني رشيد عن العودة لكي يشرب من دم هذا الرجل. والآن، هاهو ذا رشيد، المشهور في قريته بأنه صانع السلام، ويعتبر ألطف الناس فيها وأكثرهم رأفة، لقد أصبح الآن ذلك الأسد الهصور الغضوب.

***

الفصل السابع عشر

بدا الطريق الخارجي كأنه ما زال مزدحمًا في وقت ما بعد منتصف الليل.. وجه مبروك أنظاره إلى نجوم السماء وتثاءب بملء فيه. الآن، وقد استكانت أعصابه بسبب الضغوط، التي تمثلت في تصرفات أخيه على مدى الأربع ساعات الماضية، شعر فجأة أنه مكدود للغاية؛ لذا اقترح على رشيد - وهو قابض على يده - أن يعثرا على أي زاوية معدة للنوم ليناما فيها. ولكن هذا المخبول ما زال مرهفًا سمعه لعزف الموسيقى والحديث الضاحك، ولذا رفض بشدة أن يبتعد عن مكان الرذيلة هذا، وظل يسير جيئة وذهابًا أمام مدخل الملهى، لا يستمع أبدًا لأي تأنيب أو زجر.

- «روح انت نام ما دمت تعبان، اللي خانق روحي يمنعني أسيب المكان ده. روح انت!»، كان هذا ما غمغم به رشيد وهو غاضب، إلا أن «مبروك» رفض أن يتركه؛ لذا سارا معًا هنا وهناك وكأنهما قضيا دهرًا يفعلان ذلك، وبدت الشوارع أمامهما الآن مهجورة. هذه الحركة الرتيبة، كان لها فعل المخدر في أعصاب مبروك، واستمر إحساسه بفقد الوعي والإدراك، فرقدا أخيرًا في مكان قريب، ولم تستيقظ حواس مبروك، إلا عندما سمع جعجعة أخيه الملتهبة.

لقد اختفى رشيد من جانبه؛ فسار مبروك متتبعًا الصوت، وعلى ضوء لمبة علقت على باب الملهى، شاهد عراكًا يحدث بين رجلين: عمامة وقفطان يناضلان ضد طربوش وبذلة إفرنجية. طار مبروك إلى هذا الموقع، فرأى فتاة منكمشة عند المدخل، أمسكت بذراعه وهو يمر، ترجوه بينما أسنانها تصطك من أن يتقدم لينقذ أخيها، وقد كانت هي بذاتها الفتاة «حلوة»، وقد خبأت مفاتنها في بالطو طويل وغطاء للرأس.

استطاع مبروك أن يخلص نفسه منها وأمسك بذراع رشيد، راجيًا منه أن يصلي على النبي، وأن يكف عن هذا الشجار ويهرب سريعًا، ولكنه رغمًا عنه اشترك في هذا العراك، وتلقى العديد من اللكمات، ومع ذلك استمر في محاولة الفصل بين المتعاركين. إلا أن عددًا من الخفراء حضر نحوهم وأحاطوا بهم، واستطاع اثنان منهما أن يشلا حركة رشيد، كما تمكن آخر من أن يقبض على يد كل من مبروك وغريم رشيد.. لقد بدا الأمر كأن الرجال عمومًا قد انبثقوا من جوف الأرض؛ حيث تجمع حولهم جمهور كبير. أما الفتاة «حلاوة»، فإنها كانت تجري نحو خفير وآخر، تقبض على ملابسهما راجية أن يخلوا سبيل أخيها..

«بحق ربنا، دي مش غلطة أخويا المسكين أبدًا، إحنا طلعنا بسلام راجعين بيتنا، فجأة حضر الاتنين دول، ونطوا عليه من غير سبب، إلا إذا كان السبب هو إننا نصارى، وربنا عارف مدى ظلم رجالة مصر، أنقذنا

يا رب من ظلمهم! ما تظنوش إن إكمننا نصارى ما في علينا حماية، أخويا ده وكيل واحد يوناني غني وعظيم، وطبعًا القنصل اليوناني حيرجع الحق لأصحابه. من فضلكم سيبوه! بالله عليكم خلوه يرجع بيته معايا. إزاي أنا أرجع البيت لوحدي في بلد غريبة زي دي؟! أحلف لكم بالإنجيل إنه ما غلطت في حد».

لم يستجب الخفراء لمطلبها، فعرضت عليهم مالًا، ولكنهم رفضوا.. لقد كان ذكرها غير الموفق لموضوع القنصل سببًا في أن يراعوا مسلكهم، جاعلين المسألة كلها تسير في خانة من يجب معاملتهم حسنًا. أكد لها كبيرهم أن أخاها هذا لن يعاني شيئًا، ولكنه بكل بساطة سوف يحتجز حتى الصباح، وحينذاك سوف يطلب منه أن يحكي قصته أمام القاضي.

غمغم رشيد، وهو سارح الفكر: «ده إذا كان صحيح هو أخوها؟».

انتظر الخفراء لفترة بسيطة، غير ملتفتين لشكوى الفتاة.. هي بالفعل كانت جميلة المنظر أمامهم، لكنها عندما ذكرت موضوع القنصل، جعلتهم متمسكين بممارسة قواعد القانون؛ لذا أصدر رئيسهم أمرًا بالتحرك. وبينما هؤلاء يسيرون وبينهم المقبوض عليها طائعين، لمح مبروك وجه غريم رشيد، المقبوض عليه، عندما التفت هذا إلى أخته، وهنا لم يستطع مبروك أن يكتم صرخة ندت منه.

سأله الحارس القابض على ذراعه: «إيه اللي جرالك؟».

إنه الوجه نفسه الذي طالما طارده منذ مساء الأمس، الوجه نفسه الذي ظهر له في وكر العراف، هو الرجل الذي كان قد هجم عليه في كفر زين وسرقه.. لقد شاء شيخ العرب أن هذا كله يحدث له، وكله مكتوب عند الله.

ثم إذ وهم يقتادون في شوارع ساكنة مهجورة، تحول ذلك التعرف في ذهن مبروك إلى نوع من الرعب؛ إذ تصور في خياله مدى الخطورة التي سوف يتعرض لها، عندما يواجه بهذا الزميل أمام القاضي صباحًا. أما عن رشيد، فإنه يعاني القليل من الخوف، طالما أنه ارتكب هذا الخطأ بسبب حبه لهذه الفتاة، وليس بهدف الحصول على أي مغنم آخر، وبالطبع، سيغفر له كل الناس خطأه، أما

مبروك، فربما يتعرض للشنق كما حدث لمحمد النوري. لذلك، ما أن تمكن فيه هذا الفكر، حتى منحه اليأس قوة وشجاعة ليست من شيمه.

لذا، وهم يمرون في مدخل حارة مظلمة جانبية، ومبروك يتحدث بود وألفة مع حارسه، انتزع ذراعه فجأة من قبضة الرجل، ووجه له لكمة، ثم جرى هاربًا بحياته. ومن الصيحات التي تبعته، أدرك مبروك أن الأسيرين الآخرين قد استفادا من تلك المفاجأة وتمكنا من الهروب. وهو يجري، لم تلتقط أذناه المرهفتان صوت أقدام تتابعه، وبدأت الصيحات تبتعد عنه.. استمر في العدو بكل ما أوتي من قوة إلى أن وصل إلى حافة الترعة. وهناك لاحظ أن الشاطئ هادئ تمامًا؛ لذا توقف ليلتقط أنفاسه وينظر فيما حوله، فشاهد على مسافة بسيطة منه، سفينة راسية على الشاطئ، وهي الأولى من صف من المراكب المتراصة حتى الكوبري البعيد، وكلها مجهزة بالأشرعة المطوية، التي تظهر بلون باهت تحت ضياء النجوم.

لم يصدر من هذا المركب أي صوت أو ضوء، بدت كأنها غير مأهولة، وفكر مبروك في أنها يمكن أن تصبح مكانًا مناسبًا للاختباء؛ لذا اقترب منها حذرًا وخطا إليها. لكن في لحظة، فوجئ بشخص ينتصب أمامه شكلًا قاتمًا، وهو شخص يستعيذ بالله متسائلًا: «مين أنت؟». ارتعدت فرائض مبروك، أصابه هلع بالغ؛ لذا عاد في الحال وقفز إلى الشاطئ، وجرى مرة أخرى حفاظًا على حياته إلى أن غاب في مجاهل حارات تلك البلدة، بينما الكلاب تنبح في أعقابه. وفجأة، قريبًا منه، شاهد الجدران العالية لمسجد السيد البدوي.. كان يعلم أن أمه وزوجته نائمتان في الداخل؛ لذا فكر أنه من المناسب أن يوقظهما لاستشارتهما، ولكنه لم يجرؤ على فعل ذلك، موقنًا أن السيد البدوي قد اتخذ لنفسه موقفًا معاديًا له، لقد صرخ مستجيرًا بالله أن يدله عما يمكن أن يفعله لاحقًا، وفجأة تذكر ذلك المسكين المستدعى للتجنيد المستقر في الخان، ذاك الذي كان يستجير بالناس، طالبًا من يحل بدلا عنه.. يا ليت ألا يكون الوقت قد فات!

كان ثمة ضوء ما يزال يلمع في الخان، حيث كان هناك فتيلان يشتعلان، موضوعان في طبق به بعض الزيت فوق مائدة صغيرة، تنير المكان للجنديين المنهمكين في لعب الضُّمنة (الدومينو)، بينما السجين نائم على الأرض عند أقدامهما.

ما أن شاهدا مبروك مندفعًا نحوهما، حتى صاح أحدهما: «بسم الله الرحمن الرحيم، هو أنت حارس زينا والا إيه؟».

- «بصراحة صراخ أخينا ده هو اللي خلاني أرجع لكم الساعة دي.. من فضلكم خلوني بديل عنه!» هكذا لهث ذلك الشاب المطارد.

أجابه أكبرهما: «يا حبيبي، نتمنى ليك حظ كويس. فك الحبال من يد أخينا ده اللي خَوَّتْنا، ويا ريت يحصل كده من غير ما تصحيه، أخيرًا هو استريح، الحمد لله!»

رفع الرجل اللمبة وتفرس في وجه مبروك قائلًا: «أنت قتلت حد والّا إيه؟ لا، ما تزعلش قوي كده، مين أنا عشان ألومك؟ ما حدش ييجي معانا إلا إذا كان هربان من العدالة أو حد بيطارده، والبهدلة اللي أنت فيها تدل على كده. أرقد على الأرض هنا، وحط الغطا ده عليك، في ظرف ساعة أو ساعتين، نركب القطر مسافرين مصر».

***

الفصل الثامن عشر

حوالي الساعة الخامسة صباحًا، والشمس تشرق بكل قوتها، سار مبروك في شوارع القاهرة كفرد، ضمن مجموعة من المجندين الجدد تحت الحراسة.. كان موقفه حقيرًا ومتناقضًا تمامًا عن كونه أساسًا طالبًا في مدرسة الطب؛ لذا نجده الآن بدلًا من أن يتقدم للامتحان كبقية زملائه في قصر النيل، يسير مع خمسة من زملائه البائسين متجهين إلى معسكر عابدين. إنه لم يشاهد أحدًا من معارفه منذ أن غادر طنطا، وسوف تبحث عنه زوجته ووالداه بلا جدوى، وسوف يتصاعد حزنهم إذا ظنوا أنه قد مات، أيضًا لن تقل أحزانهم إذا علموا مصيره الحقيقي؛ لأن الخدمة العسكرية في نظرهم ليست سوى موت بالحياة؟ فأحيانًا، بعد مرور عديد من السنوات، يعود الرجال إلى منازلهم، ولكنهم مع ذلك يظلون جنودًا؛ بحيث يمكن للحكومة أن تستدعيهم في أي وقت مجددًا، أما هذا الإعفاء المؤقت، فليس سوى عذر؛ لكي لا تدفع لهم الحكومة أي مرتبات.

أخذ مبروك في ملاحظة الرجال الذين يسيرون بجانبه، في ملابسهم الضيقة، يخطرون كأنهم ليسوا من جنس البشر، وبسيقان متيبسة يحاولون الحفاظ على الخطو، يشفطون بطونهم ويبدون كأنهم يمسكون عن التنفس، ووجوههم لامعة ولعلهم فخورون بما أنجزوه. لكن حتى بعد مرور الشهور والأعوام، لا يصدق مبروك أنه سوف يشعر مجددًا بالسعادة أو الراحة، كما بدا على وجوه هؤلاء الغلابة، الذين يشبهون الجياد المطهمة من قطيع ملجم.

ما أن تركوا خلفهم الشوارع الرحبة للحي الراقي، حتى سلكوا في متاهة من أنحاء طابعها الإهمال؛ حيث نامت بجوار الجدران قطعان من الكلاب، وتنبعث من مداخل البيوت كل أنواع الروائح المنزلية. بعض من المجندين بدأوا في البكاء مجددًا ذلك، عندما عبروا ميدانًا واسعًا، محاطًا بأبنية كئيبة لها طابع إفرنجي. هنا تواجدت فرقة جيش موسيقية تعزف، وجنود يتحركون بخطوات منتظمة، تتكون كل جماعة منهم من خمسين، أو مائة فرد في لباسهم العسكري، يشبهون شرائح وفصائل من جمع عام. على جانب، كانت تقع المعسكرات، في واجهتها عدد لا يحصى من النوافذ، لعلها تعبر عن مدى إعجابها وتقديرها لقصر الخديوي، الذي يقع في مواجهتها عبر الميدان، كما يلاحظ أن ساحة هذا المعسكر مفصول ومقطوع من الميدان بأعمدة حديدية طويلة مغروسة في جدار خفيض.

ما أن دخل المجندون الجدد خلف الأسوار، حتى أصبحوا للتو مصدرًا لضحك وسخرية بعض من الجنود المتسكعين، الذين لسبب أو آخر، لم يشتركوا في العرض والتدريب العسكري.. إنهم ليسوا سوى مجموعة من الأفراد، الذين تجدهم دائمًا معرضين للنقد والتأديب، فاشلين دومًا في تنفيذ أي مشروع للهروب، يعتمدون أساسًا على شطارتهم في تجنب المصير المعتاد، ولكنهم فاشلون على كل حال.. أحد هؤلاء المرحين، أمسك بذراع مبروك، داعيا إياه: «يا خال»، ثم أداره لكي ينظر وجهه.

صاح ذلك الأمباشي، القادم من طنطا: «يا اخواننّا، حاسبوا من الراجل ده، أخينا ده مختلف عن غيره، ده بيبلع الرجالة وغاوي شرب دم، واتجند في الجيش بإرادته، من غير ما حد يغصبه».

هنا شعر كل من كان مستعدًّا أن يهزأ به بالرعب، أخذ الأمباشي يهمس في أذنه بود، ثم استدار هذا، وأخذ يهمس في آذان المتسكعين الآخرين، الذين بدأوا على الفور في إنشاء نوع من الصداقة مع مبروك. سألوه عن اسمه وأصله وفصله، بل وعزم عليه أحدهم بسيجارة.

جميعهم انكمش في نفسه عندما حضر أحد الضباط الكبار، ولكن بعد ذلك أحاطوا بمبروك داخليًّا، بعد حدوث شكليات استقبال المجندين الجدد، وأخذوا يشيرون نحوه ملفتين نظر بقية الجنود، الذين حضروا بعد انتهاء التدريبات.

صاح جندي قائلًا لآخر: بينما الباقون يرفعون هاماتهم؛ لكي يطلوا على هذه الظاهرة الغريبة: «والله، الجدع ده كاره حياته عشان يدخل الجيش برجليه!». ولكن مع همسات متبادلة، كلهم حمدوا الله على رحمته، وأخذوا يحملقون في مبروك باهتمام.. أدرك مبروك أنهم يعتبرونه ولدًا شقيًّا وجريئًا؛ فقد أخبرهم هذا الأمباشي القادم معه من طنطا أن «مبروك» هذا قد قتل رجلًا. لذلك عندما أدرك مبروك أن عنصر الشجاعة هي من المظاهر المطلوب التمسك بها، قبل بكل ترحاب أن تلصق به كل هذه التهم، وعندما طلب منه أن يحكي بعضًا من مغامراته، أخذ ينسج بكل حرية حكايات كثيرة استقاها من ذكرياته مع محمد النوري، وتظاهر أمامهم أنه لم يقتل فردًا واحدًا، لكنه سرق وضرب أكثر مما يستطيع عده أو حصره.

أقسم السامعون بالله أنه ولد شجاع، وحرام أن تضيع مجهوداته في الجيش، حيث يسود النظام والطاعة بديلًا عن السجايا الخاصة.

تنهد أحدهم قائلًا: «هنا، في المدينة الوضع مقبول ومبلوع ، ولكن لا سمح الله! إيه العمل لو رحّلونا إلى السودان الملعون؟».

عند سماعهم هذا الافتراض البغيض، استعاذوا كلهم بالله، وفجأة ظهر عليهم جميعًا، كأنهم قد أصيبوا بوجع الأسنان.

أشار آخر قائلًا: «مع ذلك، أنت وصلت هنا في وقت كويس، لأنه من يوم ما المستشارين الأجانب مسكوا مالية البلد، بقينا نقبض مرتباتنا بانتظام، وبعد فترة بسيطة إنشاء الله، حيقدر أحمد عرابي، ربنا يحميه، إنه يقنع أفندينا بطرد الضباط الأتراك والأرناؤط والشراكسة، اللي تَعَبوا حياتنا، كمان هو حيقدر يرمي بكل الأجانب في البحر، ويخلي كل عسكري يظن أنه ملك في بر مصر».

صاح الباقون: «إن شاء الله، أيوه إن شاء الله، والضباط من أهل بلدنا حيمنعوا موضوع ضربنا على الوشوش بالعصاية، وكمان الجلد يتمنع. بكده نكون ملوك بحق وحقيق».

هذه الصداقة التي نشأت بين القدامي في المعسكر، جعلت أيام مبروك الأولى في المعسكر مقبولة ومحتملة.. وبقدوم وجوه جديدة، تعرض هو للشتم والسب والمعاملة القاسية من شاويش التدريب، لكن وهو عائد دائمًا متوجعًا من الضرب، مرعوبًا وغاضبًا من سيل الإهانات، استطاع أن يهرب من النكات والهزل السمج، المحفوظ من زملائه الآخرين.

بعد أسبوع أو اثنين، استطاع أن يتقن كل فنون التدريبات، وشعر بالفخر من إنجازاته هذه، ولم يعد مكتئبًا كثيرًا. كان كل زملائه، بشكل عام، جيدين، رجال دمهم خفيف، مهملين وغير يائسين، طالما يتوافر لهم الغذاء وسجائر يشربونها، رجال يستطيعون أن يشدوا بأحلى الأغاني ويحكوا أطرف القصص؛ وهناك ساعات هنيئة، انقضت في الحكي والمناقشات المتبادلة. في الحقيقة، كان يمكن أن تكون الحياة داخل المعسكرات مقبولة ومحتملة، إذا قورنت بحظوظ الناس على وجه العموم، مادام أن القادة سوف يصبحون جميعًا من أهل البلد.. كان هؤلاء الضباط المصريون يظهرون كالمعتاد كثيرًا من مظاهر العنجهية، وتحت أيديهم سلطة غير محدودة على من هم أقل رتبة، كانوا أحيانًا يستخدمون العصا، لكن بتعقل، ولا يستنكفون من أن يعملوا على مراضاة جنودهم بكلمات طيبة على جانب..

لكن الضباط الأتراك، الأكثر تعسفًا من الأجناس الشركسية والألبانية، والذين كانوا دومًا محلًا للكراهية والبغض، دائمًا ما كانوا ينظرون للمصريين، ويصفونهم باعتبارهم كلابًا أو خنازير، ولا يخفون أبدًا مدى احتقارهم لأبناء النيل، سواء كانوا ضباطًا أو عساكر. ومن الأمثلة التي طالما يرددونها فيما بينهم «الفلاح ما عنده خِشا»، وبالنسبة إليهم، فإن كل أهالي مصر - بما فيهم أهل المدن - هم فلاحون، وقد عبر الناطق الرسمي باسم الضباط الوطنيين عن استهجانه ورفضه لتلك العجرفة الباذخة والقسوة المبالغ فيها، المعهودة في تصرفات هؤلاء المتعسفين. لذلك كله، اكتسب أحمد عرابي، المدعو بالجندي الفلاح، صيتًا حسنًا عند كل جنود الجيش. هذا، وقد لاحظ مبروك أن اسم هذا القائد يتردد كثيرًا على ألسنة الجنود المظلومين المعتدي عليهم، كما هو الحال معهم، عندما يذكرون سميه السيد أحمد البدوي.

من ضمن الضباط الذين احتك بهم مبروك، كان هو المدعو أمين بك، الشركسي، المختال، السكير والقاسي، الذي لا يعرف معنى للخوف.

هذا الرجل، في ليلة، بينما هو سكران، أخذ في مطاردة الجنود، وبيده سيف مشرع، وهو في قمة السعادة عندما رآهم يهربون أمامه، بينما ينادي بصوت عالٍ بأنه سوف يخرس أفواه كل هؤلاء المصريين الأنذال، هؤلاء الملاعين من نسل فرعون.. كانت هذه هي فكرة هذا المجنون في التسلية وتزجية الوقت؛ لذلك، كثرت خطط الجنود للتخلص منه، وهذا ما كانوا يظنون أنه في نطاق إمكانة مبروك، ويجب أن يترك له شرف تحقيق هذه الأمنية، مادام أنه ذلك القاتل المحترف، لأنه، من المعلوم، أنه ارتكب عديدًا من جرائم القتل والاغتيال؛ لذا كثر اللغط من أنه الأحق بهذه العملية.

اشتكى بعض الرجال قائلين: «ليه هو يقول عنا إننا ولاد حرام من ذرية فرعون؟ إحنا مسلمين وما فيش بيننا وبين فرعون أي صلة.. فرعون ده كان ساحر ومن أرذل الكفار. ليه بيتكلم عن أولاد مصر، باعتبارهم جنس واحد وشعب واحد؟ هو الإنسان يكون إسلامه قليل إذا انكتب عليه أنه يتولد على ضفة النيل؟ هو مش كل المسلمين إخوة؟ هو إحنا أقباط عشان يعاملنا بالشكل ده. والله إذا عرف أفندينا الطريقة اللي بيعاملنا بيها، فإن عزته حيغضب خالص ويحط الطين في بقه. أما أنت يا أحمد عرابي، أنت الحامي بعد الله على العساكر الغلابي، خلِّي دائمًا موضوعنا ده في بالك».

في الفرصة الأولى التي أتيحت لمبروك للسير بمفرده في أرجاء العاصمة، قام بشراء قلم بسط وحبر وورق، منتويًا أن يكتب خطابًا لوالده. ولما عاد إلى المعسكر، انتحى جالسًا في ظل جدار من

جدران الساحة، وأبرز سكينًا، وانهمك في تشذيب سن القلم الخشبي، وهنا شاهده أحد زملائه، فأصدر نداءً مستدعيًا بعضًا من زملائه، الذين تجمعوا كلهم حول مبروك:

- «أنت بتعرف تكتب يا مبروك؟ تكتب عربي فصيح؟ أنت فعلًا راجل مبارك من بيت طيب، زي ما كلنا قلنا عليك».

ازداد تزاحمهم حوله، وقال بعضهم: «ما شاء الله، ده عارف شغله تمام، بيكتب أحسن من أي واحد متعلم، شيء يستحق الواحد يتفرج عليه. وحياة النبي يا مبروك، إزاي واحد متعلم زيك يبقى عسكري عادة زينا.. لو كنت مكانك، لبعثت لعرابي بك، اللي بيحبنا إحنا العساكر، وطلبت منه يحطك في مركز يتناسب مع علمك، طبعًا ما فيش داعي يعرف إنك قَتَّال قتلة وحرامي، وده مفروض تعمله في أسرع وقت ممكن».

صاح الباقون: «فعلا، ده المفروض إنك تعمله».

في كل هذا الوقت، لم تصدر من مبروك سوى ابتسامة بسيطة بسبب نصائحهم، التي انهالت عليه، معتبرًا أن هذا هو حلم الفقراء، الذين يعطون لعنصر التعليم كل هذه القدرات الإعجازية. لكن في الغد، عندما سمع أن هناك مبعوثًا سوف يحضر ليختار عددًا من الوحدات العسكرية لتخدم في السودان، في الحال غيَّر من فكره.. إنه ليس مستعدًّا أن يرحل إلى تلك الجهات الملعونة؛ حيث لقي الآلاف من الجنود المساكين حتفهم، وهلكوا بسبب الطاعون والآفات المختلفة، والحيوانات المفترسة، وكذلك رماح شياطين لهم وجوه مخيفة. هنا بدا له أن هناك فرصة متاحة للهروب؛ حيث إنه إنسان متعلم، وإذا قدم التماسًا ليصبح كاتبًا في الجيش، فهذا سوف ينقذه. لذلك، وبتشجيع من زملائه، جلس في ركن هادئ، وسطر صفحة بأكملها، دبجها بمديح في أحمد عرابي بك، ذاكرًا في وسطها، بكل تواضع اسمه، ورجاء من أن تتاح له الفرصة؛ لكي يخدم سعادته في وظيفة كاتب. أيضًا، كتب مبروك التماسين آخرين، أرفقهما بالخطاب نفسه، لكنهما أقل طولًا: الأول مكتوب باللغة الفرنسية، والآخر باللغة الإنجليزية، كنماذج توضح مدى مهارته، ثم قام بعد ذلك أحد زملائه - كان يتفاخر بأنه صديق لأحد الخدم في منزل أحمد عرابي - باستلام الرسالة؛ لكي تصل إلى مكانها الصحيح.

لكن مرت الأيام، والالتماس لم يحدث صداه المطلوب؛ لذا استفسر مبروك - وهو هلوع - عن أسماء عظماء آخرين، وكتب لهم بما يمكن أن يثني على حجر؛ بحيث يصبح من السهولة أن يلين،

ولكن هذه الخطابات أيضًا تلقت مصير خطابه الأول نفسه، بلا صدى أو مفعول، وبدأ اليأس يتسرب إليه؛ لذا أخذ يرسم في خياله وسائل أخرى جديرة بالتجربة.

في صباح يوم، عندما اقترب من سور ساحة التدريب لكي يساوم أحد الباعة، شاهد منصة أحد باعة الحلوى قريبة من السور، وفي شخص البائع، استطاع أن يتحقق من أنه ليس سوى صديقه علاء الدين.

هذا الأخير، أطلق صيحة فرح وابتهاج، وقفز على جدار السور، وتبادل القبل مع صديقه عبر أسياخ الحديد، صائحا: «عفوك يا رب! يا شيخ العرب! مين ده اللي أنا ماسكه بايدي؟ نور عيني لابس عسكري؟ لابس الميري وجوه القضبان زي الحيوان! يا دي المصيبة! لكن يا حبيبي، اتشجع! أبوك طلب مني أدور عليك وهو بيسلم عليك، هو ليه صاحب، ما أنت عارفه، سعيد بيه رمضان، نفس الراجل اللي قضي في بلدنا شويات، وفيه ناس بيقولوا إنه هو اللي خلص على محمد النوري. المهم، أبويا أداني جواب ليه وأنا نازل مصر، وجنابه استقبلني أحسن استقبال، وبعمري كله، ما شفت سراية أبدًا زي كده. الرجل باس الجواب الأول، وبعد ما فتحه وقراه قعد يبكي بسبب مصيبة غيابك. هو رغم أنه لا يعتبر دلوقتي ضمن شلة أفندينا، لكنه راجل غني خالص، وعنده أصحاب يا ما. في الحال وعد أنه حيكلم عرابي العظيم، اللي له صيت جامد في الحربية، وبكرة زي الساعة دي، تعالى هنا نفس المكان، وإن شاء الله حتكون معايا أخبار كويسة عشانك».

كان علاء الدين صادقًا في وعده؛ حيث تمكن في اليوم التالي من إبلاغ مبروك أن هناك وظيفة، قد خصصت له في خدمة رجل عظيم؛ وفي أمسية اليوم نفسها، تأكدت هذه المعلومات رسميًّا، عندما حضر إليه شاويش الفرقة، وأخبره بإعفائه من الخدمة العسكرية مؤقتًا؛ لذا بينما كان منهمكًا في تجميع متعلقاته ووضعها في بقجة، احتشد حوله زملاؤه، هذا ينافس ذاك في لفت انتباهه: «قول إن محمد خير ده راجل كويس، ويستحق رتبة أمباشي» ، «اتكلم كلمة كويسة في حق صاحبك حسن، وقول لهم إنه حرام ينفوه للسودان!». كان تجمعهم حوله كثيفًا لدرجة أنه وجد صعوبة بالغة في هبوطه السلم للخروج إلى الساحة، وكانت هذه الشعبية الهائلة مصدرًا لبعث فخاره وسعادته بلا حدود، لكن وهو هابط، سمع من يزعق: «ابعدوا عن سكتي، يا خنازير يا نسل فرعون!»، بينما هناك عصا في يد القائل تنهال فوق رؤوس من أمامه، فتشتت الجمع حول مبروك، وبذلك أصبح هو الوحيد في مواجهة الضابط الشركسي أمين بك.

- «أنت يا مصري، يا ابن الكلب. قدرت تقف في وشي وتبحلق في وشي»، ثم قبض على زور مبروك، وأخذ يهزه هزًّا، ثم دفعه جانبًا.

تمدد مبروك بطوله على الأرض، وهنا ظهر في محيا هذا الوحش الضاري بعض تأنيب الضمير، وتساءل ما إذا كان هذا الكلب قد تعرض لأذى، بعد ذلك انتزع حافظته الشخصية، ورمى بعملة فضية لتقع فوق جسد ضحيته.

قام مبروك وهو يطحن أسنانه غيظًا، واستعاد بقجته، وترك قطعة النقود في مكانها، وأسرع نحو البوابة ليقابل صديقه علاء الدين.. وهو يسير، أقسم أنه سوف يقطع لحم هذا الوحش نسائر، ويعطي كل قطعة من لحمه لأحد كلاب السكك، وبذلك يظهر هذا الجسم مشوهًا في اليوم الأخير، ثم بالكاد - وهو يستمع إلى أمنيات زملائه الذين تحلقوا عند السور - تأبط ذراع علاء الدين، وسارا معًا في شوارع المدينة.

قاده علاء الدين إلى غرفة، كان قد استأجرها في خان فقير، وهناك كان قد اشترى مسبقًا بعض اللوازم البسيطة لعمل احتفال متواضع، لقد كانت تلك فرصة لتقديم الشكر والحمد لله، الذي أنقذ صديقه من ذلك السجن الملعون، متمنيًا من القدير أن يعمل على تحرير صديقه نهائيًّا من تلك الخدمة الشاقة؛ لكن،
ويا للأسف، هذا من المستحيل تحقيقه، دون دفع مبلغ كبير للحكومة، وإذا استطاع الشيخ مصطفى أن يدفع هذا المبلغ، فهذا سوف يعلن عن مدى ثرائه، وبذلك يتعرض للخراب المستعجل.

لهذا، يمكن القول بأن «مبروك» ما زال جنديًّا، لكن – إن شاء الله - وبرعاية من سعيد بك رمضان - ما ضاقت حلقاتها، وربما تتحول لتصبح مصدرًا للراحة والفخار، علمًا بأن زوجته زينب، وكذلك أمه، بكيتا كثيرًا بسبب مصيره المجهول، ثم أهالتا التراب فوق رأسيهما، عندما علما أنه أصبح جنديًّا. أما رشيد، بسبب شجاره تلك الليلة في طنطا، فإنه تعرض لدفع غرامة بسيطة، وتم فك أسره، وبسرور بالغ، أدرك أنه قد شفي تمامًا من حبه المتيم لتلك الراقصة الرديئة، وجلس الصديقان، علاء الدين ومبروك، حتى وقت متأخر من الليل، يتذكران الأيام الخوالي، ويخططان لمستقبل الأيام.

***

الفصل التاسع عشر

اصطحب علاء الدين، صباح اليوم التالي مبكرًا، صديقه مبروك إلى منزل سعيد بك رمضان – إنه منزل رائع تحيط به حديقة غناء، ذات أسوار عالية، وموقعه في ميدان الإسماعيلية. لم يكن البيه قد استيقظ بعد، ولكن ما أن تم إعلان تواجدهما، حتى خاطبهما من غرفة داخلية، طالبًا منهما أن ينتظرا قليلًا حتى يغتسل ويصلي؛ لذا جلسا على قرافيصهما في قاعة لطيفة مزينة بأصص، تورق داخلها بعض الشجيرات، ويستقر في وسطها حوض أنيق ملئ بالمياه الرائقة الصافية. بعد مرور ساعة أو اثنتين، تشرفا بقدوم سيادته.

ما أن شاهد مبروك في بزته العسكرية، حتى صاح في رعب: «العفو والسماح يا رب، يا حامي الحمى! ألم يخبرك قائد المعسكرات بأني حصلت على إذن إنك تلبس هدوم الكتبة؟ حالًا، عليك تقلع الهدوم دي، روح اشتري ليك هدوم مدنية، ولما يحصل ده، ارجعلي، وسوف أذهب معك إلى مستخدمك الجديد، وأعرفك بيه».

على الرغم من أن هذا البيه كان قد أمر مبروك بكل عظمة أن يذهب ويشتري الملابس الجديدة، ولكنه لم يقدم له أي نقود، وهذا الجندي ليس في جيبه شيء. أما علاء الدين، وعلى الرغم من شغفه الزائد لتقديم يد المساعدة، إلا أنه
لا يستطيع أن يدبر حتى ثلث قيمة بدلة وعمة جديدة، فما بالك مثلًا بالسراويل ولوازم الوجاهة الأخرى. ومع ذلك، باستخدام مبروك للاسم البراق لسعيد بيه، استطاع أن يحصل على كل المطلوب بعدما دفع مقدمًا بسيطًا.

غير مبروك ملابسه في المحل، وهو يتلقى التهاني من الباعة وبعض المارة، الذين توقفوا ليشاهدوه، ثم طلب من علاء الدين أن يأخذ معه الملابس الميري إلى غرفتهما في الخان، وإنه سوف يعود بمفرده، بمنظره الخلاب ذاك إلى منزل راعيه.

كان البيه في انتظاره، وبمجرد وصوله، أسرع أحد خدام المنزل باستدعاء عربة، قام هو وبقية الخدم بدفع البيه لكي يرقى مقعدًا داخلها، ثم طلب بكل لطف من مبروك أن يجلس بجواره، وقبض على يده، متحدثًا معه بكل ألفة، بينما تسير بهما العربة تحت ضياء شمس ساطعة حتى قلب المدينة.

قال البيه مخاطبًا مبروك: «عفوك يا الله! لا تشكرني أبدًا يا حبيبي! يعلم الله أن قلبي فرحان، وأنا أخدم ابن أفضل أب، اللي أظهر لي أكبر اعتبار في أول أيام معاناتي، وقبل ما أتعلم إزاي اتحمل ألمي بكل وقار. الألم ده يا روحي لا يفارقني أبدًا، لسه لغاية دلوقتي باشتاق لعملي السابق العظيم، والاحتفالات الضخمة، وخناقات المتعلمين جوه سراي الخديوي؛ بخصوص أسبقية كل واحد على غيره، والشكل الصحيح للحصول على العزة والاحترام.. وحياة النبي، حتى المشاكل والمصاعب اللي واجهتها أيام زمان، لسه ذكراها حلوة في ذهني. الحمد لله، أنا حاليًا راجل غني ولي احترامي ووضعي كما ترى، لكن تيجي إيه الثروة والاعتبار قدام عادة ونظام معين، لازمني حياة بطولها. يا ما كتبت عرائض تظلم، وقدمت هدايا معتبرة لبعض الناس اللي ليهم نفوذ، وعملت خدمات عظيمة ومختلفة الأنواع – زي الإبلاغ عن الوحش المفترس الحرامي ده – اللي أنت، باندفاعك الشبابي – كنت عبيط عشان تشتغل معاه؛ لكن كل محاولاتي كانت بلا فايدة. سيدنا هو راجل عنيد، وده – يرحمنا الله – يحصل في زمن، هو في أشد الحاجة لإخلاص الرجال، بينما تلاحظ أن سلطته في النازل، وكل واحد عايز يترقى يحاول دلوقتي يتقرب إلى أعدائه، وللأسف، عدالته مش عايزة تقرَّب مني. ربنا يشهد أن الخطأ اللي صدر مني، هو تافه جدًّا ومش مقصود. دلوقتي أنا بأدور في ذهني عن طريقة، أتقرب بيها إليه وتخليه يبصلي من تاني».

خفض الرجل من صوته، وأخذ يهمس وهو يربت على يد مبروك: «أحمد عرابي واللي معاه دول كلهم أصحابي، لأنه لازم لواحد في مركزي إنه يدور على أصدقاء جدد، مهما اتغيرت الظروف، لكن بدا إنهم مش واثقين أوي فيَّ، عشان كده استبعدوني من مجلس مستشاريهم. دلوقتي أنت يا مبروك، ولد شاطر ومتعلم؛ وأكثر من كده، أنا بأحبك وباعتبرك في منزلة ابني، وفي المركز اللي أنا حأحطك فيه، حتكون أنت في موقع مركز تخطيطاتهم، عشان كده، ممكن تفرح قلبي بأنك تبلغني من وقت للتاني بتفصيلات سياساتهم، بدون ما تهدد وظيفتك اللي هي من شغلي. والمعلومات اللي حتمدني بيها حتحصل في كل مرة على مكافأة، وعشان أؤكد لك، اقبل مني المبلغ البسيط ده. والآن، ولا كلمة، إحنا قربنا من المكان.. ده سر بيني وبينك».

قام سيادته بعد ذلك بغلق يد المتواطئ معه، وداخلها جنيه ذهبي، وهو يربت على يده بكل حنوٍ.

كانت العربة التي كانا يستقلانها تسير في شوارع ضيقة، ووصلت الآن إلى نقطة لا تستطيع أن تتجاوزها، فقام مبروك بمساعدة شفيعه لكي ينزل، وأعطاه سندًا بذراعه؛ لكي يصعدا ممرًّا عاليًا من مبان قديمة حائلة. لا شيء يمكن أن يتفوق على وضاعة هذه الحارة الضيقة أو كمية القذارة

والمخلفات، التي تجمعت أمام أبواب المنازل التي تفتح عليها، ولم يكن مبروك متوقعًا ومستعدًّا أن يجد نفسه فجأة في محفل مكان راق واسع، به عدد كبير من المنازل الراقية. أمام منزل منهم، ظهر خادم عليه مظاهر الأهمية وتابعهما، وهما يصعدان درجات سلالم نظيفة، إلى أن وجدا أنفسهما داخل غرفة مؤثثة بأناقة إفرنجية.. تركهما الخادم، بعد ترديد كثير من تحيات الترحيب والمباركة، قائلا إنه سوف يتوجه على الفور لاستدعاء سيده. بعد أن جرب سعيد بك مقعدًا فآخر، اقتنع أن يجلس على أريكة بجوار النافذة، أما مبروك، وما زال يتحرق قلقًا، فإنه ظل واقفًا في مكانه.

بعد وقت قليل، فتح الباب ودخل رب المنزل، جرى الرجل سريعًا؛ حيث يوجد سعيد بيه لكي يمنعه من الوقوف؛ حيث إن هذه عملية مرهقة ومؤلمة لذاك الرجل؛ بسبب سمنته المفرطة، وأخذ في الترحيب به ثلاثًا، مع سيل من التحيات المنتقاة. ثم، بإشارة من البيه، لاحظ المضيف تواجد مبروك، ذاك الذي وقف ذليلًا، بقدمين ويدين مختفيتين وعينين خفيضتين، ولكنه كان يراقب مخدومه الجديد سرًّا. مماثلًا لسعيد بك رمضان، كان هذا الرجل يتحلى بطربوش أحمر طويل، ويرتدي بدلة سوداء بسترة التشريفة، ووجهه وبشرته توحيان كلاهما بأنه عثمانلي المنبت، وكان شعر ذقنه المشذب الدقيق بلون أحمر، وجلده شاحب، عيناه البنيتان غاطستان في محجريهما، تبرقان وتخفتان تحت حاجبين كثين منفوشين حمراوين، أما طربوشه، فكان مكبوسًا في رأسه؛ مما يعطيه إيحاءً بالصلابة والقوة، كما لو أنه تصدر منه تقطيبة دائمة.. اسمه الذي تم التعريف به، هو عمر أفندي فهمي.

كان سعيد بيه الذي عرَّفهما على بعض، متعجلًا في المغادرة، فصاحبَه عمر أفندي بكل إجلال واحترام، تاركين «مبروك» بمفرده، وهو محبط لأنه وجد أنه سوف يخدم رجلًا تركيًّا، من النوعية التي تمثل الغطرسة في أجلى صورها، وكان مبروك، من خبراته في القشلاق، عرف كيف يكره الأتراك، لكن لماذا يقدم أحمد عرابي، صديق الجنود، وبطل مصر، على السماح لهذا التركي ابن الأتراك أن يكون واحدًا من مستشاريه، هذا أمر محير بالفعل.

* * *

الفصل العشرون

عاد عمر أفندي سريعًا وطلب إحضار أقلام وحبر وورق؛ وعندما أحضر الخادم تلك اللوازم، طلب من مبروك أن يجلس إلى المائدة، ويكتب من إنشائه خطابًا إلى مسئول مهم في الحكومة، بينما جلس هو على راحته، فوق الأريكة، يصرح بعدد من مقترحاته، بكل تأنٍ وتكاسل بينما يدخن سيجارته. ما أن انتهى مبروك من الكتابة، حتى طلب منه عمر أفندي أن يقرأ ما كتبه، ثم في نهاية ذلك، أبدى ملاحظة «ممتاز»، بعدها تناول الخطاب ومزقه، وبهذا فهم الكاتب أنه في مجال الاختبار، لذا دق قلبه في دماغه وازداد تحيره وارتباكه.

وعندما طلب منه أن يكتب خطابًا باللغة الفرنسية، بينما سيادته يملي عليه الفحوى باللغة العربية، تردد قليلًا، وتوسل كثيرًا أن تعاد عليه كل جملة ينطق بها الرجل، ثم طلب منه مخدومه أن يقرأ هذا الخطاب كسابقه، وبعدها ابتسم الرجل بشكل ماكر، وهو يبدي ملاحظة «جيد جدًّا»، وبعدها مزق هذا الخطاب أيضًا ووضعه جانبًا. كان طلبه التالي أن يكتب مبروك خطابًا باللغة الإنجليزية، فتعامل معه مبروك بشكل أفضل من الخطاب السابق، ببساطة ليس طبقًا لما يسمع، ولكنه كان يكتب ما يعتبره مناسبًا مستخدمًا كلمات يعرفها. في هذا، أظهر عمر أفندي سرورًا بالغًا، ولم يمزق الخطاب، بل وضعه بجانبه على الأريكة.

بدأ مبروك يشعر بالتعب يسيطر على كل مفاصله، بسبب استمراره المطول في الجلوس بوضع لم يعتده، ودرجت روحه في بذل السباب والشتم على أبو هذا المقعد الإفرنجي. مع ذلك، استبقاه هذا المفتري حوالي ساعة جالسًا، حتى شعر أن الآلام قد غزت ظهره وركبه بشكل لا يطاق، ومنع نفسه بكل ما أوتي من عزم وقوة من أن يطلق صرخة ألم عاتية.

أخيرًا، صاح رئيسه: «كفاية، أنت كاتب مقبول، لكنك مش بارع تمام، تعالى الآن اجلس بجانبي».

أطاع مبروك الأمر، إلا أنه حاول أن يحتفظ لنفسه بمسافة احترام كافية.

تساءل سيادته وهو يقدم سيجارة: «تشرب دخان؟»، وفي الحال قام مبروك بطبع قبلة على اليد الممدودة، وحمد الله عاليًا، مثنيًا على هذا التواضع الجم، ثم قام بعد ذلك بإشعال سيجارته من سيجارة سيده المقدمة إليه، وبعدها شعر أنه أكثر راحة.

قال عمر أفندي بعد فترة صمت: «أنت شاب شاطر ومتعلم كويس، وكان المفروض أني أبحث عن كاتب متمرن وحاذق عنك، لو كنت عايز مجرد كاتب وبس. سعيد بك رمضان صرح لي بأسباب تطوعك في الجيش، وده اللي شد انتباهي. عشان كده كلفت حد يعمل استخبارات جوه المعسكر، وبكده عرفت أنك كنت حرامي وقتال قتلة، ده صحيح؟».

تملك الخوف قلب مبروك، وبدأ في الاحتجاج: «رحمتك يا الله! كل ده كدب وبهتان..».، لكن لمعة برقت في عينا التركي جعلته يخرس فورًا، إذ بادر بقوله:

- «ما تفتكر إني بألومك أو أرغب أن تعاقب. لا.. أبدًا، الراجل الشديد القوي يستحق أجرته في أيامنا الصعبة دي، والمجرمين يخدموا كويس اللي عارفين الأسرار، ولكن إذا أنت سببت لي أي أذية، فورًا أسلمك للعدلية، لكن طالما إن تصرفاتك كويسة معايا، أنا ما أعرف عنك حاجة. إذا ما خفت من أي شغل أطلبه منك، أو ما عملت حاجة غلط وأنت في خدمتي، كده تعيش في سلام وطمان».

حار مبروك في الإجابة والرد، فلأول وهلة، أدرك جسامة ما هو مقبل عليه، وكذلك الأعماق الرهيبة التي ساقتها عليه كذبته الغبية؛ فالأتراك - كما هو معلوم عنهم - لا يعرفون شيئًا اسمه تأنيب الضمير أو الإحساس بالذنب، وربما يطلب منه أن يقتل إنسانًا يهمهم قتله. خطر في باله أن يعترف بالحقيقة كلها، وهو بذلك يخاطر بإمكانة عودته مرة أخرى إلى القشلاق؛ إلا أن رجولته لا تتحمل وطأة وقوع هذا العار؛ لذا بعد مهلة تفكير استبعد عنه هذا الخاطر وتقبل ما وصم به، واثقًا أن الله وكذلك ذكاءه يمكن أن ينقذاه من ارتكاب أي جريمة.

استند عمر أفندي إلى مساند الأريكة، ثم وهو يبتسم، أخذ يراقب مظاهر الانزعاج التي ارتسمت على وجه مبروك، وفجأة مال بجذعه إلى الأمام قائلًا:

- «إدالك كام المعرَّص العجوز؟».

- «معناه إيه الكلام ده يا سيدي؟».

لم يشرح التركي على الفور، ولكنه قال: «دلوقتي اسمعني كويس، سعادة سعيد بك رمضان، ده صديقي زي ما هو صديقك، ولكن أقول لك، هو ما يهمه لا أنا ولا أنت، كل ما يهمه هو أنه يسترد مركزه السابق في البلاط اللي ضيعه بغباوته.. هو حاطط كل أمله في الخديوي، ولكن ينقصه الذكاء، ما يعرف إن الخديوي انتهى فعلًا، وأصبح دوره لا شيء».

صفق عمر أفندي يدًا بيد مشابهًا دق الصنوج، ومعربًا بذلك عن نهاية الأمر.

- «هناك مئات بجانبه عانوا الكثير، وهما بيطالبوا محمد توفيق والخواجات أن يكونوا معهم أمناء ومخلصين، والأمر ده إذا زاد عن حده يعتبر مجرد غباء من جهتهم. كلهم بعد كده حاولوا التقرب من أصدقاء الثورة والإصلاح، لكن سعيد بك هو الوحيد اللي عايز يرجع الأوضاع السابقة. ده راجل عجوز خرفان، ينقصه عنصر المبادرة والفهم. لازم عليك إنك ما لا تتشبه به وإلا يصيبك الحزن وخيبة الأمل. عشان، مثلًا، لو افترضنا، إن مجموعة البلاط هي اللي انتصرت، وإنك أنت ساهمت في انتصارهم؛ لأنك مديتهم بالمعلومات عن طريق اتصالك بسعيد رمضان، إيه تكون مكافأتك؟ ربما تحصل على وظيفة حارس ضمن الحرس، أو على وظيفة كاتب في وزارة الحربية، وفي كل من المركزين، دايمًا يكون مركزك مشكوك فيه، بسبب إنك أهملت مواهبك الطبيعية اللي وهبك بها الله مسبقًا. وحياة النبي، كل ما هم محتاجينه شوية حمير أو شوية بغال مش رجالة. ولكن إذا اشتغلت معانا، ربما ترتقي لمنصب كبير، بمجرد ما الإصلاح يشتغل».

قال مبروك: «لكن – سامحني يا سيدي – أنا لسه ما فهمت كويس، هي مش كل حاجة ماشية تمام في البلد بفضل بركة ورعاية ربنا؟».

أجاب التركي، وهو يحول إليه عينين ماكرتين، تصحبهما ابتسامة: «أي فلاح أو تاجر ربما يظن الحال هو كده، لكن دي مش هي نظرة راجل ليه أدوار وروح، ويمكن له أنه يحصل على ثروة ومجد، لكن أي أمل قدامه في ظل النظام الحالي، اللي فيه إذا أراد الشخص إنه يترقى أو يكسب، عليه إنه يحاكي غباء التور اللي يدور حوالين الساقية».

فتساءل مبروك: «لكن سعادتك، بأي عين يبص بيها جلالة سلطان تركيا لمّا تقوم ثورة؟».

ضحك عمر أفندي على هذا المقاطعة، قائلا:

- «تأكد يا روحي إن السلطان عارف شغله تمام، وأنا، العثمانلي اللّي جاي من إسطنبول، مش ممكن بالطبع أنسى مقام جلالته، وإذا دعيت الحركة بأنها وطنية شعبية، فده لجذب انتباه الفرنجة، الذين يبحثون في شئون الناس والأعراق. عرابي بيه ليه يا ما أصدقاء فرنسويين وإنجليز، يخبروه عن المطلوب عمله. دلوقتي قول لي، ماذا أعطاك الراجل ده اللي كان يدبر اللازم لتحقيق شهوات إسماعيل كرشوة؟».

هنا، أظهر مبروك قطعة الذهب، ثم أعلن أنه من الآن هو إنسان وطني من أول عمامته وطاقيته حتى أطراف قدميه، فأبدى عمر أفندي اندهاشه من صغر المبلغ المعطى له قائلا إنه ليس مناسبًا أبدًا لحجم الخدمات المطلوبة منه؛ لذا نفح مبروك ثلاثة أضعاف ما حصل عليه سابقًا، وأفهمه أن المطلوب منه هو أن يبالغ في قوة الحزب الوطني الثوري في تقاريره، التي سوف يقدمها لسعيد رمضان.

- «لا يمكن القول بأن المتعلمين وأغلبية الطبقة العليا معانا، ولكن مثل هذه الإشاعات الصادرة من مصادر موثوق منها، تفشل بالكاد في تحقيق النتائج المرجوة.. من البداية إحنا زرعنا الرعب في قلب الأمير ووزرائه، ووقفنا نشاطهم بواسطة تقارير توزع بطريقة كلها مكر، بكده نكسب وقت عشان نكون قوات الزحف، التي لم تكن موجودة سابقًا. الآن قول لي، بصفتك جاي من المعسكرات، كيف يتحدث الجنود عن صديقهم عرابي؟».

- «والله، هما يعتبرونه الشمس في مطلعها.. النهر الذي يفيض ويوزع علينا كل الخيرات».

- «ده كويس، أنا عايزك تستمر في الاختلاط دايمًا بالعساكر العاديين، وتبعت لي عن أسباب شكاويهم وتظلماتهم، وعلى عرابي بيه إنه يلبي أقل طلب يطلبوه. هل تعلم أنت عن شيء سيئ أو شرير يحصل هناك ومحتاج إصلاح؟».

ذكر مبروك وهو متهيب، ذلك الهزل الوحشي الصادر من الضباط الشراكسة (لم يذكر بالطبع الأتراك تقديرًا لمشاعر مخدومه)، وكيف أنهم يدعون الجنود قائلين: «أيها الفروخ الملعونين من ذرية الفراعنة»، ثم يعاملونهم بشكل أسوأ من معاملة الكلاب، وكمثال، ذكر شيئًا عن المعاملة السيئة، التي تلقاها هو نفسه على يد الشرير الشيطان أمين بك.

بدت على عمر أفندي علامات الاهتمام البالغ، فأخرج نوتة من جيبه، وكتب عدة ملاحظات، منها: «أنت بتقول أمين بك ده ضابط شركسي؟ وإن عزله من مركزه يخلي الجنود مبسوطين؟ إن شاء الله هو وزمايله يحققوا لينا أمنية في القريب العاجل، هما الأعداء الشخصيين لعرابي بيه، وده كله مغروس في قلب طبائعهم زي الأشجار التي لا تحس.. الآن يا مبروك، أنا اتحدثت معاك بكل حرية كصديق، وده يذكرني بضرورة أن تكون حذرًا ومحتاطًا. إذا حصل، وبلغت سعيد بك بأسراري أو لأي حد تاني، يلاقوا جثتك طافية على وش مية النيل صباح يوم مشمس»..

حاول مبروك أن يتعامل مع هذا التهديد باعتباره نوعًا من الهزل، ولكنه لم يستطع، بينما كانت عينا التركي مسلطتين عليه، وهي تتأجج بوحشية غول أو حيوان متوحش، وهنا أخذ مبروك يلوم وينكر كل شكوك سيده، مقسمًا أن روحه تستقر خاضعة تحت قدمي سيادته، وأن جنابه ليس أقل من أبيه أو أمه.

- «أرجو أنك بكره تكون هنا الساعة ثلاثة، ودلوقتي مع السلامة».

مرَّ وقت قبلما يتخلص مبروك من التأثير السيئ، الذي غلَّف تهديدات ذلك الرجل العظيم، وكذلك تلك النظرات المرعبة التي أكدت ذلك، وفقط لولا تكراره المستمر لبراءته ونفيه القاطع لصدور أقل نية في خيانة سيده أو فضح أسراره، لما استطاع التخلص من اعتقاد جازم بهلاكه الوشيك. مع ذلك، ظهر له أن وظيفته الجديدة تبدو سلمية، في الوقت الحالي على الأقل؛ فليست هناك دعوة عاجلة لإظهار شجاعته المفترضة، وهذا، على الأقل، يدعو لشكر وحمد الله. وفي الوقت الذي انضم فيه إلى صديقه علاء الدين في الخان، اكتست كل أفكاره بالمرح والبهجة مرة أخرى، وحكى كل مغامرته، وهو يشعر بالسمو والرفعة.

غمغم بائع الحلويات، والرعب يتملكه، عندما سمع كل شيء، قائلًا: «عفوك وسماحك يا الله! مين يفكر أنه يوجد في العالم زي الناس الأشرار القساة دول؟ كده يعني إنهم بيتآمروا على أفندينا، اللي الكل موافق عليه، لأنه راجل طيب ويحب تحقيق العدل، بصراحة، الحاجات دي المفروض تسجل في الكتب وتتحفظ في المكتبات، والحكيم يقدر يحكيه للجاهل، والأب يقصه على ابنه، بكده الذكرى تستمر لغاية نهاية العالم. إذا حد سمع الكلام ده في قريتنا، ما حد يصدقه. مع ذلك، كل ده في حكم وأمر الله، ومش شغلنا أبدًا. كل ما علينا نعمله هو إننا نحمد ربنا على رحمته أنه خلصك يا مبروك من الفضيحة والعبودية، وحطَّك في مكان يستطيع فيه الراجل إنه يطلع لفوق وفوق».

كان اليوم هو الجمعة، ولهذا ذهب الصديقان إلى الجامع ظهرًا، وسمعا بإمعان وعظة مؤثرة عن رغبة بعض الناس في تحقيق مآربهم بالغرور الذاتي، ثم قضيا بقية النهار في الفرجة على مناظر المدينة، وبعد تناولهما لوجبة العشاء في مطعم شعبي، جلسا في سطوح الخان، ينظران نحو المدينة الناعسة التي تمتد حتى جبل المقطم؛ حيث ظهرت قباب ومنارات القلعة كصورة، خلف سماء تنيرها النجوم.

***

الفصل الواحد والعشرون

أصبح علاء الدين معاونًا لمبروك في عمله الجديد كمخبر؛ لأن بائع الحلوى هذا دائمًا ما يزور كل الخانات في الحي، مصطحبًا معه صينية الحلوي، وخلال تقدمه البطئ في الأسواق، تتاح له الفرصة إلى أن يستمع لتعليقات كل الناس من مختلف المشارب؛ ولأن اهتمامات مبروك كانت نصب عينيه؛ لذا كانت أذناه تلتقط كل ما هو سياسي، يحتفظ به في دماغه؛ لكي يعيده فيما بعد. كان التجار مع كل المواطنين المسالمين معادين للحزب الثوري، يلعنون اسم أحمد عرابي، وكل من يناصره، متعجبين من قدرة الخديوي على تحمل كل هذه المعاناة، ولم يكن لومهم له قليلًا؛ إذ كانت كراهيتهم لذلك الجيش المتحفز هائلة، حيث افترضوا أن شجار الجيش مع الحكومة يبدو كآخر أشكال الوقاحة والتعدي. قام مبروك بإعلام سيده باتجاهات هؤلاء، لكن عمر أفندي هز كتفيه قائلا: «التجار، الفلاحين، الثيران – كلهم صنف واحد! وطالما يأكلواويناموا في سلام، إيه اللي يهمهم بعد كده؟ إنهم ثابتون في مكانهم لا يتأثرون، كأنهم خشب أشجار، أو تلال في الصحراء، إن تصرفاتهم
لا يجب الالتفات إليها مطلقًا».

على مدى الأيام الأولى، كان عمر أفندي حذرًا من خادمه الجديد؛ وأي مكان يذهب إليه مبروك، حتى عندما يهتم بشأن من شئونه الخاصة، ينتابه شعور بأنه مراقب. ولكن بعد فترة، عندما صدرت منه دلائل تؤكد مدى تحمسه وإخلاصه، ائتمنه سيده بتحفظ أقل، وفي كل يوم بعدها، بينما عمر أفندي متكئًا على أريكته، مرتديًا ملابس الصباح، ينهمك في مراجعة ما تم عمله، ويخطط للأعمال المطلوبة بقية النهار، أظهر هذا الرجل كراهية حقيقية لسعيد بك رمضان، قائلًا إنه داوم على إظهار العديد من السخافات خلال مدى طويل. هذا وقد كثرت الخطط التي اخترعها عمر أفندي؛ لكي يخدع بها هذا الرجل العجوز المسكين باستنتاجات كلها خاطئة، وفي هذا، كما في كل حالة، كان مبروك هو خادمه المطيع.

وبالسماح له أن يكون محلًا لثقة رئيسه، أصبح مبروك ينظر إلى نفسه باعتباره مساويًا، وهو يتبنى وجهات النظر الرئيسية للتركي، ونظر إلى كل الناس باعتبارهم مبعوثين بسطاء، خلقوا فقط لخدمة طموحاته؛ لذلك استرجع مبروك علاقاته بمعارفه من طلبة مدرسة الطب، ولاحظ أنهم جميعًا مناصرون بقوة للفكرة الثورية، تلك التي ثبتت في عقولهم باعتبارها المدخل الطبيعي لانتشار الحضارة والتقدم، وقد استخدمهم مبروك بالفعل لنشر تلك الإشاعات الكاذبة، التي كانت

تصدر من فم رئيسه بوفرة كافية، كما كان مبروك يفكر في تلك الأوقات أن يعود لارتداء الملابس الإفرنجية، التي تتماشى مع قاطرة التقدم، لكن ما أن ذكر هذه الرغبة على معلمه، حتى منعه عمر أفندي من سلوك هذا المسلك، قائلًا:

- «استخدام هذا الزي للتفاوض والتعامل مع الفرنجة يعتبر عملًا ناجحًا، ولكن مهاراتك ليست كافية لطرق هذا السبيل.. لقد استخدمتك لكي تتعامل مع المصريين؛ لذلك من الأفضل أن تلتزم بزيهم».

كان هذا توبيخًا بسيطًا، وسط عدد أكثر من ذلك، تلقاها هذا الشاب؛ لكي يلزم مركزه عندما يكفر أو يخرج عن إطاره. لكن، بينما يتلقى هذا اللوم بشكل شخصي، إلا أن هذا لم يمنعه من الظهور أمام العالم الخارجي، باعتباره الحارس الشخصي لهذا الرجل العظيم، وبهذه الصفة كان - بشكل عام - هو ورئيس الخدم يتلقيان الهدايا، ممن يسعون للحصول على خدمات من سيدهم. وفي الحقيقة، كانت تلك الهدايا تمثل جزءًا مهمًا من راتبه، هذا بالإضافة إلى ما كان يتسلمه من سعيد بك رمضان، كل هذا جعله يعيش في بحبوحة ورخاء.

في مجال تنفيذ عملياته المختلفة، استطاع مبروك أن يلتقط كل المعلومات العامة المعروفة المختصة بشخصية رئيسه التركي. ورغم أن هذا الرجل كان مكروهًا بوجه عام، إلا أنه كان شخصًا موثوقًا فيه، ليس فقط من قبل الأطباء المتعلمين والوجهاء الأغنياء، الذين - كقاعدة عامة - يخشون الحزب الإسلامي، ولكن أيضًا من جهة عرابي والطلبة والمدعوين بالوطنيين. يقال أيضًا أنه كان المبعوث السري القادم من قبل عرض القوة، وهو الباب العالي ذاته، فقد كانت لدى مبروك دلائل وفيرة، تؤكد أن هذا الرجل يجمع بين يديه كل التشابكات السياسية، ومطّلع على كل الموضوعات بشكل أكثر وضوحًا مما لدى القادة المشهورين، هؤلاء الذين كانوا يعتمدون دومًا على نصحه وإرشاده.

بالإضافة إلى قيام مبروك بكتابة خطاب بين الحين والآخر، كانت وظيفته ككاتب بشكل اسمى فقط، فهو الآن يحضر اجتماعات المقامات من السادة المعتبرين كمندوب معتمد، ويكلف أحيانًا بأن يتتبع خطوات بعض الأشخاص، وأن يجمع المعلومات عن طريق استراق السمع، كأي جاسوس عادى؛ لذا احتار في ذهنه عما يمكن أن يعتبر نفسه. ولكنه على كل حال، وجد له مسارًا عن طريق افتراض أن الرجال خلقوا؛ لكي يقوموا بتأدية أعمال مختلفة المشارب، مادام أن كل ابن من أبناء آدم قد خلقت له يدان: يد مكرمة وأخرى مدنسة، وكان مبروك كثيرًا ما يخاف من تعقب

العملاء السريين للحكومة؛ لذا كان أحيانًا يستبدل ملابسه بملابس علاء الدين، مستعيرًا منه صينية الحلوى لمدة ساعة أو أكثر، أو يجد نفسه مضطرًا إلى أن يرتدي ملابس من الخرق البالية القذرة كأي شحاذ محترف. وفي مرات أخرى، كان يرتدي البالطو والبنطلون الأسود كأي رسمي صغير الشأن. لكن مهما تنكر، فإن معارفه سرعان ما يتعرفون عليه، وفي النهاية ينفجرون ضاحكين، وهذا كان يزعجه بشكل بالغ؛ لذا كان مضطرًا إلى أن يتخلص من كل ملبس لا يحقق له ضمان التخفي، ومن ثم، كان - بسبب تلك الاعتبارات، التي لا ترجع إلى خطأ صادر منه – مضطرًا إلى أن يصرف الكثير على بند الملابس.

صباح يوم، أبلغ سيده أخبارًا تقول بوصول درويش معتوه ومجنون قادم من بلدة (ينبع)، وأن هذا الرجل يسير الآن في شوارع العاصمة مناديًا ومشجعًا الناس على أن ينهضوا لكي يقتلوا الكفار؛ لذا تساءل عمر أفندي عما إذا كان أحدًا ينصت إليه، أم لا.

أجاب مبروك: «هم قلة الذين اهتموا بكلامه، وهؤلاء كانوا يستصعبون عليه، حيث يبدو عليه أنه معتوه أو مجنون».

صاح عمر أفندي معيبًا على المصريين قسوتهم، الذين فشلت حتى صيحة الجهاد المقدس في أن تثيرهم. ومع ذلك، بدا أنه يفكر في ضرورة عمل شيء مع هذا الدرويش؛ لذا فكر أن يقوم مبروك بتحويل اتجاهات هذا الرجل بإغراء الحصول على المال.

وهذا ما حدث، كان هذا المتعصب يعيش في مكان ليس بعيدًا عن الخان، الذي يسكن فيه مبروك مع علاء الدين، وقد كان هذا الرجل مستقرًّا داخل فجوة داخل جدار سميك لبوابة كبرى، تعتبر المدخل الأساسي لواحد من أكثر الأسواق ازدحامًا في العاصمة.. كان الرجل يدعو المولى في علاه خلال اشتداد حرارة النهار، ثم ينام داخل هذه الفجوة ليلًا.. هنا، وطبقًا للتعليمات، ظهر مبروك في وقت الظهيرة، فوجد الرجل جالسًا تحت مشكاته.

شعر رأسه طويل للغاية، بلون خابٍ، ينبسط فوق كتفي سترة حائلة قديمة من الجلد.. من النظر إلى وجهه، يدرك المرء أنه لم يستخدم المشط في حياته، وبجانبه، خلف جدار مبني بحجارة ضخمة، استندت عصاه الغامضة. كان يجلس في مسار تنفس الجماهير المارة، ويبدو كأنه يعيش بمفرده، منهمكًا في ترديد الأدعية وعيناه مغمضتان، لا ترى سوى يدٍ ممدودة بعلبة، يتلقى فيها تبرعات المارة، وهي الوحيدة التي تشعر بالقادمين أو الغادين.

عندما قدم مبروك، بدأ أولًا في وضع قطعة معدنية تافهة في العلبة، صاحبتها تحيات لفظها بلغة عربية فصحى. فرد الرجل التحية بشكل تلقائي، واستمر في التمتمة، دونما يفتح عينيه. احتار مبروك كيف يتعامل مع هذا الرجل؛ لذا اتخذ أجرأ قرار، فجلس بجوار هذا الزاهد أرضًا مستندًا بظهره إلى الحائط، ثم بدا الحديث عن كيفية الحصول على الذهب والمال، وكيف يمكن للإنسان هذه الأيام أن يغتنمه، إذا أبدى كراهيته للخواجات، ووضع مصلحة ورفعة الإسلام في المقام الأول، قال ذلك، بينما عيناه تراقب هذا الرجل بطرف عينيه. لقد كان مبروك يجلس في الظل، وفي إمكانه أن يلمح فيما وراء هذا الدرويش المجنون ضياء الشمس العاتية، وهي تفرش وتسود في الشارع أمامه، تحيط أشكال الناس بهالة بيضاء براقة، تختفي بمجرد مرورهم تحت ظلال البوابة القديمة.

بدا على الدرويش أنه يستمع؛ لأنه توقف عن التمتمة، ومع ذلك ظلت عيناه مغمضتين، بينما يستمر مبروك في تحفيزه، للحصول على أجمل منزل يخطر على باله.... فجأة، قفز هذا المتوحد واقفًا، بعيون جاحظة ينطلق منها الشرر – عيون مجنون خدرة؛ بسبب كثرة تعاطي الحشيش، وزمجر قائلًا: «استغفر الله العظيم من الشيطان الرجيم!».

في طرفة عين، قبض على عصاه، وأخذ في ضرب مبروك على رأسه وكتفيه صارخًا:

- «ذهب! تقول ذهب! هذا سبيل الخواجات، مين يهتم بالذهب وعينه على ورود الجنة؟ اللهم يلعنك أيها العبد الشرير التابع لإبليس!».

كان ما زال يزعق، رافعًا عصاه إلى أعلى، عندما نهض مبروك مسرعًا، وأخذ يجري متجهًا إلى باب الخان، قاطعًا مسافة مائتين من الياردات بطريقة أذهلت كل المارة.

عندما قصَّ في اليوم التالي عن فشله في مهمته، ضحك عمر أفندي قائلًا:

- «ده مش من أولاد مصر». كان هذا تلميحًا له معنى، ضايق مبروك، كما لو أن مسلمي مصر أكثر قبولًا للرشوة من مواطني تركيا أو سكان منطقة العربية!

مع تقدم أيام الصيف، أصبح تحمل شمس منتصف النهار مقبولًا. ومن ثم، وضع التجار الذين ينتشرون في الأسواق، وليس لديهم مكان مسقوف، غطاء فوق مكان عرض بضائعهم، كانت هذه الأغطية المتنوعة بألوانها على طول سوق معين، تشبه بساطًا ممدودًا من أجنحة سرب من الوطاويط (الخفافيش) المقلوبين.

أما الأحياء الحديثة، بشوارعها الواسعة المفتوحة، فإنها تخلو من المارة إلا في فترات المساء المتأخر، وتعطي انطباعًا بمدينة مهجورة، أما البلاط والخاصة من الناس، الذين يتبوأون أعلى المناصب والثروة، فإنهم توجهوا جميعًا إلى الإسكندرية؛ ليستمتعوا بمياه البحر الباردة، بينما ظل مخدوم مبروك، في القاهرة، كما لو أنه عنكبوت، ينصب شباك المؤامرات على مهل.

في أيامه الأولى، لم يقابل مبروك أيًا من قادة الثورة في منزل عمر أفندي، سوى السيد عبدالله نديم، وهو شيخ يعمل في السياسة، ويحرر جريدة تدعى باسم «الفسطاط»، مشهورة بحملات الغضب الموجهة ضد الأوروبيين ومجلة باسم «التنكيت والتبكيت»، وهي تتناول في هجاء ساخر العيوب الاجتماعية والمآخذ السياسية التي يعاني منها المصريون، وهو رجل متقدم في العمر، بمظاهر متواضعة - لكن ليست محتشمة - ودائمًا تجده، وهو يحرك حبات سبحته وعيونه خفيضة، يجلس صامتًا مادام مبروك داخل الغرفة.

ولكن هذا الشاب كان متعاطفًا مع سلوك هذا الرجل الورع، متأثرًا بهذه الرقة والحساسية، التي كان يعمل بها الرجل التركي. وفي الحقيقة، كان تحيط بهذا الرجل هالة من قداسة العالم – القديم، التي تدفع الناظر نحوه إلى إصدار شهقة تتحشر في زوره، وقد كان ذلك الاعتبار الواضح، الذي يكنه هذا المتحمس الغيور تجاه عمر أفندي سببًا في تطهر نفس جاسوس التركي من أي تصنع أو زيف، وبسبب دوام تمليه من تقاطيع هذا الرجل الصالح، هدأ هذا من روعه، وجعلته شاعرًا بالسعادة، وهو يحتل مركزه الجديد.

وعلى مدى ثلاثة أسابيع، شعر مبروك بأنه مستقر تمامًا لأن يرسل لزوجته زينب لأن تحضر وتنضم إليه، كما كان علاء الدين مشتاقًا لأن يرى زوجته وأولاده مرة أخرى؛ لذا تم الاتفاق على أن يرحل علاء الدين إلى القرية ويحضر معه الزوجتين، وسوف يتحمل مبروك تكاليف كل الرحلة.

كانت النقطة التالية التي في حاجة إلى قدر من التفكير، هي إيجاد مكان لكل، فلم يجد علاء الدين أي مشقة في هذا الأمر؛ لأنه لا يلزمه سوى غرفة واحدة، ولكن «مبروك» كان يرغب في أن يعثر على شقة بها أكثر من غرفة، تقع في حي محترم، حيث يمكن للمسلمين أن يعيشوا مع نسائهم، ومن ثم لن تشعر زينب بأي خوف من الاتصال بالكفار، أو المتابعة السخيفة للعزاب الفاسقين غير الملتزمين. خطر في باله على الفور ذلك المسكن، الذي كان يحتله سابقًا، عندما كان يدرس في مدرسة الطب، معتبرًا إياه مناسبًا تمامًا لكل احتياجاته؛ لذا لجأ لصاحب المنزل، ووجد

أن الشقة ما زالت خالية؛ لذا دفع إيجار ثلاث شهور مقدمًا، وذهب في الحال مع علاء الدين؛ لكي يجهز الشقة.

عجز البواب أولا في التعرف على مبروك، واندهش عندما حياه مبروك بالاسم؛ ولكنه سرعان ما تذكره، فابتسم ابتسامة الرضا، وسلم عليه باليد.

تساءل البواب، وهو يقودهما فوق سلالم متآكلة: «هي الست كمان راجعة؟»، وعندما سمع تأكيدًا لذلك، غمغم وعلي وجهه أمارات الاهتمام البالغ قائلًا: «الحمد لله، وإن شاء الله بيتك يوسع وبذورك تزيد!».

بينما كان مبروك وعلاء يفحصان الغرف، أخذ البواب يتمتم غير مستريح. عندما خرج الصديقان، أشار البواب ناحية المزلاج الخشبي، الذي كان سائبًا، ونصح مبروك أن يقوي هذا المزلاج.

تساؤل مبروك متعجبا من هذا القلق: «لكن ليه؟ إيه اللي مخوِّفك
يا شيخ؟».

احتج الرجل بأن الأمر ليس فيه شيء، وأنه يتحدث بشكل عام، فقط لتحقيق الأمان، ولكن مع ذلك بدا على وجه الرجل أنه غير مستريح؛ لأنه استمر يتمتم في ارتباك وعيناه مختبئتان، بينما ترتسم على شفتيه ابتسامة كئيبة.

استفسر مبروك عن بقية المؤجرين، ولكن بالابتسامة الحزينة نفسها، قال البواب أنهم كلهم غير موجودين.. لقد لاحظ مبروك مدى السكون المحيط بالمنزل؛ لكن هذا ليس بالأمر المستغرب؛ لأن هذا هو فصل الصيف، حيث يرحل الكثيرون المستريحون ماديًّا إلى قراهم. لم يفهم كلا الشابان معنى تصرفات هذا البواب النوبي، وأخذا يهزلان من مسلكه العجيب، وهما في طريقهما للخارج.

***

الفصل الثاني والعشرون

كان علاء الدين مستعدًّا للتوجّه فورًا إلى القرية، ولكن عندما قدم له مبروك ثمن تذكرة درجة ثالثة في قطار السكة الحديد، رفض معلنًا أنه سوف يكون معه ما يكفي للصرف، حتى يعود بالزوجتين والأولاد، وقد كانت خطته هي أن يسير حتى مرفأ بولاق، ثم يستقل مركبًا من هناك، فسوف يكون مستغربًا حقًّا ألا يجد ضمن كل المراكب الراسية هناك مركبًا سوف يبحر شمالًا، وأن يقبله المراكبي كونيس له.

كان مبروك غير مشغول بالعمل طوال فترة ما بعد الظهر؛ لذا سار مع صديقه حتى تجمع المراكب، وهناك انشغل بالحديث مع البحارة، مستخدمًا حكايات لها توجهات مختلفة، ومنصتًا إلى نوعية من المتاعب القادرة على تغيير سطح قاع النيل المتذبذب، كذلك مشاكل الفيضان المرتفع.. حدث هذا معه حتى المغيب، قبلما يفكر أن يعود إلى قلب المدينة.

كانت هذه الأمسية قد خصصت لعقد اجتماع، يحضره بعض المتنورين الحذرين؛ لكي يتناقشوا في شئون الموقف السياسي الحالي، كما كانت الأوامر أن يحضر مبروك هذا الاجتماع، وأن يلاحظ خاصةً تصرفات شخص معين بذاته، هو السيد محمد حافظ، ذاك الذي تعتبر توجهاته في نظر الإصلاحيين مفعمة بقدر كبير من الآمال والمخاوف، وهذا ما أكده لهم عبدالله نديم، الذي كان على معرفة متعمقة بسلوكيات وشخصيات المتنورين، على الرغم من أنه هو ذاته له اتجاهات غير مقبولة، ذات رائحة غير محببة في نظر الأكثر تعقلًا فيما بين هؤلاء.

كان مقر الاجتماع هو منزل أحد السادة الكبار، المعروف عنه أنه من أصدقاء أحمد عرابي.. دخل مبروك أولًا قاعة نظيفة تنتهي بغرفة ملحقة، ثم تم اقتياده داخل غرفة باردة، تنار في نهايتها بلمبة معلقة في السقف، ذات صناعة متميزة؛ حيث تساقطت إشعاعاتها فوق عمم دائرة من كبار الحاضرين، الذين جلسوا، واضعين ساقًا فوق ساق على أريكة، وزادت أيضًا من مستوى لمعان قفاطينهم الحريرية. تقدم هذا الشاب بكل احترام، يبدو كأنه يغرف ترابًا بقدميه، حتى وصل إلى قرب الأريكة، وكان من المفترض – عندها - أن يقف ثم يجلس بكل تواضع، ولكن صاحب المنزل منعه من ذلك قائلًا:

- «إحنا كنا في انتظارك، أهلًا وسهلًا بيك، بيتي هو بيتك.. كلنا نحترم ونبجل عمر أفندي، وإحنا مسرورين للغاية أننا نستقبل صديقه وخادمه لينضم إلى اجتماعنا».

ثم قام بعد ذلك بقيادة مبروك حتى دائرة كبار القوم، وقدمه لهم مضيفًا: «إحنا نتكلم هنا بكل حريتنا». هذه العبارة تكررت على ألسنة كل الحاضرين، ولكنهم لم يتحدثوا بكل حريتهم، فقد أصبح هذا بعيدًا عن منالهم الآن، على الرغم من أن حديثهم قبل قدوم مبروك كان يجري بلا تحفظ. تحدث واحد بعد آخر، ولكن خطبهم كانت كلها مجاملات، من النوعية التي يستخدمها الإنسان؛ لكي يهدئ الأجواء، ويخفي بها في الوقت نفسه أفكاره الحقيقية.

بعد انتهاء هذه الخطب التي بلا طعم أو لون، أتت خطبة السيد محمد حافظ، كلها جد وإخلاص، وقد أثرت في قلب مبروك كأنما هي يد حازمة.

كان هذا الرجل في مقتبل العمر، وجهه - وهو يتلاعب بشعر ذقنه، ويتحدث بلغة هادئة طيعة - كله ضياء وصفاء ذاتي، بلا تصنع أو غرور.. عيناه كبيرتان، بل جاحظتان – عينا سيد، ليس للرجل فعل أو إنجاز، ولكن حدة محاوراته والقرار المتبدي في ملامحه الغريبة، كانت توضح أنه ليس مجرد واحد من الحالمين. وعلى الرغم من أنه كان أصغر سنًّا من معظم الحاضرين، إلا أن الجميع كان يستمع إليه بكل وقار واحترام؛ لأن انتسابه المعروف لأهل البيت وكذلك اعتداله المشهور، أضفيا عليه الكثير من مظاهر النفوذ والسطوة..

إنه لم يعد إلى الديار إلا منذ ثلاثة أيام، قادمًا من بلاد الشام؛ حيث يمتلك هناك الكثير. في الحقيقة، هذا الرجل لا ينتمي لبلد معين، ولكنه بالأكثر مرتبط بالفكرة الإسلامية، يشعر دائمًا أنه في موطنه، سواء كان في زيارة إلى سمرقند أو مكة، كما هو حاله هنا في مصر؛ لذا يقيِّم العالم من حوله بمنظار الدين الصحيح، مكتشفًا أن مدخل الدين في المعترك السياسي، في جانبه الأكبر، ليس سوى نوعٍ من الكفاح، الذي يهدف إلى تحقيق طموحات تافهة، وأنها نوعية من الكفاح سوف تدعو للخجل في اليوم الأخير. ومع ذلك، تراه شعلة من الحماس، عندما يعتقد أن هناك مبدأً دينيًّا في مأزق أو معرضًا للخطر، مثل ذلك التصميم المتعمد لإهانة الدين، المتداخلة مع بعض التعديلات، التي حدثت مؤخرًا بأمر من الخديوي؛ لذلك كان من أهداف المتذمرين أن يكتسبوا هذا الرجل بالذات إلى صفوفهم.

بدا الرجل بالقول متخشعًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، يتعين علينا نحن المتفقهين في الدين، والمهتمين بأمر الإسلام والمسلمين - ليس في مصر فقط، ولكن على مستوى العالم أجمع - ألا ننخدع بالمظاهر، وعندما تسود الشكوى والتذمر، علينا أن نكتشف أساسيات ذلك، وأن نكتشف أيضًا نوعيات السلوك العام والأخلاقيات، التي تدعم قوة هذا الفعل، قبلما نقول عن هذا أو ذاك أنه

عادل أو قانوني. والآن، يتقدم نحونا الخطباء المفوهون الساخطون في هذه المنطقة، كرجال مؤمنين ومخلصين لدين سيدنا محمد (ﷺ)، مدعين أن التحديدات والمحظورات السابقة، التي طالت مسألة شراء العبيد، تعتبرها عملًا ضد الإسلام، ثم يضيفون بالقول بأن جناب الخديوي أصبح من الأدعياء الخطرين، وأنه أصبح أداة طيعة في يد اليهود والنصاري. هذا وجه وحيد ينطبق عليهم، ولو كان هذا هو أمرهم الوحيد، إذًا لسمعنا لهم، ولكن في حوارهم المستمر مع الخواجات، يظهرون أنفسهم كأنهم مناصرون لحضارة أوروبا، وما فيها من تقدم ومدينة.

إنهم يذكرون أهدافهم هذه المشتملة على تأسيس حكومة في هذه المنطقة، تحتوي مختلف الأطياف، على وتيرة الحكومة الفرنساوية.. حكومة تخالف وتعارض فكر الله سبحانه وتعالى، وتمنح تمييزًا للقليلين، ولكل رجل يطمع في تحقيق طموحاته وأغراضه، متحدثين دومًا بلغة الطمع والجشع العالمي. إذًا، أين هي اهتمامًاتهم، تلك الاهتمامًات النابعة من القلب لتحقيق رفعة الإسلام؟ أين إيمان محمد (ﷺ)، الذي لا يهمه شيء سوى رفعة حق الله في علاه؟ هذا الأمر يحتاج إلى رجل يجعل من نفسه صغيرًا وليس كبيرًا؛ أما هؤلاء المخربون المزعجون، فهم لا يؤمنون بكرامة الوطن، ماداموا يضعونه هكذا بين ثنايا خيوط مؤامراتهم الذاتية....

«الآن، أنا أبغض الأجانب وأعرض عن ملازمتهم ومصاحبتهم، لكن كراهيتي هذه لا تنصب على رجالهم؛ لأن أفاضلهم يتسمون بالضمير الصالح والقصد الحسن، وليس بسبب تداخلهم مع الحكومة، ولكن بالأكثر بسبب نوعية حضارتهم، تلك التي تعتبر عدوًّا لأي دين – دينهم كذلك ديننا – إذ إنها تمدح عقل وعلم الإنسان بديلًا عن الله؛ لا تنظر أو تهتم بالعالم الآتى؛ ويعلم الله كم مقدار ما لدينا من هؤلاء الأجانب، الذين يهينون عاداتنا ويفسدون أخلاق شعبنا، ويعاملوننا نحن المسلمين كأننا وحوش.. إنهم يتمسكون بالامتيازات التي منحت لهم، تلك التي تعمل على حماية رعاياهم من العنف والاضطهاد؛ لكي ينشروا رذائلهم في أوساطنا. إن حكامهم يقصدون الخير للناس، وهذا ربما ما يحدث، حيث إنهم رجال لهم مقامهم الرفيع؛ ولكن المنحطين من أهالي هذه الدول يصرخون في وجه حكامهم، وحديثهم دائمًا هو حديث الجهلاء – يهدفون إلى تحقيق الشر دائمًا....

«الآن، هناك وسطهم، داخل بلاهم، شخص أو آخر يهدف، إلى إثارة الغضب في صدور مواطنيهم، وقد استمع أحمد عرابي إلى كثير مثل هؤلاء، الذي استطاع آحادهم أن يحتل مركزًا مرموقًا، ولكن كان عليه أن يتماشى مع طباع جنس

لا يتصف بالجنون، وليس مثل خواجات هذه الأيام (الذين يتضافرون معًا بكل سهولة، ويثورون

من أجل لا شيء، وكثيرًا ما يقضون حياتهم في مطاردة أفكار مجردة عقيمة، لا نفع منها) إنهم نوعية من الشعوب، على الرغم من أنهم عرضة للمؤثرات الجامحة الوقتية.. لكن سرعان ما يستفيقون – والحمد لله – ويرى كل شخص منهم أهدافه الحقيقية بكل وضوح.

«لقد وصلتنا تأكيدات عديدة تقول إن هذا الجندي وزملاءه ليسوا من المتمردين؛ لذا أنا أتقدم إليكم بحق الله أن تجيبونني: إذًا ما الذي ينتوي صنعه؟ وإذا كان هناك حزب قوي، جمع أعضاءه بكل مشقة، وكل فرد فيهم يهدف إلى خدمة مصالحه الخاصة على حساب النظام العام، بينما هو شخصيًّا يعتبر معاديًا للحاكم، كذلك إذا تعمد الجيش أن يتحلل من ولائه وطاعته، إذًا من سوف يتقي شر التمرد، سوى الله سبحانه وتعالى؟ وإذا انتشر هذا التمرد – لا سمح الله – إذًا ما الحال بعد ذلك، هذا سؤالي لكم؟ ألن يقدم الأجانب على غزو هذه البلاد؛ بغرض استعادة الأمن والنظام، بديلًا من فقدان المال الذي استثمره مواطنوهم في هذه المنطقة؟ في بلادهم لا تجد سوى صوت واحد قادر وقوي، بديلًا عن صوت الجهلاء لتسيير الأحوال، إنه ليس سوى صوت اليهود المرابين..

«حتى لو افترضنا أن «عرابي» قد انتصر، ما الذي سوف يعقب ذلك؟ بينما هو بلا قدرة أو خبرة بإدارة الشئون الحكومية، سوف يتعرض لأن يداس تحت أقدام المؤيدين السابقين، فكل واحد يناضل؛ لكي يحصل على أعلى المناصب.. سوف تغرق البلاد في الفوضى الشاملة، وسوف يعاني سكانها الأبرياء من مصاعب مرعبة ومتاعب لا حدود لها....

«أليس من الأحق أن يتحكم في هذه العوارض إنسان حكيم وصالح، ومؤمن حقيقي وصديق مخلص وأمين في تحقيق العدالة؟ أقول هنا إن محمد توفيق هو الجدير بذلك، ليس بسبب أنه صديقي منذ أيام الطفولة، ولكن لأنه إنسان يتحدث بالحق أمام الله..

«إنه يخضع الآن لطلبات المستشارين الأجانب؛ لكي تتاح له إمكانة تسديد الديون الطائلة، التي تورط فيها والده، ومع توالي الزمن، سوف يتم تسديدها، وما أن يحدث ذلك، سوف تكون هناك بمشيئة الله فرصة لنهاية هذا التدخل، الذي يستنكره جلالته مثلنا جميعًا، ومادمت – بمعونة الله – قادرًا على الحكم على الأمور، إذًا يجب علينا كعقلاء، مؤمنين بالله الواحد، أن ندعم سلطان جلالته، الذي لم يفعل شيئًا لكي نفقد توافقنا، لكنا نعيب عليه فقط تهاونه الغريب تجاه هؤلاء المزعجين.. كنت أتمنى لو أنه استمع لنصيحة والده، قبل رحيله من البلاد، فيما يختص بهؤلاء المثيرين للقلاقل، لكن أخلاقه الخاصة منعته من فعل ذلك.. الله أكبر!».

توقف السيد محمد حافظ عن الحديث مؤقتًا، وسرت بين الحاضرين همسات، تعبر عن الارتياح والموافقة. ثم بشكل مبتور، وجه مندوب عمر أفندي (مبروك) سؤالًا للخطيب: «لكن لنفترض أن الحكومة الحالية سقطت، ما الذي يمكن أن يحدث بعدها يا مولانا؟».

- «حينئذ يكون الأمر هو قضاء من الله، فنحن مسلمين.. علينا حينذاك أن نتشاور لنقرر من هو الرجل، الذي يمكن أن نعتمد عليه؛ لكي يرعى شئون المواطنين الغلابة في هذه المنطقة، لكن لا أعتقد أن هدف جماعتك هو تشجيع التمرد».

هنا تدخل صاحب المنزل، وهو ينظر بنظرة توسل إلى مبروك، قائلًا: «لكن أليس هو مبعوث من قبل السلطان ...حضرة عمر أفندي».

- «إذا كان عمر أفندي هو حقًا مبعوثًا من قبل الباب العالي، إلا أنه ليس مفوَّضًا؛ لذلك لا يمكن تبرئته.. إنه إنسان ذو خصال حسنة، مشهور بالحذق والمهارة، وهذا ما تأكدت منه جيدًا، ولكنه لا يعتبر مستشارًا يمكن الوثوق به، ولو كان لديه شيء ما يود أن يتواصل به معنا، إذًا لقدم بنفسه، بدلًا من أن يرسل لنا خادمه».

مع تلك الملاحظة الصادرة من السيد، قام مبروك مبديًا غضبًا، يتناسب مع موقعه المتواضع وسط هذا الجمع من أكابر القوم، وعلى الرغم من جهود صاحب المنزل في استبقائه، إلا أنه غادر مفضلًا الاحتفاظ بالقدر الكافي من كرامته.

قام بعد ذلك باستعارة لمبة من حارس ليلي، واقف على الباب الخارجي، ثم بالاستعانة بعصاه، شق طريقًا مخترقًا الحواري الضيقة، التي ظهرت فيها النجوم، كما لو أنها غارقة في بئر، سالكًا تحت شرفات ومنافذ متعددة، متجهًا إلى منزله. زعق فيه الحارس مرتين، طالبًا منه أن يوحد الله، وألقى شخص آخر، قابض على لمبة، عليه تحية المساء، وهو مسرع في خطوه، وفي موقع من سيره، سمع أصوات بهجة وأفراح، صوت آلات وترية، دق متواتر على عدد من الطبول، لعلها قادمة من منزل يحتفلون داخله بزواج أو طهور. لكن ما عدا عواء الكلاب، وهو في طريقه، كانت الشوارع خالية يلفها صمت شامل، كما أن ذهنه ما زال مشغولًا بتلك الخطبة التي استمع إليها منذ لحظات.. إذا كان السيد قد نطق بالحق، وهو يشجب أعمال الثوريين، متنبئًا بفشلهم، إذًا لتوجب عليه (مبروك) أن يلتمس خدمة ورضاء سعيد بك رمضان؛ فهو يخشى ذلك التركي، رئيسه الحالي؛ لذا لا يجرؤ على مواجهة فكرة خداعه أو التمثيل عليه، أن يفشل أو يهلك، هذا أفضل كثيرًا

من جلب غضب هذا الرجل عليه.. كانت تلك مأساة مؤلمة وقد حلت فوق رأس هذا الشاب البرئ، الذي تنحصر كل جهوده في استخدام المواهب، التي منحها له الله.

وبينما هو غارق في كل هذه التصورات، مقتربًا من مكان منزله، سمع مبروك أصوات أقدام تسير خلفه، واستطاع على ضوء النجوم أن يلمح شكل رجل طويل القامة، يرتدي ملابس الضباط، يتمايل في سيره خلفه في تلك الحارة الضيقة، فأسرع مبروك في خطاه ليصل إلى باب منزله، وبدأ في عملية إيقاظ البواب، الذي كان نائمًا على دكة، عندما سمع صوتًا يقول:

- «ابعد عن سكتي، يا ابن الوسخة يا فرعوني!»، ثم دفع مبروك بعنف على الحائط، بينما هجم على البواب، وطلب منه أن يفتح الباب بشتائم مقذعة، إنه ليس سوى أمين بك الشركسي. شاهده مبروك، وهو يدخل المنزل كأي شخص يعيش داخله، ثم سمع صوت أقدامه يخفت على السلالم.. هجم مبروك على البواب، وقبض على ذراعه بقوة هامسًا:

- «ليه ما قلتش أن البلطجي ده ساكن هنا؟»

- «والله يا حبيبي، ده مش شغلي.. لو أني زعلت أي مستأجر، صاحب البيت حيزعل ويطردني، لقد حاولت بالمحسوس أبلغك شيئًا عن الموضوع، وتركته لذكائك، بالإضافة إلى أنه مش دايمًا إنسان وِحِش، ده راجل كريم ودايمًا يعطف عليَّ بالهدايا، بيديني أكثر من كل سكان البيت.. الواحد ما يخافش منه إلا لما يكون سكران، وده مش بيحصل إلا مرة واحدة في الشهر. حُطْ رتاج قوي على باب شقتك، بكده كل سكان البيت يعيشوا في أمان إن شاء الله».

أدرك مبروك الآن لماذا يبدو هذا المنزل خاليًا، بينما كان يحفل بعديد من السكان في السابق؛ فهؤلاء العقلاء المتحضرون، مع زوجاتهم ومحظياتهم، هربوا من تجاورهم مع هذا الفاسق المجرم.. لقد عرَّض مبروك زوجته زينب بكل حماقة إلى هذه المخاطر، وهي امرأة شابة وجميلة، وحرَّة في حركات عينيها، كما لاحظ عليها ذلك مرة أو مرتين. الأكثر من ذلك، أنه يخشى على ابنه الطفل؛ فقد سمع أن من أكثر المتع التي تجري في دماء الشراكسة هي أن يقدم اثنان منهما على إشهار سيوفهما، ثم يشطران الطفل الصغير العاري من نقطة إلى نقطة أخرى.

وسط هذا الظلام الدامس وحيدًا، شعر مبروك أن رعب العالم كله قد حاصره، ثم وهو يستقر داخل شقته الموصدة جيدًا، قضى ليلة سوداء.

***

الفصل الثالث والعشرون

في الصباح، ذهب مبروك غاضبًا إلى صاحب المنزل، ولكن هذا المجرم، وهو تاجر سمين لم يشأ أن يتعامل مع شكواه بشكل جدي، وعندما طلب مبروك استرجاع ما دفعه، هدده هذا الرجل من أنه سوف يسحبه إلى المحاكم؛ لذا وهو غير قادر على التخلي عن هذا القدر الكبير من المال الذي دفعه للرجل، رأى أنه لا مناص من بقائه مع زوجته زينب في منزل الهلاك هذا؛ لذا - وهو ممتلئ باللعنات - بحث عن نجار، وعندما عثر على واحد منهم، ذهب إليه في دكانه ووجده جالسًا هناك، فترجاه أن يسرع بصنع رتاج جديد قوي لباب شقته، وعندما علم النجار بحقيقة المشكلة، وعد أنه بإذن الله سوف ينتهي من هذا العمل في اليوم ذاته.

في ذلك الوقت، كانت الشمس تسطع فوق قمم المنازل، بينما يجاهد المارة على السير تحت الظلال.. أسرع مبروك بالذهاب إلى منزل عمر أفندي، وتم اقتياده في الحال إلى غرفة الرجل الخاصة؛ حيث كان التركي مستلقيا بجلبابه الحريري، فوق أريكة بجوار نافذة مفتوحة.

ما أن ظهر مبروك حتى خاطبه هذا: «أنت اتأخرت يعني، أنا كنت في انتظارك، عايز أسمع تقريرك».

أجابه الشاب بلهجة، تحمل في طياتها اللا أمل، وهذا أكده ما ارتسم على ملامح وجهه: «للأسف يا سيدي، كل شيء انتهى.. اتضح أن السيد محمد حافظ واقف مع أفندينا، وأخذ يهزئ فينا نحن الوطنيين بألفاظ فصيحة كلها عنف، لدرجة أن كل المستمعين اقتنعوا أنه يتكلم الصح».

- «ربنا قادر يخفيه من فوق وش الدنيا».. هكذا غمغم عمر أفندي، ثم طلب من مبروك أن يلخص له خطاب الرجل في ظرف دقيقة واحدة، مع وصف تأثيره على السامعين، وأخذ يستمع إلى مبروك، بينما انهمك في حشر طرفي شاربه في فمه، يقضم فيهما بعنف بالغ، وعيناه مسلطتان على الأرض.

عندما انتهى حديث مبروك، جلس الرجل لبرهة ساكنًا، ثم انفجر: «الحيوان المتوحش! مسخ الكبرياء والعظمة الفارغة! إذا كان هو يحتقر عرابي كده على المفضوح، ده بس لأن عرابي ابن ناس فلاحين، وهو لم يدعِ أبدًا أن له أي صفة وسط المتفقهين، إنه يسخر منه لأنه يخطط مشروعاته بنظام الإفرنج نفسه، يفعل ذلك كأنما مش أفضل سكان مصر عبارة عن قرود! أو كما لو أن أرضًا لم تطرح في عمرها سوى الشوك والحسك! بإذن الله هو حيعرف عاجلًا أن عرابي

عنده إرادة وذكاء أفضل منه، هذا الأحمق! هما منتظرين يشوفوا قوتنا، فهل صحيح إن ده كله يصدر من ذوي الذقون الرمادية؟ إن شاء الله سوف يشاهدون كل هذا عما قريب، هما حاليًا خائفين ومرتعدين. لكن في نفس الوقت، إزاي نخلِّي الفضولي المقتحم ده يسكت ويخرس؟ ده راجل يعتبر صديق للخديوي، ويمكن يقترح عليه حاجات، يمكن أن تدمرنا وتخلّص علينا؛ لأن قوتنا لم تكتمل بعد، وإذا حديثه ده وصل بره، ربما ده يضعف من قوة مؤيدينا، لأن فيه ناس كثير بيسمعوا ليه».

وافق مبروك منفعلًا، وقال: «وحياة النبي، الراجل ده يستحق إنه يموت».

صاح التركي بمكر، بعدما تغيرت ملامحه، وظهر عليه جليًّا أنه مستمتع: «آه، وآدي مصاص الدماء القاتل المحترف يتكلم! أنت عمرك ما تفكر في حاجة غير الدم، ناسي الثمن اللي ممكن يندفع في كده..... تعالى يا صديقي واسمع، طبعًا حضرتك لا تعرف إنه عندنا هنا واحد غاوي شرب الدم، وهو كمان حرامي وموجود هنا في خدمتي؟ اسمح لي أقدم لك مبروك المصري، أعظم الشياطين جرأة، أنجبته هذه البلاد منذ أيام علي المصري، اللِّي قرينا عنه في ألف ليلة وليلة».

تقدم نحوهما الشيخ عبد الله نديم، الذي كان قد حضر خلف مبروك، ثم تقدم ولامس يد التركي، وتبادلا معًا التحيات المعتادة، ثم أدار الشيخ عينيه ناحية هذا الوحش، الذي تم التعريف به، ثم صاح بكل وقار: «أسأل عفوك يا رب، لكن هل هذا صحيح؟ يبان على الشاب ده إنه شخص برئ ومؤدب جدًّا.. لا شك أنه ارتكب جرائمه بسبب ثورة غضب فجائية، أو بسبب شعلة غيرة تحولت إلى نوع من الجنون».

- «لا ولا! أؤكد لحضرتك إنه والله قطع جسم راجل من هنا حتى هنا، عمل كده بكل برود عشان يكسب رهان.. ده كان قاطع طريق، مصاحب أشهر المجرمين قوة وصلابة».

احتج مبروك، وقد انتابته مشاعر مختلطة من الخجل والرِّضا، وهو يقول: «يشهد الله يا سيدنا إن سيدنا هذا بيهزر، لا تسمع له يا سيدنا».

بعد تفكير، أبدى الضيف ملاحظة قائلًا: «أي واحد بيقتل، مش بالضرورة نعتبره مجرم، وإلا إزاي نمنع الصالح من ضرب الطالح، والفاضل يتخلص إزاي من أشرار هذا العالم؟ طالما يا ابني أنت شاب شجاع، حوِّل كل جهودك نحو مكافحة الشر والكفار وكل المتزمتين، الذين لا ينصتون للنصيحة المخلصة».

قال عمر أفندي متعجلًا: «اطلع بره دلوقتي يا مبروك، روح شم هوا، لأني عايز أتكلم مع سعادته. بعد ساعتين ارجع، حأقولك تعمل إيه».

خرج مبروك طائعًا، وجلس بجوار البواب؛ حتى يحين موعد عودته. عندما دخل، وجد التركي بمفرده، وفي حال مزاجية حسنة، لقد أدرك ذلك من الضحكة، التي توقفت بمجرد دخوله الباب، ومن الصعوبة التي كابدها سيادته؛ حتى تعود ملامحه إلى وضعها الطبيعي:

قال التركي لتابعه: «من فضلك اقعد.. والله العظيم، كل هؤلاء الورعين هما جميعًا ولاد كلب! حضرته حكى لي قصة، لم أسمع مثيلًا لها من قبل بسبب طرافتها، دلوقتي خليني أجمع شتات نفسي؛ لأن فيه تعليمات مهمة لك».

أعلن مبروك بكل احترام وتبجيل استعداده التام لأن ينفذ أي أوامر، ثم جلس صابرًا؛ حتى يستعيد معلمه شتات فكره، ويستعيد هدوءه الساخر المعتاد. أخيرًا، وبجهد، وبنبرات قاطعة، تحدث سيادته قائلًا: «السيد محمد حافظ ده بيهدد بإلحاق المتاعب علينا، وإذا قدر أنه يشجع الحكومة تعمل حاجة ضدنا، كل شيء حيكون مآله الخسران. حتى الآن، ويجب أن تكون كل مظاهر القوة والسيطرة في جانبنا؛ لكي نرفع من الروح المعنوية للمترددين. معظم الضباط الأهليين هما معانا، لكن ليس كثيرًا من العساكر العاديين.. هناك فصائل بحالها ممكن أنها تتراجع في حالة إعلان الطوارئ. أنت نطقت بالحق من وقت قليل، يجب أن يموت هذا الرجل، وبالطبع سوف يصب خير عميم على اللي ينفذ ذلك ويخلصنا منه. أنت نفسك كنت حرامي، ويا ما قتلت ناس؛ لذلك من فضلك فكر في الموضوع.. ده موضوع يستحق النظر فيه».

انهمك الرجل في ترديد حبات سبحته، بينما ينظر نحو مبروك، بطرف عينيه، نظرة صيَّاد إلى ضحيته. وفي وهلة، عادت إلى ذهن مبروك تلك القصة الطريفة، التي حكاها الشيخ المتحمس؛ حيث يبدو أن هناك بعض نوازع الطرب تهدده الآن بالتغلب عليه، إلا أنه استطاع أن يضبط نفسه مستردًّا سلوكه المعتاد، وهو يتمعن في هذا الاقتراح المخيف.

سقط فك مبروك، وحملق في أرض الحجرة كأنما يرى جهنم، وقد فتحت فاهها لتبتلعه.. في تلك اللحظة بالذات، تمنى لو كان من صنف الشباب الأرعن؛ بحيث يرفض تنفيذ مثل هذه العمل الفظيع، بكل نبل، معلنًا أن قراره هذا ليس أبدًا مرجعه الجبن أو الخوف، ولكنه الآن لا يمكنه على

الإطلاق أن يتنكر لادعاءاته السابق، دون أن يخاطر بفقد إعزاز وكرم هذا الرجل إلى الأبد، وراح يحرك قدميه هنا وهناك، بينما رأسه ويداه ترتعشان بشكل تعيس.

صدر منه صياح بالكاد يسمع: «استغفر الله، ده أكثر من أن يطلب من أي إنسان. اللي ارتكبته سابقًا كان بسبب مشاركتي في عراك أو بسبب غضبي، ودول ما كانوش ناس ليهم قيمة كبيرة، مع ذلك، كان موتهم تقيل على قلبي، لكن السيد محمد ده راجل ليه وزنه وسمعته، ومن آل سيدنا محمد (ﷺ)، وما فيش جريمة ارتكبت من الصنف ده من أيام سيدنا الحسين (عليه السلام). ده ذنب يمكن له أن يسود شكل السماء، ويحل غضب الله على كل البلاد دي، ويجعل الشخص مكروهًا من كل المؤمنين الحقيقيين».

قال عمر أفندي ساخرا: «والله، دا انت عارف أهه شغلك كويس! عايز تعرف جايزتك قبل الأوان يا شاطر؟ جايزتك هي إنك تقدر تهرب من العقوبة الشاملة، وإلا يعني عايز تتحط قدام القاضي بصفتك حرامي وقتال قتلة؟ الاختيار ليك. روح دلوقتي وفكر، وخد معاك الجواب ده سلمه لخالد أفندي.. امشي.. أنا بأقول».

غادر مبروك منزل رئيسه، وهو نصف أعمى، بينما كان هناك وَش (طنين) مستمر يتردد في أذنيه.. بعد عدة خطوات من الباب الخارجي، في الحارة الضيقة القذرة، جلس في حمى ظل ضئيل لحائط وانخرط في البكاء، ذقنه ملامسة لصدره.. كانت الشمس تسطع فوق المنازل المرتفعة على الجانب الآخر، بينما تنتشر الظلال تحت شرفاتها البارزة، وكانت هذه الظلال تنتهي قبل ركبتيه، وتصورت له على شكل حروف حادة، كأنها سيف حاد مسلط تجاهه.. فوق رأسه، انصبت نيران بيضاء، وشاهد حارس منزل نائمًا على عتبة منزل؛ كما كانت بعض الكلاب نائمة، طائرة ورقية تتأرجح في العلا تعبر، وتلعب في جزء من صفحة السماء، بينما يطير ظلها على واجهات المنازل، كما لو كانت طيرًا من نوع آخر؛ ثم لا شيء ينبض بالحياة على مدى البصر.

لعن مبروك ذلك اليوم الذي وقعت فيه عيناه على سحنة هذا التركي رئيسه، ولعن أيضًا عقله وذهنه النزق الذي جعله يفتخر بجرائم لم يرتكبها على الإطلاق؛ فهذا هو طبع التركي، الذي يقترح ارتكاب جريمة هكذا بكل خفة، بالنبرات نفسها التي يستخدمها عندما يطلب إزاحة حجر من سكته.. يا ليت يقدم الله على إبادة كل هذا الجنس العثماني؛ لأن شرورهم ونذالتهم تسخر من العزة الإلهية! إنه يسخر أيضًا من الشيخ عبد الله نديم، ويا ترى، إلى أي مدى سارع فيها هذا الرجل التقي المتحمس في نقل الأخبار!

طرأ في فكر مبروك أن يهرب بعيدًا عن العاصمة.. يعود إلى قريته، إلى حياة الفلاحين، التي تسير بوتيرة بطيئة وآمنة. لكن الجميع هناك يعلمون أنه أصبح جنديًّا، وعدو والده، الشيخ محروس، هو العمدة الآن، ولن يتورع عن الإبلاغ عنه بصفته هاربًا من الجندية، وبذلك يستعاد إلى وحدته، وهناك يجلد ويحبس، حتى لو لم يبلغ عنه عمر أفندي كما هدد. فكر أيضًا في اللجوء إلى الخواجات: من المعروف عنهم أنهم يكرهون العنف، ولكن بالنسبة لكل هذا الجنس، هو لا يعرف سوى اثنين منهما: مسيو ديبو ومستر باول، اللذين كانا ضمن أساتذته القدامى.. إنه لا يعرف أين مقرهما الآن، أو أن يأمل في الحصول على مساعدتهما، فكل ما يتذكره عنهما هو مدى تعاظمهما؛ لذا هناك احتمال ضعيف أن يستمعا إليه إذا اقترب منهما.

قدم نحوه رجلا ظهره محني تحت قربة ينز منها الماء، لاحظ الرجل أن هذا الشاب يبكي؛ لذا وقف في مكانه للحظات، مستفسرًا عن سبب هذا الحزن الشديد.

- أجاب الباكي: «أنا اتسرقت».

قال الرجل بكل عاطفة جياشة، وهو يمسح العرق، الذي تجمع على حاجبيه: «ربنا يكون معاك»، ثم سار في طريقه.

لا يستطيع مبروك أن يفصح عن أسباب حزنه لأي إنسان، أو أن يطلب النصيحة من مؤمن حقيقي.. هذه العزلة، التي شعر بها بقوة، جعلت مسألته تبدو عويصة بلا حل؛ لذا شرع في البكاء مجددًا، حتى علاء الدين، سوف يبتعد عنه مقشعرًا في رعب، إذا علم الحقيقة؛ لأنه لا يوجد سوى مسلك وحيد للنجاة من هذا المأزق، هو أن ينفذ ما اقترحه التركي، ولكن هذا أيضًا، في حكم الاستحالة، فهو يعلم جيدًا أنه سوف يموت في جلده، إذا أقدم على تنفيذ الجريمة. بالتأكيد لا يوجد في العالم كله شخص، يتصف بالخسة والنذالة، وبالجرأة والشجاعة أيضًا لكي ينفذ هذه الجريمة بديلًا عنه؛ فقد انتهى عهد محمد النوري، وحتى لو كان للرجل وجود، إذًا لرفض واعترض على تنفيذ هذه الجريمة النكراء.

عندما شعر مبروك أن دموعه قد نفذت، وأن أشعة الشمس قد طالته، قام وأخذ يتجول في الشوارع، غير مهتم إلى أين يقوده المسير. وكما لو أن الأقدار قد شاءت، مرَّ على منزل السيد محمد حافظ، فقد حضر هنا مرة لكي يسلم خطابًا كتبه عمر أفندي.. الآن هو ذا البواب يرحب به، كأنما هو معرفة قديمة، ودعاه أن يأتي ليجلس بجواره على الدكة لفترة، فجلس مبروك يتحدث مع

بعض الخدم، وبعد لحظات، شاهد صاحب المنزل يخرج إلى الشارع بمفرده، وقف الكل يرفعون أيديهم بالتحية، وهو يمر أمامهم.. ردَّ عليهم التحية، كأنما هم أصدقاء له أو أنداد. شاهد مبروك ضخامة الرجل وهو يبتعد في الشارع، الذي كان خاليًا في ذلك الوقت، كما لاحظ أن الرجل يسير كأنما هو في حلم، لا ينظر حوله، ويتردد طرف قفطانه خلفه، وأنه من السهولة بمكان لأي رجل أن يتسلل خلفه ويغرس خنجرًا بين كتفيه.. كان هذا التصور في ذهن مبروك طارئًا؛ مما جعله يزدرد ريقه بصعوبة، مانعًا دموعًا جديدة من أن تنهمر.

أخيرًا، وهو يستأذن لمغادرة صديقه البواب، طرأ في ذهنه الخطاب المكلف بتسليمه.. كان الرجل المهم المرسل إليه يسكن في حي بعيد، ومع ذلك، اختار مبروك أن يذهب إليه راجلًا على قدميه كل الطريق، على الرغم من أنه كان في إمكانه أن يستأجر حمارًا أو حتى عربة إذا شاء. وبالأسلوب نفسه، ما أن انتهت مهمته، حتى عاد بخطوات سريعة، خطوات المذنبين، وليست خطوات شاب هادئ وساكن. اجتاز مبروك بعد ذلك جهة متخمة بالأعلام المنصوبة والرايات، تجمع فيها خلق كثير مرحون ومبتهجون، كانوا يحتفلون بمولد أحد الأولياء المحليين، وأشارت إليه كثير من الأيادي لكي يتوقف ويستمتع بالحفل، لكنه اجتاز وسطهم، دونما يفكر في شأنهم.

في ذلك الوقت، فاضت على وجه السماء ألوان دافقة، في الشوارع، وسار الناس تلفهم أنوار غسق غريب عجيب، خضَّب كل شيء بألوان كلها مرح، وبدا المنظر كأنما الإنسان يتأمل عبر أعماق مياه صافية. سار مبروك في طريقه، بقلب ملتهب، لا يلوي على شيء، ولا يشعر بأي تعزية، بل إنه لا يجرؤ أبدًا على تنفيذ ما طلب منه، لكن في الوقت نفسه لا يستطيع أن يجابه رئيسه والمهمة لم تنجز، إنه لا يفكر الآن في الحصول على قسط من الراحة، أو أن يبتلع طعامًا، أو أي شيء آخر، لا يفكر إلا في تحقير ذاته أمام خالقه.

في وقت صلاة العصر، دخل مبروك جامع سيدنا الحسين، وهناك، بجوار عمود، قضى ليلته، يراقب من بعيد تلك اللمبة الموقدة أمام المقام؛ حيث تستقر رأس الشهيد. لم ينم ولو لهفوة، لكنه استمر في البكاء والدعاء أمام الله قانطًا يائسًا، حتى انبلج وشقشق نور الفجر، وغطى كل ما حوله، جاعلًا من منظر الموجودات أشكالًا غريبة وجديدة، وهذا زاد من درجة يأسه، لكن في تلك الساعة الباهتة، تشكل المسار السليم الواجب اتباعه في ذهنه.

إنه يستنكر شرور وأفعال هذا التركي اللئيم، وبغض النظر عن التهديد والوعيد بالتعذيب، فهو على كل حال سوف يموت معذبًا. سوف يتوجه هذا اليوم مبكرًا إلى منزل سعيد بك رمضان،

وهناك سوف يعترف بكل شيء، راجيًا منه أن يخطر السيد محمد حافظ عما يدبر في شأن التخلص منه قتلًا، ثم يسرع هو إلى أي مدينة ساحلية، باحثًا عن مركب ترضى أن تقله إلى أي بلد بعيد، لا تطوله فيه يد أو يلحقه غضب عمر أفندي. بالتأكيد، عند الكشف عن أطراف هذه المؤامرة الدنيئة، سوف يقوم أفندينا ومعه الخواجات بالضرب أخيرًا، وبذلك تحل نهاية هؤلاء الوطنيين الأشرار.

مع الدعوة للقدوم إلى الصلاة من فوق منارات المساجد، وعندما تمكنت إشعاعات الشمس من امتطاء وجه السماء كلها، ما عدا غلبة شكل الليل، التي مازالت راكدة تحت شرفات المنازل، نهض مبروك أخيرًا من جوار العمود؛ حيث قضى كل ليلته في ظلام دامس جالسًا وذهب ليغتسل.. صلى صلاة الفجر، ثم عاد إلى مكانه عند الحجر البارز في العمود، وبذهن منتعش متيقظ، أجرى بعض التحسينات على خطته.

أدرك الآن أن فكرة الالتجاء إلى سعيد بك هي فكرة سخيفة وعبيطة، فهذا الرجل العجوز هو مثال حي للرعديد الجبان، وقد أصبح أخيرًا بسبب كثرة إبلاغه عن أخطار وهمية مصدرًا للضحك وإطلاق النكات عليه.. كذلك ليس هناك داع لتسويد سجل عمر أفندي، وإعلان أنه هو المدبر والمخطط لهذه الجريمة النكراء. فالرجل على كل حال كان طيبًا معه. لا، وحياة النبي، لن يكون هناك أي نوع من الخيانة، سوف يذهب بنفسه إلى السيد محمد حافظ باعتباره مندوبًا عن التركي، محفزًا إياه أن يهرب؛ لينجو بحياته من الخطر المحدق به. وما أن يقدم هذا الرجل على الرحيل، ويصبح آمنًا على حياته، يمكن لمبروك أن يتحجج بغياب الرجل، في عدم قدرته على تنفيذ ما طلب منه.

قضت الشمس ساعتين، وهي مرئية فوق تلال الصحراء، والناس يشعرون بأشعتها، وهي مسلطة عليهم، وهم سائرون في الشوارع، عندما اقترب مبروك من منزل السيد محمد. وكان منظره الذي يبدو عليه الإرهاق والإنهاك، مع ملابسه غير المنتظمة سببًا في تأثر خدم السيد، وهم يرونه بهذا الشكل؛ إذ خمنوا أنهم يشاهدون أمامهم ما يفوق الطبيعة، وأخذ أحدهم يهمس للآخر: «لعله شاهد رؤية!»، لذلك قوبل رجاؤه لمقابلة سيدهم بكل ترحاب، وقام أحد الخدم على الفور، وهو حافي القدمين بالدخول إلى النزل لإخطار سيادته، بينما صحب آخر «مبروك» حتى غرفة الضيوف.

- «السلام عليكم».

ظهر الشكل الوقور للسيد محمد حافظ، في مدخل باب الغرفة الباردة المعتمة، قبلما يكتسب مبروك وقتًا، يستطيع فيه أن يسترجع أعصابه؛ إذ قام فورًا وطرح نفسه على أقدام هذا الرجل النبيل، مقبلًا أطراف ثوبه، متدفقًا في سرد حكايته بتأوهات وتوسلات جزيلة، ثم قال:

- «اهرب فورًا يا أمير، هذه هي نصيحة سيدي، اللي يحبك على الرغم من العداوة، لقد حمَّلني أن أستعطف سيادتك من ألا تبقى في هذه المدينة، ولو لساعة أخرى إضافية، لأن لديه معلومات مؤكدة، تفيد أن هناك مؤامرة سوف تنفذ للقضاء عليك، وهناك كثير من الأشقياء منضمين للحزب، وقادة الحزب

لا يتمتعون بقبضة قوية حازمة. باسم الله الرءوف، أرجوك لا تدخر وقتًا! والآن، إذا حدث وعلم أحد أنني وسيدي قمنا بتحذيرك، فسوف يكون مصيرنا القتل، نحن الاثنين! أرجوك، استعطفك، لا تنبس بحرف واحد لأي مخلوق، ولكن أنقذ نفسك.. اهرب الآن وبشكل سري!».

استمع السيد لكل هذا مذهولًا، وليس هناك أي شك في مدى إخلاص هذا الرسول، ومع ذلك، فإنها حكاية غريبة يصعب التأكد منها.. فكر أنه يجب أن يستجوب هذا الشاب أكثر؛ للتأكد من صحة هذه الأخبار الغريبة، إلا أن مبروك، وقد تبع نصح ملاكه الطيب، كرر فقط استعطافات كلها حرارة، ثم قال، وهو ينشج: «أنا عملت اللي عليَّ، وربنا شاهد على كده. أنا برئ من دمك!»، ثم انحنى فجأة على يد السيد وقبَّلها وهرب سريعًا من المنزل.

***

الفصل الرابع والعشرون

لم يتوقف مبروك ليسترد أنفاسه قبل أن يتخطى عدة شوارع، وهو يروغ باستمرار لكي يضلل أي متابع له، ثم ما أن شاهد مطعمًا، حتى دخل طالبًا إمداده بطبق فائض بالفول، ثم أخذ يهزل مع البائع، فقد تفتحت أمامه عوامل الاستمتاع بالحياة مرة أخرى، وبعد ساعة، قضاها وسط أبخرة الطعام الشهي، أشار إلى صبي صغير مارٍ في الطريق، وكلفه برسالة عاجلة إلى بواب منزل السيد محمد، الذي حضر إليه مسرعًا، وعلى وجهه أمارات الاهتمام البالغ.

ما أن اقترب البواب، حتى بادره مبروك بالسؤال: «ما أحوال سيدكم؟».

كانت إجابة البواب أنه لا يعلم شيئًا؛ لأنه بعد انقضاء نصف ساعة من زيارة مبروك الغامضة، بدأ سيادته فجأة في التجهيز للقيام برحلة.

- «وهل سافر فعلا؟».

- «والله ده أمر غير معلوم! هو عمل استعدادات مستعجلة، وأخد معاه تجهيزات بسيطة، ولكنه في نفس الوقت قال لي أنه من غير المتوقع أن يرجع تاني قبل أيام كثيرة».

- «الحمد لله! دي أخبار كويسة»، قالها مبروك، بينما أطلق تنهيدة من الأعماق؛ لذلك طلب البواب تفسيرًا لمسلكه هذا، ولكن مبروك - وهو جالس في مكانه - أخذ ينظر للبواب منتقدًا، ثم باركه باعتباره رجلًا غريب الطباع. وهنا تقدم البواب، وانحنى تحيةً لمبروك ومقبلًا أقدامه، مشيرًا نحوه بعلامات التكريم والتبجيل، مطلقًا عليه ألقاب القداسة والولاية؛ لأنه من الأسلوب الذي لازم زيارة هذا الشاب لمنزل السيد هذا الصباح، وتأثيرها الغريب على الرجل النبيل، رسخ في ذهن هذا العبد أن لهذا الشاب حظوة بالغة لدى العناية الإلهية.

ما أن طلب مبروك من البواب الرحيل، حتى قام دافعًا الحساب وخرج سعيدًا.. لقد خالف التعليمات، هذا أمر حقيقي، وربما يعاني جراء ذلك؛ ولكن أي عقاب سوف يتعرض إليه بسبب ذلك لا يقاس أبدًا بمشاعر الإثم، التي أطبقت على روحه تلك الليلة الماضية. الآن، بفضله، تم إنقاذ السيد محمد من الاغتيال، وكذلك أفلت شاب طيب من ذنب ارتكاب جريمة نكراء؛ لذا سار في الشوارع مسرورًا مبتهجًا بما أنجزه، حامدًا فضل الله عليه.

لكن حالًا، ما أن خفتت أمارت بهجته قليلًا، حتى ضغطت عليه أفكاره تجاه تلك المقابلة الموعودة، التي سوف تجري مع عمر أفندي، فهو يخشى تمامًا تلك النظرة المتفحصة العميقة، التي

سوف تشع من عيني هذا التركي الحصيف، تلك النظرة التي تستطيع أن تربك وتوقع بأمهر الكذابين؛ لأنه إذا شعر عمر أفندي بأن القصة هزيلة أو غير منطقية، فإنه سوف يشتبه في الحال في مدى صدقه، ويزيد بعدها في معدلات استفساراته، ثم عندما يعلم أن مبروك هو الذي أنذر الرجل، فإن انتقامه سوف يكون مهولًا؛ لذا بينما كل هذه الأفكار تتصارع في عقله، شعر أن العرق بدأ ينضح ويتجمع فوق حاجبيه، وكذلك أصبحت خطواته أقل وثوقًا وثباتًا.

في غمرة هذه الأفكار، وصل مبروك إلى شقته، وهناك أبلغه البواب أن زوجته قد وصلت بالفعل حالًا. ثم وهو يطوي درجات السلالم في خضم أحواله هذه، كان في استطاعته أن يسمع صوت زينب يجلجل تأنيبًا؛ وعندما اندفع داخلًا، وجد زوجته مستعدة لأن تضرب زوجة علاء الدين بالقلم على وجهها، تلك التي ظلت مع زوجته؛ لكي تساعدها في ترتيب الشقة، بينما الطفل موضوع فوق كومة من الملابس في الركن، نائمًا بسلام.

ما أن ظهر مبروك في المشهد، حتى حوَّلت دفة غضبها نحوه، وأفرغت فيه كل همومها، صائحة:

"إيه ده؟ كل الناس ضحكوا عليَّ في المحطة، واحد منهم قال «دي بتدور على سيدها، اللي باين إنه هرب منها»، وقعدوا يضحكوا ويتمقلسوا على حالي كتير بصوت عالي وهما ماسكين جنابهم. وإيه البيت ده اللي أنت جايبنا فيه؟ وإحنا على السلالم والبواب العجوز علي لسه بيحط المفتاح في القفل، لقيت واحد ضابط جيش اتقدم ناحيتي، وقعد يتحسس في بغباوة، وحاول إنه يقلعني البرقع، وقعد يلقَّح عليَّ بكلام وسخ.. وحياة النبي ما أنا قاعدة هنا! أول ما أستريح شوية أرجع البلد».

خرجت مسرورة زوجة علاء، وذهبت إلى الغرفة التي استأجرها لها زوجها، لكي يتناقش مبروك وزوجته براحتهما، ثم بشكل مؤلم بطئ الخطى، جاهد مبروك في تهدئة زوجته وتملقها في آنٍ واحد؛ لكي تنظر ببعض الرضا فيما حولها. وأخيرًا هدأت ثورتها واستقرت هذه عند عموميات متنوعة، لم يكن مبروك بارعًا في التعامل مع النساء، ولم يكن بهذا القدر من الحسم والقوة تجاههن؛ بحيث يصبح ذلك الزوج المثالي، فهو دومًا لا ينظر عندما يسير في طريقه، أو ينظر خلفه؛ لكي يكتشف شكل من يتابعه من الأعداء. ألا يوجد مثال صارخ على ذلك، ألم يهمل في البحث عن كنز محمد النوري، على الرغم من أنه يعتبر الوريث الشرعي له بالحق والعدل؟ لقد ترك عملية البحث هذه لآخرين. ولعدة أسابيع، استمر بعض أوغاد القرية في البحث عن الكنز مرة

هنا وأخرى هناك، والآن اتضح أن الشيخ محروس – العدو التقليدي لعائلته – هو الذي عثر عليه؛ لأنه منذ أن تولى منصب العمودية، ترك هذا النذل الجميع؛ ليعلموا أنه أصبح فائق الثراء.

ما أن حل وقت المساء، حتى هدأت زينب قليلا، بحيث استطاع أن يخبرها عما صادفه من متاعب، خلال اليومين السابقين، موضحًا لها مدى خوفه من غضب رئيسه عليه.

هزأت هي من مخاوفه، وأعلنت أنه قد تصرف بكل الحكمة:

- «الراجل سافر، وما حدش يعرف سافر فين. قول إنك قتلته، مين حيقدر يقول إنك كداب، بكده يتبسط سيدك، ويمكن كمان يجازيك بفلوس».

تروَّى مبروك مفكرًا في هذه النصيحة، وأدرك أنها نصيحة موفقة، فهذه الحالة سوف تمنحه فرصة مواتية؛ لكي يؤجل كل شيء إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا، فربما يموت التركي، أو أن يغير فكره تمامًا، بينما هو يعلم يقينًا مصير السيد محمد، ثم - وهو مسرور بعودة زوجته - نام بجوارها طويلًا وعميقًا.

في الصباح، ذهب مبروك إلى منزل عمر أفندي، وهناك رحب به الخدم بإفراط، شاكرين الله على تمام سلامته؛ فقد خامرهم خوف من أنه قد ضاع إلى الأبد. وفي الحال، تم إخطار التركي بوصوله؛ لذا أرسل له لكي يحضر إليه فورًا.

ما أن شاهده، حتى صاح: «الحمد لله أني شفتك من تاني! وحياة النبي، أنا خفت ربما يكون كلامي معاك خوِّفك، ده كان يوجع قلبي لأني بأحبك فعلًا... حسنًا، إيه أخبار السيد محمد». تساءل عن ذلك، وهو يضحك جذلًا.

أحنى مبروك رأسه آسفًا، وخبط كفيه ببعضهما، بما يعني نهاية المسألة، ثم أضاف: «الله يرحمه!».

جلس عمر أفندي فجأة، وأخذ يحملق في وجه تلميذه بعيون بالغة الاتساع: «أستغفر الله العظيم، أنت بتقول إنك... لكن ده مستحيل! أنا كنت أراقبك! أنت ولد خواف، تحب تعطف على الناس، أنت لا حرامي ولا قتَّال قتلة، بس تعمل كده في الهزار! لما كنت بأضحك مع أصحابي عن تمثيلك من يومين، فكرت إني أهزر معاك وأخوفك في نفس الوقت. لكن والله، ده وجع ضميري بعدها بساعة واحدة، وامبارح لما أنت جيت، فكرت إني خوفتك أكتر من اللازم، وإني مش حأشوفك من تاني. مع ذلك، أنت بتقول دلوقتي... الله يرحمه! ربنا يرحمك ويرحمني كمان! لا حول ولا قوة إلا

بالله العظيم! أشهد قدام الله أني كنت بأهزر معاك، وربنا قادر يفحم قلب الشيخ عبد الله، اللي اقترح عليَّ أمثل عليك اللعبة دي. الله أكبر!».

كان اهتمام مبروك حقيقيًّا بهذا الكشف والاعتراف، لقد قضى يومًا وليلة في عذاب مقيم، وجعل أفضل الرجال يهرب بعيدًا، وجاهد في ابتكار الحيل بكل جنون، وحملق في عين جهنم ذاتها – كل هذا لهذا! حقيقي هؤلاء العظماء، لهم طريقة عجيبة في الهزل والضحك، وإن شاء الله ربما يهلك كل الجنس العثمانلي؛ لأنهم وهم يهزلون يتسببون في إلحاق أنكر المصائب على أدمغة الناس.. رفع عيناه بلا اهتمام نحو سيده، ولو كان في يده الآن سلاحًا، إذًا ما تردد لحظة في أن يغمده في صدر هذا المفتري، الذي بلا قلب حيث هو جالس. لكن الأمر الغريب، أنه لم يواجه بنظرات مُفْترٍ بلا قلب، ولكن كان أمامه إنسان قوي يصارع ضد تأنيب الضمير واليأس البالغ.. أخذ عمر أفندي يتلوى، وهو جالس على الأريكة، والدموع تنهمر من عينيه، وتهطل على خديه وشفتيه ترتعدان.

أخذ يتأوه يائسًا، وهو يقول: « ابعد عن وشي الساعة دي أيها التعيس! امشي بعيدًا! استخبى! روح للشيخ عبد الله، يمكن يديلك جايزة».

لقد حصل مبروك على انتقامه، لذا وهو شاعر بالرضا عما يحدث أمامه، وقد استرد شجاعته بسبب ما يراه أمامه من رعب لحق بسيده، وسقط في الحال على قدمي معلمه، وحكى له القصة الحقيقية، لقد كان تهوره هذا سببًا في تدفق الدماء في عروق رأسه؛ مما جعله فاقد السمع لفترة، ولكنه سمع في الحال:

- «الحمد لله! لقد رحل عدونا، الراجل القوي المتكبر! ومع ذلك لم تسفك قطرة دم، ولم ترتكب أي جريمة، إن ضحكي عليك لا يساوي شيئًا أمام ضحكك عليَّ.. استمر يا مبروك كما بدأت، أنت حتوصل إلى أعلى المراتب. وحياة النبي، أنت أديت أعظم خدمة للوطنيين، عشان كده أنا لازم أخليهم يجازوك بكل الخير. من انهارده، أنا أعتبرك زي ابني تمام، ومن انهارده لن استخف أبدًا بذكاء الفلاحين.. لا، أبدًا، وربنا يسامحني».

ثم حضن «مبروك» بقوة.

***

الفصل الخامس والعشرون

في خضم كل هذه الأحداث، لم ينس مبروك أبدًا سعيد بك رمضان، بل كان يزوره مرة أو مرتين كل أسبوع، ويمده بكثير من القصص، التي تؤكد انتشار التذمر، جاعلًا هذا الرجل العجوز يزعق: «ألطف يا حامي الحمى يا رب!»، ثم يصدر من صدره أزيز، ويبدأ في الارتعاش، كأنما هو مقبل على الموت. وفي مقابل هذه المعلومات، كان مبروك يتسلم الهدايا التي زادت مع الوقت في قيمتها، كلما زادت درجة ثقة البيه في أخباره، وبهذا الأسلوب سمع عن تلك المؤامرة، التي دبرت لاغتيال السيد النبيل غير المهم محمد حافظ – وهي مؤامرة شنيعة، لدرجة أنها حتى لم تكن محل موافقة من نفس واضعي خطة القضاء على هذا الرجل، لدرجة أنهم أرسلوا إنذارات سرية للضحية المقصودة؛ مما حقق له أن يهرب سريعًا؛ حرصًا على سلامته.

كانت تلك الأنباء مهمة للغاية، عندما استمع إليها سيادته، لدرجة أنه في ظرف ساعة واحدة من سماعها، سافر بذاته إلى الإسكندرية؛ حيث يتجمع هناك كل رجال البلاط، لقد نفذ رحلته هذه، وهو مضطرب مهددًا بانتقاص أيام بقائه على قيد الحياة. وعند عودته في أمسية اليوم التالي، سارع إلى استدعاء مبروك، وأكد له أن معلوماته مضبوطة وحقيقية. لقد لجأ السيد محمد حافظ إلى المدينة المباركة القدس، ومن هناك أرسل خطابًا إلى أحد الوزراء، أكد فيه كل ما ورد في تقرير مبروك.. في هذه المناسبة، لم يقدم العجوز جعلًا أو حُلوانًا إلى مبروك، بل ومنذ ذلك الحين لم يقدم له أي تعويض، نظير مجهوداته الإخبارية، سوى الوعد بحمايته والعمل دائمًا في مصلحته.

كانت قصة محمد حافظ تلك هي واحدة من عديد من الخطط، التي استخدمها التركي؛ لكي ينشر الرعب في قلوب رجال البلاط؛ إلا أنه كان يستخدم تلك الوسائل بالشكل، الذي تساعده فيها المصادفات التي يمكن تلوينها بطابع الصدق، وقد ثبت أن استخدام تلك الطرق فعال دائمًا، ولأن آثارها أصبحت واضحة؛ لذا تزايد حمد وشكر الله من قبل عمر أفندي؛ بسبب براعة تابعه. وكثيرًا ما تجده محملقًا في وجه مبروك لدقائق معدودات، ثم يقول: «من كان يظن أن هناك شيطانًا وعفريتًا راقدًا تحت هذا الغطاء الخارجي البرئ؟». أما بالنسبة لمبروك، فإن هذا الثناء جعله يصدق فعلًا أنه شيطان وعفريت، وبذلك أصبحت تقاطيع وجهه وتصرفاته هذه الأيام تفصح عن مدى دهائه؛ حيث تتراقص عند أركان شفتيه ابتسامة ماكرة، تغيب بالكاد عن الظهور. وتقليدًا لرئيسه، قام مبروك بشراء مسبحة وتعلم كيف يسبح بها، بعيون خفيضة، عندما يعوزه التعبير بالكلمات، أما حبه للتخفي - ذاك الذي وصمه بالجبن سابقًا - أصبح الآن مولعًا به، عندما امتلأ قلبه

غلًّا، حتى أنه - في مناسبة معينة - اقترض من زينب رداء الخروج، وخرج في زي امرأة، لكنه قبلما يخطو عددًا كبيرًا من الخطوات، تابعته الضحكات؛ لذا رجع مرعوبًا هاربًا إلى داخل منزله.

الآن، ها هو ذا رئيسه دائمًا ما يستقبله بحب وود فائض، موضحًا له التشكيل الكامل للحزب الثوري، ولقد امتلأ قلب الشاب بالعجب والاندهاش من جرأة مشروعاتهم وتخطيطاتهم التي تكشفت أمام عينيه.. كان مبروك حتى ذلك الحين، يظن أنه الجاسوس الوحيد الذي يستخدمه عمر أفندي، إلا أنه اكتشف أن هناك الكثيرين من أمثاله، فلدى التركي عدد من الجواسيس حتى في غرفة نوم الأمير.. جواسيس ضد أعدائه.. جواسيس ضد أصدقائه.. جواسيس على الجواسيس، ويبدو أن كل خطط قادة وزعماء الحركة المشهورين، إما أنها من وحي إلهامه، أو أنه قام بتعديل في مساراتها. استمع مبروك - في لحظة معينة – إلى أخبار عن تلك البعثة السرية إلى مجموعة عرب الصحراء، الذين كانوا على الدوام مصدر خوف لمصر؛ بهدف عقد تحالف معهم؛ وفي زمن آخر، استمع إلى أخبار عن وجود مفاوضات، تُجْرى مع قطاع له تأثير فعال من الأوروبيين كما شاهد أيضًا عملية إزاحة للعلل والأمراض وسلبيات المجتمع، التي كان ينظر إليها باعتبارها من الأمور المعتادة، سمح بوقوعها الله، ووضعها جميعًا على عاتق الحكومة عن طريق الشكوى والتذمر؛ وهو مقتنع بمدى دهاء عمر أفندي، لقد أصبح الآن مولعًا تمامًا بخدمته.

أن تظل غالبية المواطنين غير مهتمين بما يحدث، فهذا من الأمور المتوقعة ولا يسيء لأحد، لكن أن يصبح الجيش بأكمله، ومعهم رعاع الشعب، هنالك يحصل الإصلاحيون على كل الثناء من طائفة علماء الدين وكبار البلد، وبذلك يصبح قادة الثوار هم سادة مصر بلا منازع.

في المدينة، على وجه العموم، كان هناك شعور سائد من أن تداخلات الكفار مع الحكومة، التي تحكم وتهيمن على أرض مسلمة، أمر ينطوي على كامل العقوق، الذي لا يمكن تبريره؛ وأن رياض باشا ومجلس وزرائه ليسوا محبوبين، ودائمًا ما ينظر الناس إليهم باعتبارهم مخلوقات من الجنس الفرنسي أو الإنجليزي، ومؤخرًا تم إهمال مجلس الأعيان، أما أعضاؤه - وهم يشعرون بالحزن بسبب فقدهم لأهميتهم في أعين أفراد الشعب - فقد كانوا جميعًا يتوقون إلى إعادة سلطاتهم السابقة المفقودة.

لكن في أيام إسماعيل باشا، عندما ساد الفساد كل الأنحاء، كان كثير من الناس يتذكرون هذه الأيام باعتبارها العهد الذهبي، وكانت فئة الشباب والطامحون يكرهون ويستهجنون تلك السطوة المتمكنة، التي يتعالى بها الأتراك، ويكرهون كذلك احتكارهم لأكبر المناصب في الدولة. هذا مع

أساب أخرى، استطاعت تلك أن تمنح الفلاح – الجندي، الذي يقف زنهارًا مناديًا «مصر للمصريين» لمحة من السحر والقبول في أعين الكثيرين، ممن هم خارج نطاق الجيش، إلا أن تأييدهم هذا كان تأمليًّا واستسلاميًّا بالكامل؛ لذلك، وبهدف تحميس الناس، كان من الضروري إقناع كل فرد أن تغيير الحكومة سوف يعود عليه بالنفع، أو أن البدء في حركة ثورية رهيبة سيجعل العالم كله منكمشًا على ذاته.

رأى مبروك وشاهد كل هذا منطبعًا وواضحًا في أعين رئيسه، بأكثر مما قد يبعث السرور في قلبه؛ فاستعمال نفس طرق القياس مع الأصدقاء كما الأعداء، ذلك النهج الذي كان عمر أفندي ملتزمًا به، أصبح في نظر مبروك غير مبرر. وفي الحقيقة، بينما كان التركي يعمل بكل حماس، لا هوادة فيه في خدمة الثورة، إلا أنه من داخله كان يسخر من أهدافها، وبكل ما تسعى لتحقيقه، إنه لا يقدر أحدًا في مصر، ما عدا الخديوي بالطبع وبعض الأتراك الآخرين بسبب جنسهم، وهم الذين كان مضطرًا أن يكون معاديًا ومعارضًا لهم، ولم يصدم مبروك كثيرًا وهو يرى مدى ازدراء الرجل لأبناء النيل، أكثر من غضبه بسبب كشف هذا الرجل العظيم للدوافع، التي تقف خلف حماس أعز أصدقائه، وهذا، بالتأكيد أمر متروك لله. كان يلزم لهذا العثمانلي أن يعامل الأصدقاء والأعداء بنفس درجات المعاملة، وأن يحتفظ بصوابه في درجات اليقظة، وسط هذا الحماس الزائد.

في نظر كل أبناء النيل، كانت تلك أيامًا مشحونة بكل الإثارة المنهكة، في تقلب وتغير وسط تكهنات وظنون كلها جنون وغموض، لم يجرؤ فيها إنسان أن ينظر لما أبعد من لحظته، وكان كل حدث صغير يتم تضخيمه؛ ليصبح مرعبًا ومريعًا. وعند وقوع حادثة معينة في الإسكندرية، هذه أزعجت وأججت مشاعر كل طوائف الشعب مهما اختلفت توجهاتهم، وحملت معنى لا يخطر على بال أحد في أيام الهدوء والسلم هذه؛ فقد تعرض أحد جنود المدفعية هناك إلى أن تصدمه عربة يقودها تاجر أجنبي، لذا حمله زملاؤه وتوجهوا به إلى قصر التين طالبين تحقيق العدالة، فقام الخديوي بالحديث معهم بكل لطف، واستطاع أن يسكِّن من غضبهم. لكن بعد عدة أيام، عندما نسي الجميع ظروف الحادث، قام الخديوي بتقديم زعماء هذه التظاهرة إلى المحاكمة بتهمة التمرد، وتم الحكم عليهم مشددًا: تم الحكم على ضحية الحادث بالسجن المؤبد، أما الثمانية الذين حملوه، فقد حكم على كل واحد منهم بثلاث سنوات سجن، ثم تبع ذلك ترحيلهم للخدمة في السودان المريع.

لذلك قام عبد العال حلمي، وهو أحد قادة الثوريين، بإرسال احتجاج عنيف ضد هذا الفعل إلى وزير الحربية، محمود سامي، معلنًا غضبه من هذه المعاملة غير الإنسانية؛ أما عرابي والباقون

فإنهم صاحوا «خيانة»؛ أما عبد الله نديم، في جريدته «الفسطاط»، فقد توعد هذا الطاغية، وساد في العاصمة نوع من اليقين بأن نهاية الأمور على وشك الوقوع، وقد زاد من وقع ذلك حدوث كل هذا في شهر رمضان – رمضان صيفي – حيث خفتت صيحات الشارع، وأصبح الشخص العادي سريع الغضب، وهو يشعر بالعطش ومعدته فارغة. لكن كل هذا كان له تأثير عكسي عما هو مطلوب؛ إذ أيقظ عوامل الخوف في قلب الخديوي، لذا سارع باتخاذ خطوات أكثر صرامة من المعتاد؛ حيث قام باستدعاء مجلس الوزراء ليوافيه في الإسكندرية، ومن هناك تم طرد محمود سامي، صديق عرابي من وظيفته كوزير للحربية؛ واتخذت بعض الإجراءات، التي تكفل إسكات وإخراس تلك الصحافة المارقة.

حاول عمر أفندي - وهو يضحك بسبب الرعب الذي أصاب قلوب الوطنيين - كمثال لهم أن يعيد إليهم الثقة في أنفسهم، فقد أتى الدور الآن على عرابي لكي يصاب بالذهول المرعب، فإذا استطاع محمد توفيق أن يؤكد سلطته، فمصير كل من أحمد عرابي وبقية زملائه هو الموت، إلا أنه كان هناك شيء ما لاحظه المراقبون: هناك ما هو زائد ومحموم في تصرفات وتكتيكات الخديوي، بما يوحي أنه مرعوب فعلًا وليس مستقرًّا في مركزه؛ مما جدد الأمل في قلوب المخططين، ورسم في ذهنهم أنهم إذا قاموا بحركة جريئة، فهذا يحقق لهم إمكانية استعادة السيطرة، مع جعل مليكهم خاضعًا لهم ومطيعًا .

لمدة شهر لاحق، استمر عرابي وأصدقاؤه في عقد تلك اللقاءات الليلية؛ منفذين خطوات مشروعهم تدريجيًّا، وفي ذلك الحين، صدرت الأوامر باستبدال فصائل من الجيش ما بين الإسكندرية والقاهرة، إذ تم استبدال فرقة موثوق بها بأخرى ما تزال موالية للخديوي، وهنا أصبحت خطتهم في أوج ازدهارها، حيث تم تجاهل تنفيذ تلك الأوامر، وراجت السخرية بها بشكل علنى، وقام عرابي بإرسال قائمة بشكاوي أفراد الجيش ضد الحكومة إلى كل فرقة عسكرية؛ بحيث لا يغيب عن نظر أي جندي مقدار الظلم الواقع عليه.

في ذلك الحين، في أمسية رائقة، قام مبروك باللحاق برئيسه في منزل معين؛ حيث جلس أحمد عرابي وسط زملائه، يتشاور معهم، وهو جالس على مقعد حول مائدة، في راحة كاملة.. لم يعجب مبروك كثيرًا بما انطبع على وجوه كل هؤلاء المتآمرين من مظاهر الجد والأهمية، ولا بتلك التحيات الحارة، عندما وقفوا جميعًا لكي يحيوا العثمانلي.. كان ذلك الجندي – الفلاح رجلًا طويل القامة، جسيم البنيان، رزين المحيا ثقيلًا، لكنه يتمتع بطباع حضارية، وله ابتسامة جذابة. وكان

يجلس بجواره طلبة عصمت، ذاك الذي يبدو في عين مبروك كأنما هو الثعلب الذي يقود الأسد.. قام عمر أفندي بتقديم مساعده قائلًا: «يا عزيزي، ألم تشر من قبل إلى أنك ترغب في مرسال، وأنا أقدم لكم هذا المكار، الذي يعمل في خدمتي، وهو إنسان موثوق فيه تمامًا».

قال طلبة، الذي وضح عليه أنه في حالة من الاستثارة الزائدة: «أعطه الخطاب الموجه للقلعة، ودعه يسرع بذلك، لقد باعنا رياض وزملاؤه للإنجليز». ثم أضاف ليؤكد عنصر العجلة: «وبالطبع، الثمن معروف».

أشار أحمد عرابي إلى مبروك ليتقدم نحوه، ثم تحدث معه بكل لطف، وهو يناوله الخطابات.. تقدم الشاب وقبّل تلك الأيادي الكريمة، وسارع بالخروج ليؤدي مهمته.

كانت هناك أحداث جسام، قد آن أوانها ونضجت، لقد أدرك عرابي وطلبة وعبد العال أن الوقت قد حان لكي يقدموا عرضًا، يدل على مدى قوتهم؛ لذا قام هذا الزعيم بإرسال خطاب إلى الخديوي، مخطرًا إياه أنه، في الخامس عشر من شوال، بإذن الله، سوف يزوره الجيش في قصر عابدين؛ لكي يعرضوا على جلالته مطالب عادلة، كما كتب أيضًا خطابات موجهة إلى قناصل الدول الأجنبية، طالبًا منهم عدم الخوف، مادام التظاهر سوف يكون في مظهره حضاريًّا وبشكل لائق.

أعرب عمر أفندي عن استهجانه لسلوك هذا السبيل، الذي يخبر عن القيام بإجراءات مهمة بالطبل والزمر قبل الأوان، وعبر عن ذلك ساخرًا، بأن هذا العمل يليق بفلاح، عندما يبتدع لنفسه دورًا بكل هذه الجدية، ثم يرسم على وجهه قناعًا كله كرامة وعزة نفس، تجعل السلطان التركي ذاته يغرق في الضحك، عندما يتخيل هذا المنظر، فمن المرغوب أن تكون الضربة فعالة، بل ويجب أن تكون فجائية. وبالتأكيد، فإن كل هذه المباهلة ربما خطط لها أحد الخواجات غير المهتمين أو يشعرون بالمسئولية وهكذا، ولكن على أية حال، وافق التركي أن يعير مبروك؛ ليكون في خدمة هؤلاء المتآمرين، وأظهر تساهلًا، وهو يرى مدى حماس ذلك الشاب.

في صباح يوم الخامس عشر من شوال، عندما خطا مبروك داخل منزل التركي كالمعتاد، شاهد سيده مرتديًا ملابس الخروج، الذي قام حالما رآه بتناول يده، وقاده إلى الأمام قائلًا: «أنت بالطبع لن ترضى أن يفوتك هذا المشهد، هذا أعلمه جيدًا، سوف نذهب معًا».

كانت تلك هي المرة الأولى، التي فيها يتم تكريم مبروك بهذا الشكل، لذا وهو في كامل مسرته، شعر أنه يكاد أن يختنق بما حازه من تشريف وتكريم.

اليوم هو يوم الجمعة، يوم الأجازة الأسبوعية، ودائمًا ما يحرص سكان العاصمة على متابعة مشاهدة أي عرض شائق؛ لذا تجمع خلق كثير – ملأوا ميدان قصر عابدين، وانشغلوا بالنقاش مع بعضهم البعض، كأنهم حقل من نبات القمح يتسامر مع هبات النسيم، كما كان باعة المياه والمسليات يخطرون ببطء وسط الجموع، ولكن ما أثار استياء مبروك هو قيام رئيسه بالاختلاط بهذا القطيع من الناس، كان يتمنى أن يتمتع بالاندماج وسط مجموعة من الأفاضل، حيث تتبدى العظمة والكل يلاحظه، وتعاظم هذا الأسى عندما شاهد علاء الدين، بائع الحلويات، ينادي على بضاعته، ثم يتوقف للحظات لكي يتحدث معه، غير منتبه إلى الرجل العظيم الواقف ملاصقًا له.

كانت الطلبات التي سوف يتقدم بها أحمد عرابي معروفة، ويتم تناقلها بكل حرية بين الجمهور المتفكه، أولها: ضرورة قيام الوزارة بتقديم استقالتها، وطلب زيادة عدد أفراد الجيش، وكذلك ترقية أعز أصدقائه لا سيما طلبة، ونقض الأحكام التي تسيء إلى سمعة وشرف الجنود المصريين، وإحياء دور مجلس النواب، والاستغناء عن خدمات شيخ الإسلام، وكان لكل طالب من هذه الطلبات عدد من المؤيدين أو المعارضين، وسط هؤلاء المبتهجين المتفكهين؛ لذا احتدت المناقشات وسط هذا الرهط من الضاحكين.

وسرعان ما، بدأت القوات في الوصول، وأخذ المتفرجون في تسمية قادة كل أورطة تظهر عندما يتعرفون عليه.. وصلت أولًا فرقة الفرسان بقيادة أحمد بك عبد الغفار، بعدها قدمت فرقة أحمد عرابي، وتلتها فرقة من المدفعية بقيادة إسماعيل بك صبري.. إنه جيش يتكون من ثلاثة آلاف جندي وضابط، تبرق أسلحتهم في ضياء الشمس، تجمعوا كلهم أمام قصر عابدين؛ حيث كان معلومًا أن قناصل القوى الكبرى وكل الوزراء مجتمعين الآن مع العاهل، ثم تنامى الهمس والتمتمة؛ لقد ظهر الخديوي محمد توفيق عند مدخل القصر، والقناصل الأجانب خلفه.

أصدر هذا الرجل بعض التعليمات، استطاع الجمهور أن يتفهم فحواها؛ لأن عرابي سار وهو يمتطي جواده حتى باب القصر، جالسًا منتصبًا فوق صهوة حصانه، شاهرًا سيفه، وحوله ثمانية من الضباط الكبار، مماثلين له، ممتطين جيادهم، شاهرين سيوفهم. قام القائد بأداء التحية، ولكن مع طلب من الخديوي، قام بوضع السيف في غمده وترجل، وأخذ الخديوي في النقاش معه، بينما القنصل الإنجليزي يقف بالقرب منهما – وهي ظاهرة بسيطة من الوقاحة، التي توضح للجمهور برهانًا على أن مصر قد بيعت للإنجليز.. تراجعت بعد ذلك كل مجموعة العظماء، ودخلوا القصر، وأصبحوا بذلك بعيدًا عن أنظار الجماهير.

همس عمر أفندي في أذن مبروك: «ليس هناك ما يمكن أن نشاهده الآن، سوف نسمع عن النتائج من بعيد، إذا رغبت، يمكن أن نسيب المكان هنا، ونشرب وناكل حاجة».

لذا قام أفندي وهو يجاهد؛ لكي يستخلص نفسه من ضغط الجماهير بلطف - بقيادة مبروك إلى مطعم ممتاز، هو مقصد كل عظماء البلد، فيه أُولِم الشاب بعض المأكولات، التي لم يذق لها مثيلًا من قبل. كان هناك عديد من الباشاوات والبكوات يجلسون وسط خلصائهم يأكلون.. لاحظ الجميع رفيق التركي، وكانت تلك أكثر الأيام رخاءً في حياة مبروك.

بعد ثلاث ساعات، سُمعت صيحات تتردد في الشارع، ثم اندفع أحد عبيد واحد من الباشاوات، وهو ينهج، إلى داخل المطعم، لكي يخبر الجميع الأنباء عن سقوط الوزارة، وأنه تم ترقية طلبة، وأن الخديوي قد أقسم أنه سوف ينظر بعين الرعاية إلى بقية الطلبات، وسوف يفعل ذلك بعد استشارة السلطان التركي؛ لكي يوافق على طلب تلو الآخر، كما يراه جلالته مناسبًا من الناحية السياسية، وقد تم تكليف شريف باشا بتكوين الوزارة الجديدة. حمد الكل الله خوفًا من اندلاع المتاعب والقلاقل، وكان من الممكن سماع صوت الموسيقى، التي تعزفها إحدى الفصائل من بعيد، بينما تتحرك بقية الفرق العسكرية، عائدة إلى ثكناتها مرة أخرى.

خاطب مبروك رئيسه والدموع تفر من عينيه بحماس متقد، قائلًا: «ما أفخر به من شأن هذه العملية، هي الطريقة الحضارية، التي تمت بها.. هنا لم نشاهد تبادل الشتائم الفاحشة أو الإهانات، فكل شيء تم بطريقة مؤدبة، كما يقال أن عرابي لم يطلب شيئًا لنفسه، ولكنه كان يتحدث نيابة عن الجيش ومجلس الأعيان. والله شهيدي، يا لها من عظمة! يا لها من خطة إستراتيجية باهرة!».

قال التركي ضاحكا: «من الواضح أنه كان ماهرًا، ولكن ما يزال هناك لديه عرق تصديق بالغ القوة يتشبث به ، وده اللي حيخرب بيته.. أكتر من كده، هو سوف يطالب بما يرغب فيه خليفة النبي، بدلًا من أن يقدم أذنيه للاستعانة بتحليلات بعض الخواجات الكفار».

ظل مبروك صامتًا، احترامًا للرجل، ومع ذلك - بعد كل مظاهر استعراض القوة التي حدثت هذا اليوم - لم يعد هناك شك في ذهنه أن عرابي هذا أنبل إنسان حي، على ظهر الدنيا كلها.

***

الفصل السادس والعشرون

في تلك الأمسية، وطبقًا لاقتراح من سيده، ذهب مبروك إلى قهوة معينة، تعتبر ملاذًا للناس الهادئين؛ لكي يستمع إلى ما يدور من أحاديثهم. كان كل الزبائن يجلسون على مقاعد في مكان مفتوح بجوار الشارع، بينما انشغل صاحب القهوة وصبيانه في الخدمة خارج وداخل القهوة، التي كانت ملاصقة لجدار عالٍ لمسجد ضخم.. كانت هناك لمبة معلقة على مدخل القهوة، تمثل مع اللمبات التي يحملها المارة كل الإضاءة للمكان، ما عدا تلك الإنارة الصادرة من القمر، ولكن الحائط العالي للمسجد منع ضوء القمر من السقوط فوق هذا الجمع.

كان هناك عدد من الرجال يتناقشون، ناظرين إلى كل هذه الأفكار الجديدة، باعتبارها كلامًا فارغًا؛ هكذا أيضًا كانت فكرتهم عن الملابس والأساليب الإفرنجية المستحدثة، إنها جميعًا ليست سوى نوع من التكلف الممجوج؛ أما الحديث عن أسباب التقدم والرقي، فهذا كله ليس إلا نوعًا من النكات البائخة.. هذا أمر إذا حكمنا عليه بأنه نافع ومفيد، لكننا لا نوصي باتباع نهجه؛ ثم تقدم بعضهم بسؤال عاجل: هل هذا كله يرضي الله ويتسق مع تعاليمه؟ وهل هي تقاليد صائبة؟ أم لعلها جميعًا قد تكشفت في حلم لأحد السادة العظام في البلد، أو لكل من يهدف إلى تحقيق طموح معين؟! كانوا يبتسمون بكل إشفاق، وقد امتلأت قلوبهم باحتقار رزين لكل هؤلاء العظماء، الذين نطلق عليهم هذه التسمية في العالم.

كانوا في تلك الليلة حريصين تمامًا في أحاديثهم المتبادلة، كرجال متشككين من الركون والاعتماد على أحكامهم، فلم يعلم مبروك شيئًا منهم، أو من غيرهم، حتى اليوم التالي، عندما قام - باقتراح من عمر أفندي - بالسير في ركاب جنازة ضمن المشيعين، متجهين إلى الجبانة الجنوبية. الفقيد هو رجل غني محترم، كان يعتبر ضمن الوجهاء المتعلمين؛ بسبب سفرياته المتعددة، وصواب فكره ورجاحة عقله؛ لذا تبعه في مثواه الأخير أذكى وأفضل الرجال الصالحين، وظلوا داخل الصّوان (سرادق العزاء)، حتى بعد حلول الظلام، يستمعون إلى ما تيسر من آي ذكر الحكيم، ويتشاركون فيما يقدم لهم من منعشات.

بعدها، عاد مبروك إلى قلب المدينة، مسترشدًا بأضواء النجوم مع جمع من الناس، كان يعتبر غريبًا وسطهم. ومن ملابسه ومظهره، حكموا أنه مماثل لهم، رجل له حيثية ولا خوف منه، لقد كانوا جميعًا يلعنون عرابي وهم سائرين، سائلين الله أن يقوي من عضد توفيق ويسنده؛ لأن نجاح

عرابي يعني خضوع البلاد مرة أخرى إلى حكم العسكر، كأنما هي عودة إلى الأيام السيئة القديمة، التي فيها حكم مصر بهوات المماليك، وكون كل مملوك عظيم جيشًا خاصًّا به، يحارب به زميله. أما بالنسبة لعرابي، كما أعلنوا، فهو إنسان طيب، ولكنه ليس ماهرًا أو قاسيًا؛ بحيث يستطيع أن يضبط تمامًا قواته هذه التي استدعاها للتحرك؛ إذ كانت آمالهم تنحصر في أن يقوم السلطان العثماني بالتدخل؛ ليمنع إمكانية هيمنة عنصر الخوف والرعب في قلب الشعب.

عندما حكى مبروك كل هذا لعمر أفندي، قام الأخير بحك أنفه، وبدا عليه أنه مسرور مما يسمع، ثم قال إن كل مدعٍ للعلم من هؤلاء على حق، عندما فكروا في أهمية وضرورة اللجوء إلى إسطنبول للحصول على الخلاص، وأن السلطان سوف يبادر إلى إنقاذهم، إلا أن كل هذا لن يتم قبل تنحية الخديوي عن الحكم، وبعدها سوف يتمتعون بقولهم الشائع «مصر للمصريين».

نتيجة للوقفة التي تمت في ميدان عابدين، تم ترقية أحمد عرابي وبعض زملائه وحصلوا على أعلى المناصب، ورحل الزعيم نفسه إلى جهة رأس الوادي؛ حيث استغل كل وقته في بسط نفوذه بين عرب الصحراء – وهو سبيل، إذا وصل نهجه إلى أسماع الخديوي، فإنه سوف - وهذا ما يعلمه جيدًا - يستدعيه على الفور؛ للقدوم إلى العاصمة في الحال. قيل لمبروك أن ينشر واحدة من عباراته البارعة في أذن سعيد بك رمضان وآخرين من طائفة الثرثارين، معلنًا أن هناك احتمال نشوب ثورة، يقودها العرب، إذا ظل عرابي هكذا بعيدًا عن المشهد، كأنما هو مستبعد.

في مناسبة مثل هذه التكليفات، كان مبروك مضطرًا إلى أن يظل لعدة أيام خارج منزله، وبناء على طلبه، كانت زوجة علاء الدين تحضر؛ لكي تجلس وتسامر زينب كل يوم، وعلاء الدين نفسه يحضر أيضًا، إذا وجد وقتًا؛ لكي يصطحب الطفل، الذي يحبه، ليخرج به ليشما الهواء. كانت زينب أولًا تشكو كثيرًا من سفالة جارها الشركسي، وتقول عنه أنه عندما يقابلها على السلالم، يحاول أن يمسك بها، وأثناء عبوره على باب شقتها، ينطق ببعض الكلمات الغرامية. تأكد مبروك من أوقات ذهاب وإياب هذا الرجل، وطلب منها أن تتجنب الخروج في هذه الأوقات، وأن تجعل أبواب شقتها موصدة تمامًا، كما شاركه البواب النوبي أيضًا انزعاجه، وأقسم أنه سيراعي أن تتحرك الزوجة، دون أن تتعرض لأي مضايقة. ومنذ ذلك الحين توقفت شكواها، وشعر مبروك بالراحة لذلك.

لكن في صباح يوم في موسم الفيضان، وهو عائد إلى منزله في وقت غير متوقع، سمع وهو عند بداية السلالم صوت زوجته توبخ ذكرًا، مخاطبة إياه أنها سوف تهزأ به إذا فعل ذلك مرة أخرى،

وهذا الحديث المسموع تابعته ضحكة صادرة منها. كان مبروك قد قيل له أن يستعد للقيام برحلة إلى الإسكندرية؛ لذا أحضر معه علاء الدين والحمال، لكي يساعداه في نقل احتياجاته، وما أن سمع صياح المرأة، حتى سبق الرجلين على السلالم، وعلى البسطة وقفت زينب، برقعها منزوع، تنظر في اتجاه الدور الأعلى، حيث يسكن الشركسي. بانت عليها أمارات الارتباك، ولم تقاوم «مبروك»، وهو يقبض على ذراعها بعنف ويدفع بها إلى داخل الشقة لكي يؤدبها؛ حيث أمسك بعصا وأخذ يضربها عنيفًا، قبلما يستطيع علاء الدين والحمال منعه.

أخذت تصرخ: «والله، والسيد البدوي، أنا ما عملت حاجة غلط! امسكه يا علاء الدين كويس لبعدين يقتلني، ده اتجنن! وممكن يقتل ولده ويحل عليه غضب ربنا. دي غلطة الفاسق المجرم اللي فوق، شد برقعي من وشي، في نفس الوقت قال كلمة ضحكتني، بكده كنت غضبانة وضحكانة في نفس الوقت».

- «انتي كدابة يا ملعونة!» ثم بصق عليها: «الله شهيدي، أنا حأطلقك، انتي طالق بالثلاثة!».

صاح علاء الدين مرتعبًا: «إيه الكلام ده؟ استغفر الله! الطلاق ده موضوع خطير. لكن ما فيش شاهد عليك! إحنا ما سمعناش حاجة، مش كده يا عم؟».

أجاب الحمال، وهناك ابتسامة قلبية على شفتيه: «لا سمعنا صوت،
ولا سمعنا كلمة».

صاحت زينب: «أهو طلقني بالتلاتة، ومبروك نطق بيها! هو مش أنا بنت ناس عشان يعاملني بالشكل ده؟ أبوه دفع فيّ مهر ستين جنيه، والكل لازم يعرف كده، وربنا يعلم إني ما غلطت في حقه أبدًا».

كانت هناك نبرة صدق وإخلاص في حديثها، جعلت «مبروك» يشعر بالخجل من نفسه، ومن تهجمه غير المعقول؛ لذا كان يجمع احتياجات السفر بكل هدوء. عندما غادر كل من علاء الدين والحمال، ظل هو للحظات طالبًا منها السماح والغفران، ثم أعطاها نقودًا لتصرف على نفسها أثناء مغيبه، الذي ظن أنه لن يطول، ولكن ردودها لم تكن واضحة.

***

الفصل السابع والعشرون

في ذلك السوق المزدحم بالإسكندرية، ما بين البحيرة الساكنة والبحر العجاج، ظل مبروك يومًا بعد آخر تحت تصرف سيده، الذي لم يكن متعجلًا للرجوع إلى المحروسة، ولم يخف التركي هدفه من هذا التأخر، المرتبط بوجود بعثة ينتظر وصولها إلى ميناء الإسكندرية، آتية من قبل الباب العالي، خلافًا لنصائحه؛ لكي تكسب إلى صفها مشاعر الوطنيين المصريين – إنها ليست سوى خطة مزيفة، سوف تؤدي إلى تخفيض قيمة وسمو السدة (الهيبة) السلطانية في أعين ناس مصر دون أي سبب عاجل، مادام أن الثمرة لم تبلغ بعد درجة النضوج الكامل.

كان من رأي عمر - الذي تأسس ونضج وهو في مركز الأحداث - أنه كان واجبًا على السلطان أن يترك المتمردين وشأنهم، يؤدون مقاصدهم دونما تقييد، ثم عندما تسود الفوضى، ويبدو كل العالم منزعجًا مما يحدث في ولاية مصر، يتقدم هو بكل نبل؛ لكي يضع الأمور كلها في نصابها، فقد كان يرى أن هذا التدافع الحالي الذي تبديه الحكومة السلطانية، سوف يؤدي إلى خيبة وسقوط كل المشروعات والخطط الموضوعة؛ مما يدعوه لأن يغضب كثيرًا. أيضًا، انتقد التركي تصرفات عرابي الوقحة، التي قال إنها أصبحت خلال الأسابيع القليلة الماضية، غير محكمة؛ لكن هذا، كما تفهمه مبروك، ليس إلا نوعًا من الغيرة من قدر النفوذ، الذي حازه الرجل بفضل تدخلات بعض الخواجات.

كما تنبأ عمر.. عادت البعثة التركية إلى بلادها محبطة، ولكنه مع ذلك لم يتزحزح عن مقامه في الإسكندرية، وظل في خدمة أهداف الثورة، ولكن بكل تكاسل. وبشخصية ديدنها التفكير الحر المتنور، أخذ عمر يتزلف الأجانب من اليونانيين والسوريين، الذين كانوا في الواقع هم سادة الميناء والمسيطرون على كل حركة التجارة هناك، فقد كان يستقبل ويزور هؤلاء الكفار بشكل يوحي بكمال التوافق والتساوي، وعندهم شرب وأكل كل ما هو محرم، مع أسوأ من فيهم؛ ولكي يتوافق مع هذا المنعطف الجديد، جعل مبروك يرتدي الملابس الإفرنجية ويخلع عمته.

مع قدوم فصل الشتاء، قاسى مبروك كثيرًا من مشاكل البرد؛ حيث تزداد هناك نسبة الرطوبة والجو ملئ برائحة المياه المالحة، التي ليس لها نظير في أي مكان آخر، لقد كانت الحياة في تلك المدينة عير مريحة في نظر مبروك؛ لما قدمته له من مشاق ومتاعب وعديد من المهام والرحلات التي لا تنتهي. وفي يوم غامر، امتطى هو ومعلمه ظهر مركب مفتوح، سار بهم فيما بعد كاسر

الأمواج. كان مبروك يكره البحر؛ لذا رقد في قاع المركب، وأخذ يتلوى، داعيًا الله أن ينجيه ويقيله من هذا العذاب، كان وضعه كأن هناك جنيًّا يلعب في بطنه بملعقة، بينما هناك رهط من هؤلاء موقعهم تحت المركب، يهزونها ويدورون بها. بعد هذه التجربة، أعلن مبروك كامل تقديره وإعجابه بتصريفات ورحمة الله، الذي خلق لنا الأرض الصلبة، حيث أمن بها للإنسان مقامًا سعيدًا، أفضل كثيرًا مما تعانيه أسماك البحار.

كان مبروك يسكن مع معلمه في قصر، يقع على شاطئ منطقة الرمل، وقد وُضِعَ هذا القصر تحت تصرف عمر أفندي، هدية من أحد المشهورين في البلد؛ لذا أصبحت كل مهام مبروك الآن لها طبيعة السكرتارية وكتابة الخطابات، التي كانت معظمها تُملى عليه باللغة الفرنسية، تلك اللغة التي يجيد التركي التحدث بها، ولكن لا يحسن كتابتها.

كانت مهمة عمر في الإسكندرية هي أن يخيف التجار الأجانب، حيث إن الرعب الذي سوف يرتسم على وجوههم، يجعل الأهالي من الجرأة بحيث يمكن أن يضربوهم ويسيئوا إليهم. لكن مبروك – وقد كان إلى حد ما سعيدًا بهذه اللعبة الجديدة - اشتاق إلى الحرية التي كان يتمتع بها في العاصمة، وتمنى أن يرى زوجته وابنه مرة أخرى. أكثر من ذلك، لم يعد المال ينساب بين يديه كالسابق؛ فرئيسه الآن يتعامل مع الأجانب، الذين لا خلاق لهم. إلا أنه بنوع من التعويض، أصبح الآن الصديق الرئيسي لسيده، يزامله في كل خروجاته، ويأكل على مائدته. كان عمر أفندي يتعطف ويتعشى، بل ويرقص في بيوت أصدقائه من التجار الأجانب، ثم عندما يعود متأخرًا ليلًا من حفلات المسخرة هذه أحيانًا، يقوم بإيقاظ تلميذه؛ لكي يحكي له حادثة طريفة:

- «والله يا مبروك، البنات عندهم حاجة فل الفل! الليلة دي وإحنا بناكل، جلست جنب واحدة منهم – بنت بنوت وحياة النبي! زي القمر في تمامه، ولو كانت تحت طوعي أو طوعك، لكان علينا واجب نخفيها عن العين، ونحوِّط مكان قعادها بحراس خرس من الطواشي. لكن ناسها خلوها تقعد جنبي، رُكَبنا لازقة في بعضها.. هي عبارة عن جوهرة، لؤلؤة، تستاهل الواحد يقفل عليها في بيته! وحياتك، شعرت إني خجلان عشانها، يا سلام على الجمال، يا سلام على الحلاوة! لكن كل الخواجات زي بعض، ما يعرفوش معنى الأدب. في مرة كنت في باريس، هناك شفت العجب العجاب؛ حيث هناك العاهرات يتوجون، المغنيات والراقصات، اللي مش قد كده، اللي يمكن إحنا نتسلى بيهم، تلاقيهم هناك ليهم تقدير عظيم، ويتعاملوا كأنهم أميرات».

كان مبروك يقدر هذه الثقة في ذاته، أكثر من اطلاعه على أسرار الدولة، وهذه كلها ساعدت في تليين عواطفه تجاه التركي؛ فهذا كله يوضح أنه بالفعل إنسان. في صباح يوم، عندما كانا منشغلين في مثل هذه الأحاديث، جازف مبروك وقدَّم لرئيسه رواية شارلاس وكاميل، التي كان ما يزال محتفظًا بنسختها، ثم أخذ يعتذر بسبب رداءة حالة النسخة، التي معه، فقام سيادته بشكر تلميذه، وأخذ يقرأ في القصة بنهم.

بعدها قال سيادته لـ«مبروك»: «والله، هي نفس الحكاية! هما بنفس الطريقة يدلعوا حريمهم. تصور خطوبة تستمر أكتر من سنة، بينما العلاقات العاطفية مستمرة بين الطرفين! والرجالة هناك يتحملون ذلك. ده يبين قد إيه هما دمهم بارد، الحريم يستغلوا كسوفهم ده ويركبوهم بنفس الطريقة اللي بتحصل هنا، همّا عبارة عن جنس ملعون ومجنون!».

ثم متشجعًا بنجاح هديته، ومزاج سيده الطيب، تجرأ مبروك على أن يذكر له حاجته الملحة للمال لكي يستطيع أن يعول زوجته وابنه؛ إذ خشي أنه ربما يغضبه هذا الطلب، ولكن رئيسه تقبل ذلك كأمر طبيعي، وبعدما تأكد من قدر ما هو مطلوب، قدم له النقود في الحال، وبينما انهمك مبروك في بذل مزيد من تشكراته للتركي، قام هذا بأسلوبه الساخر، راجيًا منه أن يدخر بعضًا من فيض تشكراته لمناسبات أخرى قادمة، إلا إذا كان قد حاز الآن كل احتياجاته من المال، وهذا بالطبع غير متوقع.

خصص مبروك ثلثي المبلغ الذي حصل عليه؛ لكي يرسله عن طريق البريد إلى علاء الدين، لكي يسلمه إلى زوجته زينب، وأرسل مع الحوالة خطابًا، ذكر فيه أنه مادامت فترة غيابه غير محددة المدة، فإنه يمكن لزوجته، إذا أرادت، أن ترجع إلى القرية.

بعد وقت وصله الرد من صديقه، خطّه كاتب عمومي، يعلمه فيه باستلام المبلغ، ويخطره بأن زوجته تفضل أن تظل في مكانها، ومرفق به أيضًا خطاب كان قد وصل من والده، كتبه أيضًا كاتب عمومي في القرية.

قام الشيخ مصطفى بتضخيم عيوب الشيخ محروس، بصفته الآن عمدة للقرية، وذكر عدة تفصيلات عن بعض أعماله الشريرة، وكان الشيخ مصطفى قد سمع، عن طريق أحد السادة المحترمين أن حبة عينيه، حبيبه وابنه مبروك قد حقق المُنى بمصادقته لرجل كبير المقام، له صلة حميمة بالقادة الجدد، ووَدَّ لو أمكن لابنه أن ينقل لأسماع الأمير الهمام، الذي يملك الآن كل البلاد

بعض المعلومات، التي توضح مدى خسة وخيبة الشيخ محروس العجوز، وأنه لا يمتلك ولو أقل المؤهلات، التي تجعله عمدة مناسبًا للقرية، ثم اختتم خطابه بتأكيد مدى إخلاصه وطاعته لأقل نسمة، تصدر من فم حضرة جناب عرابي بك، وكل شخص من زملائه الكرام الثوريين الشجعان.

في أول فرصة، أظهر مبروك هذا الخطاب إلى سيده، الذي أغرق في الضحك وهو يقرأه. ثم أبدى ملاحظة قائلًا: «ده من أبوك؟ إذًا دع الراجل العجوز ينال منيته.. شيء جيد أن يبدو تأثير القوى الجديدة هكذا حتى في أبعد القرى، وأن الناس بدأوا في التوقف عن رجاء والتماس عطف الخديوي.. اكتب إلى عرابي كل ما يسرك، وضع الخطاب أمامي عشان أوقّعه.

مرة أخرى، كال مبروك لرئيسه مزيدًا من التشكرات، ولكن معلمه – كما فعل سابقًا - تقدم له برجاء أن يبقي بعضًا منها إلى مناسبات تالية.

كان لسقوط حكومة شريف باشا - التي ظهر عليها مؤخرًا أنها كانت تفضل الأوروبيين في كل شيء، وتعيين حكومة من الثوار مكانها، يرأسها محمود سامي، بينما أصبح عرابي هو وزير الحربية – أثر كبير في أن عمَّ الفرح والبهجة كل أنحاء مصر، لقد ظن الناس أن حالة الهياج قد انتهت، مادام أن كل طلبات عرابي قد أستجيب لها بأكثر مما هو متوقع، لقد كان وزير الحربية الجديد مجاهرًا في مزيد امتنانه لمليكه، وكانت الصيحة العامة التي ترددت «الحمد لله»، وتدفقت الوفود القادمة من كل أنحاء البلاد؛ لكي تقدم تشكراتها لجناب الخديوي، بسبب أريحيته واستطاعته أن يسكت أصوات المحتجين المزعجين؛ لكي يعم السلام.. لكن عمر أخبر «مبروك» أن ينتظر قليلًا، فلقد أثبت عرابي مدى قوته وسلطانه، وهو خارج نطاق السلطة. أما الآن، فهو مسيطر على كل موارد الدولة، ومادام الخديوي طيبًا ومطيعًا هكذا ، فإن كل شيء سوف تتحسن أحواله؛ إلا أنه مع أول عمل من أعمال المقاومة، سوف تعود الأمور؛ لتصبح أسوأ من السابق.

كان عمر أفندي مستاءً من نتائج مهمته مع التجار الأجانب في الإسكندرية؛ إذ نجحت خطته مع اليونانيين والسوريين، وإنما ليس بالحجم الذي توقعه؛ إذ انزعجوا بسبب تحذيراته المتكررة، وتقريبًا استعدوا جميعًا لكي يهربوا، إذا دعت الظروف لذلك، في الحقيقة، كانت التمتمات والهمسات التي تتناقل على ألسنة الوطنيين عالية؛ بحيث تستدعي أعلى درجات اليقظة. وبعيدا عما أحدثه عرابي من هياج، فإن قيام فرنسا بالاستيلاء على تونس، دون إعلان للحرب، واحتلالهم كذلك للمدينة المقدسة القيروان، أغضب كل الناس ضد الكفار، ولكن عددًا من التجار الفرنسيين

والإنجليز كانوا يسخرون من هذه الأخطار، وشجعت اتجاهاتهم تلك الأقل منهم شأنًا، وعمَّرت قلوبهم الثقة والثبات، فقد كان هناك شيخ منهم، له خدود وردية مع وميض في العينين، وروح عالية متوثبة، يبدو كأنما هو ولد صغير، بشعره الأبيض الذي يشبه الثلج، وكان يُعْتقد يقينًا أن الشخص المرعوب ليس سوى هذا التركي، لذا جاهد أن يهدئه ويطمئنه.

قال أكثر من مرة، في حضور مبروك، مخاطبًا التركي: «حضرة جنابك رجل هيّاب وخوّاف. أنا أعرف جيدًا هؤلاء الناس، وأؤكد لجنابك أن هذا البلد أكثر أمانًا من إسطنبول ذاتها. إنهم لا يشبهونكم أنتم أيها الأتراك أو نحن الإنجليز، فبالكلام الكبير يظنون أنهم شجعانًا، ولكن في صميم قلوبهم هم جبناء، لا تخف أبدًا يا عزيزي!».

ما الذي يمكن فعله مع شخص مثل هذا؟ هزَّ عمر أفندي كتفيه، وبصق على الأرض بقوة، وتساءل: «إذا صادفهم موت عنيف، فمن يكون محقوقًا في ذلك؟».

بدا الآن أن هناك قليلًا مما يمكن أن يؤدى في صالح الثورة، وأخذ التركي يتحدث عن ضرورة عودته إلى شواطئ البوسفور؛ حيث يستقر هناك والده وأخوه، بالإضافة إلى عديد من الأعداء، الذي عليه أن يهتم بهم. أكثر من ذلك، رغب التركي في أن يشرح بنفسه معاني السياسة، التي اتبع مسارها في مصر، تلك التي نقلت مشوهة إلى آذان القوة السلطانية.

تنهد مبروك، وهو يتدبر هذه الاتجاهات الحديثة، قائلًا: «وما الذي سوف يحدث لي؟ إذا تركتني، سوف أسير في ظلام دامس، سوف أتعثر وأقع أرضًا.. أنت أبويا وأمي، خذني معك، أرجوك يا سيدي!».

هزَّ عمر رأسه، وهو يستمع لذلك، ولكنه وعد «مبروك» بأن يفكر في موضوعه.

قال له يومًا، وهما متجهان إلى مكتب البريد؛ بحثًا عن رسائل واردة: «المفترض أن ترجع وتبقى ضمن العسكر مرة تانية».

ما أن سمع مبروك ذلك، حتى صرخ مستنجدًا بالله خوفًا ورعبًا، ولكن عمر أفندي طلب منه أن ينتظر دقيقة، ليوضح له الأمر قائلًا:

- «أنا عندي هنا سماح خاص بيك؛ بحيث من الممكن إنك تترقى إلى درجة ملازم في الجيش، وبالنسبة للتعليمات الخاصة بواجباتك، عليك أن تتوجه كل يوم إلى قلعة (أدا)، فهناك رئيس الفرقة، وهو صديق لي، ثم ترجع في المساء إلى منزلي.. والله أنا بأحبك، ومش هاين عليَّ أسيبك قبل ما

هو مقدر. من فضلك، بطل كده». كان مبروك منهمكًا في تقبيل أهداب بالطو الرجل في الشارع، فقال له عمر: «ده ما يصحش يصدر منك، أنت دلوقتي ضابط في الجيش المصري».

قبل هذا الحديث مباشرة، كاد مبروك أن يطلب من معلمه السماح له بالسفر إلى القاهرة؛ لكي يرى زوجته وابنه، ولكن الآن اختفت هذه الرغبة مع كل شيء آخر، بينما كان قلبه يتراقص ابتهاجًا بترقيته.

وبذلك، عندما حل فصل الربيع، وجد مبروك نفسه ما زال في الإسكندرية، وهو سعيد بذلك.. وعندما أمده رئيسه بالمال، استطاع أن يدبر ملابسه العسكرية، ثم ارتداها وأخذ يسير بها في الشارع مختالًا، كما سعد أيضًا بخدع التدريبات العسكرية، واستطاع بعد فترة قصيرة أن يتقن كل فنونها، ونال بذلك استحسان المدربين.

كان فؤاده يسعد وينتعش، عندما يأمر الجنود كأنهم الكلاب، ويضرب الأغبياء منهم بعصاه – هو نفسه يا ما تلقى أوامر، وكم من مرة ضُرِب بالعصا – تلك حقيقة منحت عمله الحالي طعم تحقيق العدل والعدالة.

أصبحت عملية التجنيد منتعشة على نطاق واسع، خلال مصر كلها، وبهذا انتشر الحزن والخراب وسط القرى؛ إذ كان لازمًا أن يرتفع قدر الجيش في طفرة واحدة، وأن يصبح ضعف قوته السابقة.

لقد نال عرابي درجة الباشاوية، وحكم وتحكم في وزارة الحربية، كما أكدت كل الأنباء الواردة من العاصمة مقدار عظمته، وكان كل أعضاء مجلس الأعيان ومعظم المثقفين ينظرون نحوه، بينما استمر الخديوي في استسلامه، متحاشيًا كل مصدر من مصادر تجدد العراك - في الحقيقة - أصبح عرابي سيد مصر، ولأن «مبروك» هو ربيب صديق له، فقد كان ينظر نحوه من قبل زملائه الجدد كحبة العين؛ لذا وهو يتقبل كل هذه التشريفات والإكرام، أصبح قريبًا من درجة الاستخفاف بمقولات رئيسه عمر.. لقد أدرك التركي ذلك، فصدرت منه ابتسامة كلها حزن وأسى.

أبدى التركي ملاحظة في مناسبة معينة، قائلًا: «إذًا، فقد انتهت فائدتي، أليس كذلك؟ كلكم هكذا أيها الفلاحون، وعرابي مثلكم تمامًا.. أنتم حكماء عند وقوع المحن، أما عندما تحققون النجاح، فإنكم لا تنظرون لشيء سوى أمجادكم، أنتم هكذا عميان، وليس أقل من ذلك. أدعو الله أن يحفظك! انتهى الآن كل اهتمام لي بشئون مصر، لقد تم إرسال درويش باشا ليأتي إلى هنا لتأديب عرابي،

وهذا ليس سوى تكرار للخطأ، الذي حدث الخريف الماضي؛ إذ سوف يتم استعراض قوته وسطوته، معتمدة كلية على الأوامر العليا المجيدية.. أف لهم! يا ليت يتخرب بيوتهم جميعًا هؤلاء الأذكياء، الذين يخترعون مثل هذه المساخر!».

مبروك - الذي استمع، وهو مرعوب لمثل هذا الحديث - أعطى كل أذانه الآن لمناقشات زملائه الجدد، فقد كان قادرًا على أن يناهض استنتاجات هؤلاء الأصدقاء.. أحمد عرابي رجل عظيم وقوي، والشعب المصري من الشعوب العظيمة، ممتاز ومشهور في مجال فنون الحرب، كما هو مسطَّر في أخبار الحملات، التي انتصر فيها الملك رمسيس، لقد أخطأت الحكومات الأوروبية، عندما احتقرت الشعب المصري، عند وصفه بأنه شعب غير حضارى؛ وطالبوا بالإبقاء على الامتيازات، التي يتمتع بها رعاياهم في مصر، تلك الامتيازات التي لا يجب أن تسري إلا في بلاد البرابرة؛ إذ يجب على الأجانب إدراك أن المصريين هم أسياد بلادهم بلا منازع، وأنهم، ربما، يتلقون درسًا قاسيًا يصيب قلوبهم، عندما يشاهدون كل رعاياهم هنا، وقد ذبحوا أو طردوا.

كانت الابتسامة الدائمة، التي ارتسمت على شفتي التركي، بسبب سذاجة مبروك تغيظ هذا الضابط الشاب.. ولكي يحافظ على أعصابه، كان عليه أن يذكر نفسه دائمًا بأن الابتهاج بالقتل سوف يزول عما قريب.

***

الفصل الثامن والعشرون

فيما بعد ظهر يوم، وبينما مبروك عائد من القلعة، صادف أن سار في شارع، كانت كل منازله قديمة ويقود إلى الميناء، كما كانت كل إعلانات المحلات مكتوبة باللغة العربية، واليونانية والإيطالية، تؤكد أن المنطقة تسكنها جنسيات مختلفة. وعلى الرغم من أن الشمس كانت تستأذن للمغيب، إلا أن حرارتها ما زالت حية؛ لذا فضل مبروك أن يسير في الجانب المظلل، وفجأة تلقى طربوشه دفعة خفيفة، ثم ارتد هذا الشيء ووقع على الأرض، كانت عبارة عن وردة.

نظر مبروك إلى أعلى، فشاهد وجهًا غير محتجب، يرنو من النافذة التي فوقه تمامًا.. وجهًا جميلًا، مبتسمًا، ثم أشارت الفتاة إلى مدخل المنزل.. كان مبروك يعلم أن هذا الحي تجاري، وليست له سمعة سيئة، ومع ذلك، أرسل نظرة متعمقة إلى أعلى، ثم استعرض كل الشارع، ونظر خلفه؛ ليتأكد أن أحدًا يراقب حركاته باهتمام، وقبلما يدخل المنزل بكل تهور، قبض على سيفه لكي لا يحدث جلجلة وهو صاعد، ثم ارتقى بضع درجات، وفي الطابق الأول، في شبه ظلام، لاحظ أن هناك يدًا أمسكت به، وأنه مضغوط في صدر دافئ.. كانت هناك رائحة عطرية خلابة، تحيط به وتغمره، ثم قادته إلى غرفة مظللة بستائر معدنية.

أخيرًا، استطاع مبروك أن يتفحص وجه الفتاة التي كانت تربت عليه، مكتشفًا أنها ليست سوى الفتاة «حلاوة»، تلك الراقصة الجميلة، التي فقد رشيد عقله بسببها، وهم في طنطا.. خشي مبروك أن يكون قد وقع في مكيدة؛ لذا انتفض خائفًا صائحًا: «يا رحمن يا رحيم، هو أنتِ؟».

ضحكت الفتاة، وهي مازالت ملتصقة به، ثم أدرك مبروك أنها
لا تتذكره.. أخذ يضحك معها، سعيدًا بحظه ويومه المفترج.

أخبرته: «أنا شفتك إمبارح حوالي الساعة دي، قلبي وروحي هفّوا عليك. أنت ولد جميل. عارف، أنت غاية في الحسن والكمال؛ عشان كده لما شفتك جاي، قلبي خلاني أعملك إشارة. دلوقتي مش حأخليك تسيبني.. أنت حبيبي طول العمر!».

وضعت أمامه طعامًا من طهيها، وأخذت تشجعه لأن يأكل بعبارات، كلها حب وهيام، وتتحدث بصوت يشبه في روعته ورقته شدو البلابل، وقالت له:

- «أنت ضابط يا روحي، يعني تقدر تحميني، مش كده؟ في يوم شم النسيم، جماعة مسلمين هددوا إنهم يخلّصوا علينا، وده كله معروف، والكل بيتكلم عنه، وكتير منا من القادرين هربوا

بحياتهم، لكن بالنسبة لي، أنا إنسانة فقيرة،
لا عندي مال ولا نفوذ.. ما عنديش غير واحد ممكن يساعدني هنا، هو أخويا، اللي بيشتغل كاتب عند واحد بنكير هنا، وللأسف هو معرض للخطر زيي، لأن رئيسه قدر يهرب لأوروبا، وساب في عهدته البنك بكل ما فيه.. وحياة ربنا
يا حبيبي ونور عيني، من فضلك، أنقذه هو كمان؟».

تساءل مبروك، وقد داهمته الهواجس: «أخوك ده، شكله إيه؟ هو يشبهك؟».

ردت عليه بميوعة، وهي تركع أمامه: «مش كتير لأنه راجل، عنده شنب كبير – شنب أسود زي الليل. أكتر من كده، عينيه سودة، زي عينيك، لكن أنا عيني زرقة»، كانت تشير إلى كل عضو في جسمه بإصبع شقي. أما مبروك، وقد سحر بهذه المداهنة، أقسم لها أنه سوف يحمي أخاها أيضًا، لقد كان مبروك مستعدًّا أن يعد بابتلاع القمر ذاته، إذا طلبت منه ذلك، ثم قالت له: «ليه بتسأل إذا كان أخويا يشبهني أم لا؟».

- «السبب بسيط، وشّك خلّاني افتكر شكل وش راجل، شفته مرة في طنطا، من فترة بسيطة».

- «أخويا راح طنطا، لكن مش من مدة قريبة.. حصل ده السنة اللي فاتت، في أيام المولد الصغير، في الوقت ده كان بيسافر وسط مدن الدلتا في مهمة، كلفه بيها رئيسه؛ عشان يبحث عن ناس يمكن يتعاملوا مع البنك.. آه المسكين! اتسرق، وتركوه بين الحي والميت.. المجرمين المجانين، البلاد دي مش كويسة. أكتر من مرة حبيت أنا وأخويا حبيب نرجع بيروت، مع ذلك، يعلم الله، هي كمان حالتها وحشة. بعد إذنك يا حبيبي، أنا رايحة أنده لأخويا، هو ساكن قريب من هنا، مش حيقعد هنا أكتر من دقيقة، بس عشان تتأكد من الشبه.. اوعدني إنك حتقعد لغاية ما أرجع؛ أستحلفك بحق ستنا مريم تقعد!»..

وافق مبروك سعيدًا؛ لأن الغسق بدأ ينشر ظلامه، وشكله الآن مختلف تمامًا عن ذلك الفلاح، الذي هاجم وسلب ذاك الرجل، عند سد قرية كفر زين. وضعت «حلاوة» برقعها على وجهها، وخرجت تاركة «مبروك» خلفها مبهورًا برائحة عطرها؛ لذا وهو وحيدًا، في الانتظار، حمد الله في علاه لأنه سمح بأن يقدم اللص على استقبال المسروق، وأن يشفق عليه ويساعده قليلًا أيضًا.

عادت حلاوة بعد قليل، مصطحبة معها نفس الرجل، الذي كان وجهه سببًا في حرمان مبروك من النوم لليالٍ كثيرة.. وبسبب الخوف منه، التحق بالجيش، وبذلك سار دربًا قاده إلى المجد

والثروة.. الآن هو ذا الرجل يقترب منه بكل إجلال واحترام، مقبلًا يديه، ثم يقف أمامه، وقد وضع يديه خلف ظهره، وكانت عيناه منكستين في الأرض، إلى أن سمع أمرًا بالجلوس.

قالت أخته بحنان، وهي ترفع البرقع من فوق وجهها: «ألم أقل لك يا حبيب أني سوف أعثر لك على اللي ممكن يدافع عنك؟ طبعًا أختك الغلبانة حلاوة ليها بعض الفوائد، على الرغم من أنك تختشي تقول إنها أختك، هي يصعب عليها خالص لما تشوفك كده خايف».

بعد قليل غادر أخيها، شاكرًا الله بسبب عطف هذا الضابط؛ وبعدها وجدت حلاوة نفسها في أحضان مبروك، وقضى ليلته معها.

ما أن أشرقت الشمس، حتى استيقظ مبروك شاعرًا بتأنيب للضمير لفعلته المشينة، تلك التي لا تليق بمؤمن أمين، فأخذ يفكر باشتياق لأن يلحق بزوجته زينب.. إنها الآن ليست بمقدار الجمال نفسه، عندما كان يغازلها، وهي بجوار مقام سيدي سليم – سواق الحمير، لكن ما الذي يهم إذا كانت تحبه من جماع قلبها أم لا. إن خطوط وجهها عميقة الآن، وسمنتها حاليًا واضحة، وهذا كله يعجبه، وبنوع من اللهفة تذكر وشم الشجرة، التي رسمت تحت شفتيها، التي أضافت الكثير من الجمال إليها، ومنحتها فمًا جميلًا.

على كل حال، تساءل مبروك: لماذا لا يقضي ليلة في القاهرة؟ لقد أهمل زوجته حبيبته بشكل مخجل، والمسافة ليست كبيرة، والضباط يسافرون بتخفيض في تذكرة السكة الحديد، لقد أصبحت هذه الرغبة ملحة، فأسرع إلى القلعة، وهناك أوضح أنه في حاجة إلى للحصول على إجازة، وبالطبع منحت له، فهو ذلك المفضل في كل شيء. بعدها، اقترض مبروك مبلغًا كافيًا من بعض زملائه، واتجه إلى محطة القطار.

قبل ساعة من المغرب، وصل مبروك إلى القاهرة؛ ولكن حدث أن قابل أحد أصدقائه، الذي كان مبهورًا بما يرتديه مبروك؛ لذا أصر أن يجلسا معًا في قهوة؛ لكي يشربا القهوة، ومن ثم، لم يقترب من منزله إلا بعد حلول الظلام.

سأله البواب، الذي كان جالسًا عند البوابة الخارجية: «رايح فين حضرة جنابك؟»

فأجاب مبروك ضاحكًا؛ لأن البواب فشل في التعرف عليه: «طبعا داخل شقتي، عند مراتي»..

- «آه، أنا دلوقتي عرفتك! مرحبًا يا حبيبي! لكن أنت عايز إيه بالضبط؟ أنت طبعًا عارف، أكثر مني، إن شقتك ما فيهاش حد، وأنها - اللي كانت مراتك - اتجوزت من الشركسي من كام أسبوع،

وده كان خير وبركة لمصلحة الجيران، اللي بطلوا يخافوا منه».

صاح مبروك: «يا أبو الفرج! يا رب!»، ثم سقط على عتبة الباب، وقام بعدها معتدلًا، وقد أقسم أن يدخل فورًا لكي يقتل هؤلاء الأشرار، وأخذ يلعن يوم مولده.

حضنه البواب بيديه، وأمسك به سريعًا، وطلب من ولد صغير، كان جالسًا معه أن يجري سريعًا ويستدعي علاء الدين بائع الحلوى، ثم خاطب هذا الضابط المناضل قائلًا:

- «يا سيدي! إيه الكلام ده؟ أنت مش عارف إنك طلقت مراتك بالتلاتة؟ البنت ما غلطتش، هي كملت عدتها قبل ما تتجوز تاني، وخلت مرات صاحبك علاء الدين تاخد بالها من ابنك، ده ذنب كبير إنك تقول عايز أقتلهم».

إلا أن هذا أثار «مبروك» أكثر، فأخذ يشتم زوجته، مقسمًا أنه سوف يقتلها هي وعشيقها الخنزير، وتجمع حوله جمع كبير، جذبهم إليه شتائمه المقذعة، سائلين الله أن يقيل هذا الضابط المسكين من جنونه العنيف.

أخيرًا وصل علاء الدين، وعاتب «مبروك» على صياحه هكذا وسط كل هؤلاء الناس، ثم أمسك به وقاده إلى منزله.. هناك، في تلك الغرفة الحقيرة، ارتمى هذا المجنون على الأرض، في حالة من الغضب الجامح، بينما انهمك الحلواني وزوجته في قراءة ما تيسر من آيات القرآن، التي يحفظونها عن ظهر قلب، وأخيرًا صاح مبروك:

- «أنت صاحب كداب! ملعون! ليه خبيت عَنِّي كل ده؟».

- «ربنا ما يسمح أبدًا إني أكون ناقل للأخبار الوحشة، بالإضافة إلى إن أنا كنت شاهد وأنت بتطلقها، ولما ما رجعتش، فكرت أنا وهي إنك مصمم على الطلاق ده. أنت صحيح بعت فلوس، لكن طبعًا عشان يعولها لغاية ما تنتهي فترة عدتها».

ولكن هذا العرض، الذي يؤكد أن الخطأ ينصب كله فوق رأسه، زاد «مبروك» من حنقه وهياجه، فصاحت زوجة علاء الدين: «أنا حأخليه يشوف ضناه، ومنظر الولد الصغير حيخليه يهدا ويشفي عقله.. ما شاء الله! شوف إزاي الولد بقى مكلبظ إزاي، شوف ابنك بقى قد إيه حلو ولطيف!»

إلا أن «مبروك» لم يستطع أن يلقي نظرة على ابنه، ثم بتمتمات شكر إلى علاء الدين وزوجته لكرمهما، أسرع خارجًا ليهيم في جنح الظلام.

***

الفصل التاسع والعشرون

أخذ مبروك يتجول بلا هدف محدد، وطبول غضبه تدق بعنف وصخب في أذنيه.. كانت الليلة قمرية، وظل البيوت، غير المنتظمة في الارتفاع يرسم أشكالًا خيالية، كما كانت كل زاوية أو شرفة بارزة في تلك الشوارع الضيقة، تبدو كأنها تنتوي أن تسد عليه الطريق؛ وتظهر كل إضاءة فجائية، تصدر من أشعة القمر، كأنها سيف مشرع. سار مبروك في عالم الأشباح المرعب، غير خائف أو وجل، متمنيًا أن تنتهي حياته في التو واللحظة؛ لكي تنتهي كل متاعبه.. تابعه كلب يعوي، فرفصه بعنف، شعر بعدها بالارتياح بسبب ابتعاده عنه مع عوائه المضرور، وكلما قابله أحد حراس الليل ولاحظ زيه العسكري، يرفع يده بالتحية، ولكن «مبروك» يتجاوزه غير ملتفت له.

سار مبروك تحت البوابة الضخمة لباب النصر، وشرد فترة فوق الرمال، التي تفرش تلال الصحراء القريبة، وكانت الكلاب تتسلل وسط جمع من القبور المتواضعة، وتبدو خيالاتها جسيمة في ضوء القمر، عاد وعبر شوارع المدينة النائمة إلى أن وجد نفسه، مرة أخرى، أمام منزل الإثم.. كان البواب النوبي مستغرقًا في النوم، يشخر بكل عزم، وهو فوق دكته الملاصقة للباب الخارجي؛ فتخيل «مبروك» نفسه، وقد دخل ثم كتم أنفاس هذا الحارس، وهو نائم، وبعدها يسحب منه المفاتيح ويتسلل السلالم صاعدًا قابضًا على سيفه، وأنه قد دخل شقة الشركسي، يتقدم ويقطع رأس كل من المذنبين، بينما هما نائمان في أحضان بعضهما البعض، ثم - وهو يطلق تنهيدة - استيقظ من عالم الخيال.. وابتعد مستأنفًا تجواله السابق.

أن تقوم زينب باختيار هذا المقاتل بالذات، الذي يخشاه ويرتعد منه؛ ليكون بديلًا عنه، فإن هذا جعل من ذنبها مريعًا ومخيفًا.. يعلم أنه ليس سوى بمثابة ولد صغير، أمام هذا الوحش الكاسر، الذي لا يخاف أحدًا؛ لذلك كله - أمام عتبة منزل - هبط أرضًا جالسًا عليها، وانخرط في البكاء والعويل.

صاح صوت اخترق أذنيه قائلًا: «من فضلك يا حضرة العفريت، ارحمني!»، وفي تلك اللحظة أدرك مبروك أنه كان جاثمًا فوق قدم أحدهم؛ لذا بادر على الفور في الاعتذار، وطلب العفو والسماح.

إلا أن هذا الحادث التافه لم يقطع عليه أبدًا سلسلة أفكاره، وما أن أخلى قدم الرجل حتى استأنف النحيب، مجتهدًا في تعزية نفسه برسم صورة خيالية، عما كان من الممكن أن يفعله، إذا كان

غريمه أضعف منه، بالتأكيد، ما كان لذاك النذل حتى أن يفكر من الاقتراب منها، وهنا سمع الصوت نفسه يسأله:

- «يا ملك، أنت بتبكي بالشكل الصعب ده ليه؟»، من اللهجة التي تشكلت بها كلمات هذا الغريب، أوحت إليه بأنه هو أيضًا كان غارقًا في دموعه.

- «بالله عفوك! معقولة ما فيش أي سبب عشان أبكي؟ اسمع يا أخينا وأنت اللّي عليك تحكم! أنا كنت غايب في مهمة، لما رجعت إلى بيتي الليلة دي، اكتشفت أن مراتي بتتمتع في حضن راجل تاني، والأكادة أنه عدوي».

- «أوه، يا دي الناس الأشرار! أنا أعرف صنفهم»، صاح هكذا المستمع غير المرئي، وهو يكركر: «وإن شاء الله طبعًا أنت قطعت لحمهم ورميته للكلاب!».

- «أنا فصلت وشوشهم من أجسامهم وسبتهم على كده، مع ذلك، لسه قلبي موجوع ومحزون».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم». قال الصوت هكذا بكل وقار وتقوى، ثم أردف: «والله، خلينا نروح لغاية عندهم عشان ندفنهم».

جرت حركة في الظلام لنهوض الرجل، الذي مد يديه؛ لكي يساعده مبروك في النهوض؛ حيث إنه لا يستطيع بطبيعته أن يمتنع عن مد يد العون، وكان من الضروري عليه أن يساعد هذا الصديق المجهول، إلى أن تتاح له فرصة للتخلص منه.

بعيدًا، في ضوء القمر، استطاع مبروك أن يتحقق من شكل مرافقه.. إنه يرتدي ملابس الفلاحين، طويل القامة وسمته مخيف، ينظر حوله بكل استثارة، متلمسًا طريقه، مادًّا يديه إلى الأمام.. صاح هذا، كأنما قد نسي تفاصيل الموضوع: «فين – فين مكان البيت ده؟».

- «هو بعيد خالص من هنا – على الضفة التانية من النيل – ناحية الجيزة!»، لقد كذب عليه مبروك؛ لكي يثنيه عن عزمه.

صاح الفلاح المرافق قائلًا: «والله، طاب خلينا نمد شوية لأننا في عز الليل، لازم شغلنا يخلص قبل الفجر»، ثم وهو يقبض على يد مبروك، دفعه دفعًا لكي يجري في الاتجاه الموصوف. ومع ذلك، توقف أخيرًا، وهو يحملق في حجم كبير من الظلال المفروشة أمامه، ثم أخذ يتساءل بحق الله: كيف يمكن لهما أن يتسلقا هذا المرتفع، وهنا أدرك مبروك أنه قد وقع ضحية لواحد دخن، قدرًا كبيرًا من الحشيش، فحاول أن يخلص يده، لكن هذا الفلاح الطويل احتفظ بها، مستخدمًا قبضة يد،

قدت من حديد، وقال له الرفيق: «لا، ما تخافش أبدًا، ربنا حيسهلها، ويدلنا على طريقة. مش إحنا رايحين الجيزة؟ ما تفتكرش إني نسيت. ياللا بينا على الجيزة – ها، ها، ها»، ثم مال برأسه إلى الخلف، وأخذ يقهقه عاليًا، هادرًا بآلاف من أشكال صدى الصوت، في هذا المكان المحترم.

كان مبروك مضطرًا إلى أن يطيع تهويمات رفيقه، الذي ما أن شاهد أمامه ظلًّا آخر، حتى قال عنها إنها ليست سوى هضبة مرتفعة؛ لذا أخذ يجاهد في الصعود، ثم رأى في اللحظة التالية ظلًّا آخر، أدرك أنه ليس سوى نهر، لذا رفع طرف جلبابه وعبره، ولكن على الرغم من كل هذا، كان متذكرًا إلى أين يتوجهان، فقال مؤكدًا: «رايحين الجيزة، مش كده؟ ما تفتكرش إني نسيت»، لقد قالها حتى لا يشك أحد فيه أنه مجنون.. ثم وهما يسيران في الحي الإفرنجي، بشوارعه الواسعة، ظهرت أمامه عقبات قليلة، إلا أنه أمام الساحة الواسعة، التي تقع أمام المسرح الإفرنجي الذي أنشأه الخديوي، أخذ يحملق حوله منزعجًا.

همس الرفيق متهيجًا: «كل الطرق هنا مسدودة ما عدا طريق واحد، مش قادر أفتكر مكانه»، ثم كما لو أنه قد افتكر، قائلًا: «آه، إحنا رايحين الجيزة، ياللا بينا! ما تفتكرش إني ناسي؟»، وسار بكل حماس كما كان حاله سابقًا.

شعر مبروك بالخوف من أنه لن يتخلص أبدًا من هذا الرجل، الذي طمأنه وعندما وصلا إلى الأسدين الرابضين على جانبي كوبري، وهو يقول له إن الأسدين نائمان، وطارت بعد ذلك بومة من قلب شجرة بجوار مسارهم، واندفعت نحوهما، وهي تصرخ. قفز الحشَّاش في الهواء، ثم وقف في مكانه متجمدًا، واستدار حول نفسه مستطلعًا باحثًا عن العدو، ودقق أيضًا النظر في تراب الشارع، وفجأة وقعت عيناه على محيا مبروك، الذي، يبدو أنه لم يشاهده من قبل، ثم بزعقة فجائية قوية، صاح: «يا مسلمين!»، ثم رفع يديه عاليًا، وجرى بسرعة متقهقرًا في اتجاه المدينة ناجيًا بحياته.

وقف مبروك في مكانه، ينظر نحو رفيقه، حتى اختفى عن الأنظار؛ بعدها - وهو يتنهد تنهيدة الخلاص - سار عبر الكوبري متجهًا إلى الجيزة. مرة أخرى، وجد مبروك نفسه وحيدًا بصحبة اليأس والقنوط، مشغولًا تمامًا بأفكاره وتخيلاته، لم يطرأ على فكره أي شيء، فيما يختص باللصوص، وكذا العرب النهَّابين، أو أي واحد من أولاد الليل، يمكن أن يظهر أمامه الآن. وبعد أن سار مبروك لمسافة ساعة، هجر الطريق المعتاد، وتابع طريق مصرف، يقع بين حقول الذرة ذات الرائحة الطيبة؛ حيث رأى أمامه شكل قرية على البعد، لم يشأ أن يقترب منها؛ حتى لا يثير كلابها

عليه، لذا جلس بجوار دغله من البوص. عندما توقف مبروك عن الحركة، شعر بتعب قاتل يحل عليه؛ لذا فرد طوله على الأرض، واستغرق في النوم.

استيقظ مبروك لكي يرى وسط الحقول المشعة بياضًا، وهضاب الصحراء والأهرامات، التي تسطع خلفها سماء زرقاء، يلمع فيها نجم وضاح، يرنو بكل جلال. بجهد، نهض مبروك من مكانه، وسار متجهًا مرة أخرى في اتجاه المدينة، التي لم تظهر منها سوى قبة وبعض المنارات، التي أمكن له تمييزها وسط ذلك الضباب المنتشر، وفي أعلى الصورة أمامه، كانت تمتد غابات لا نهاية لها من الأشجار. وبينما مبروك يسير منهكًا وسط شارع واسع، كانت أسراب الحمام تهدل، وهي وسط الأغصان، بينما تخضب الشمس المشرقة حديثًا ما برز من نتوءات الأشجار بلون أحمر، وبينما هو يخطو عبر الكوبري المنخفض فوق النيل، شاهد أشرعة المراكب البيضاء، وهي تزهو مرتفعة وسط مياه زرقاء، كما سمع حركات صحو الحياة على طول النهر، دون أن يهز شيء منها مشاعره؛ إنه رجل أسيء إليه، إنسان فاقد الأمل، صارخ إلى الله بسبب كل ما يصيبه، وهو على الأرض.. سار في شوارع المدينة إلى أن عثر على عربة، فأشار إليها وامتطاها، طالبًا من السائق أن يتجه به إلى محطة القطار.

في رحلته هذه، ظل مبروك مستبعدًا نفسه عن الاختلاط بالركاب، مكتفيًا بحشر نفسه في ركن، ينظر عبر شباك القطار ضامًّا شفتيه في غضب، إلى أن اقترب القطار من محطة طنطا، وهنا شعر بانفتاح وبهجة فجائية. وبنظرة إلى منارات جامع السيد البدوي، تذكر الفتاة حلاوة، هذه الفتاة السورية أجمل كثيرا من زينب، لها أسلوب عال وراق، سواء في حديثها أو تصرفاتها، وهذا قربها إلى النموذج الشعري، الذي تتمثل فيه الأنثى المثالية، إنها تشبه كاميل التي

لا تضاهى، وشعر فجأة بالندم؛ لأنه أعطى نسخة هذه الرواية إلى عمر أفندي؛ مما أثار غضبه وحنقه مرة أخرى.

***

الفصل الثلاثون

أبدى عمر أفندي بهجة كبرى بمرأى مبروك، عندما ظهر بعد غياب ثلاثة أيام بلياليها؛ حيث ساوره الشك من أنه قد تعرض لمكروه. ولكي يتجنب مبروك المزيد من الأسئلة، اعترف بأنه كان في حالة من الاشتياق الشديد؛ لذا رحل إلى زوجته، ليكتشف فقط أنها قد تزوجت من هذا الشركسي اللعين.

ما أن استمع التركي للقصة، حتى صاح: «كان الله في عونك، لكن لما أنت متعلق بها بهذا الشكل، ليه طلقت البنت الغلبانة بالثلاثة قدام شهود؟ وطبعًا لما مدى غيابك طالت، أكد ده رغبتك في الانفصال عنها.. مشكلتك دي ما ليهاش حل، لكن على كل حال، أنا شايف أن فيه لسه أمل قدامك، أمين بك ده يعتبر من أعداء عرابي؛ لذا ربما تلاقيه اختفى فجأة».

لم يزد الحديث عن هذا الأمر أكثر من ذلك، ولكن بعد مرور عدة أيام، عندما كان الجميع يتحدث عن تلك المؤامرة، التي حاكها الضباط الشراكسة ضد أحمد عرابي، جعل التركي «مبروك» يشاهد ما هو مسطور في إحدى الجرائد، ورجاه أن يقرأ ما فيها بكل فهم وتمعن؛ إذ تحدث المقال عن هؤلاء المفسدين غير الإنسانيين، الذين تجرأوا أن يتحدثوا بالشر، فيما يختص بآمال مصر وكرامتها، وأنهم الآن جميعًا مسجونون في قصر النيل، يذوقون من الإذلال نفسه، الذي جعلوا الآخرين يتجرعونه، كما ظهر في الجريدة أن أشهر النبلاء في البلد متورطون؛ لأن «مبروك» شاهد مسطورًا بعض أسماء المشاهير، من ضمنهم عثمان باشا رفقي، الذي كان يومًا وزيرا للحربية. لقد تلقى هؤلاء المتآمرون، وعددهم ثمانية وأربعين فردا، أوامر عسكرية بأن يرحلوا للخدمة في أقصى الجنوب؛ لذا تآمروا وخططوا لتدمير عرابي، بل وقتله أيضًا قبل تنفيذ هذه الأوامر، إلا أنه تم اكتشاف خيوط هذه المؤامرة الدنيئة قبل التنفيذ.

أدرك مبروك لماذا دعاه التركي أن يقرأ هذا المقال بتمعن؛ ذلك أنه عندما وقعت أنظاره على قائمة أسماء المتآمرين، وجد من ضمنهم اسم أمين بك، عدوه. لقد حكمت المحكمة على كل وحد منهم بالسجن المؤبد، وأن يكون مقامهم في أخطر الأماكن الوحشية بالسودان؛ إلا أن الخديوي لم يصدق – بعد - على هذه الأحكام القاسية، وهنا هدد عرابي وزملاؤه وهم غاضبون أنهم سوف يقضون على الأمير وعائلته، وأمروا بعقد اجتماع طارئ لمجلس الأعيان، دون موافقة الخديوي.

أبدى التركي ملاحظة، عندما انتهى مبروك من القراءة، قائلًا: «إنها الخناقة التي انتظرها أصحابنا دائمًا، كما أن قيام محمد توفيق برفض التصديق على الأحكام، يعني أنه يعادي الجيش؛ ولم يستطع إنقاذ أصدقائه أبدًا، مهما قال أو فعل. الرجالة دول انتهى أمرهم؛ بكده ممكن نقول إن مراتك السابقة أصبحت أرملة، وأمين بك ده مش ممكن نضعه في الحسبان. لذا إذا كنت لسه راغب ترجع للبنية، هو بكده يكون ساعدك في الموضوع ده».

لم يحاول مبروك أن يقرر أمرًا في هذا الشأن، في التو واللحظة، لكنه فكر مليًّا في الموضوع، وكتب خطابا إلى علاء الدين به بعض التعليمات، منها، أنه على بائع الحلوى أن يضع عينيه ملاحظًا زينب خلال فترة الانفصال هذه؛ وإذا لم يصدر منها أي فعل خاطئ، فعليه أن يستأجر خدمات خاطبة شاطرة؛ لكي تجعلها تميل إليه مرة أخرى. في نفس الوقت، كان مبروك يزور «حلاوة» كل يوم، وفي كل آن يجد عندها كل ما يسر قلبه.

في تلك الأيام، كان السيد عبدالله نديم مقيمًا بصفة مستمرة في الإسكندرية، وكثيرًا ما كان يزور عمر أفندي ليلًا، لقد سُرَّ هذا الرجل المؤمن كثيرًا، وهو يشاهد مبروك بالزي العسكري قائلًا إنه الآن يبدو مستعدًّا أن يقاتل الأعداء نصرة للحق والدين القويم، بدلًا من أن يسعى للحصول على المكاسب الدنيوية كالسابق. كان سمته أن يتغير في الحال، ثم يستمر في القول بأن سقوط الكفر قد قرب وقت أفوله، وحان وقت القضاء على معتنقيه في هذه البلاد، كما كان مبروك يبدي اهتمامًا بكل التنبؤات، التي تصدر من فم هذا المتحمس المتجهم؛ لأن كل الفرقة التي التحق بها كانت تستعد علنًا للقضاء على الكفار من الأجانب.

كانت كل القوى الأوروبية تضغط من خلال قناصلهم على ضرورة استقالة تلك الحكومة الوطنية؛ لذا استعد عرابي ومحمود سامي وزملاؤهم لتقديم استقالاتهم.. لكن الجيش، وكل من تعمق في مسار التمرد، صعب عليهم التراجع بأمان، خوفًا على حياتهم؛ لذا أصروا على ضرورة عودة هؤلاء القادة إلى مواقعهم السابقة، وتبعًا لذلك - وفي الإسكندرية، حيث تتمركز معظم ثروات ونفوذ الدخلاء من الأجانب - كانت مدافع القلاع موجهة نحو الأحياء الأجنبية، وقد صدرت الأوامر بأن تهتم كل فرقة بالمنطقة المحددة لها؛ لكي يقوموا بتدميرها وإحالتها إلى خرائب، وكانت مسألة رفض الخديوي إعادة عرابي وزملائه إلى مواقعهم، هي الإشارة لتحقيق هذا الدمار الشامل، أما الأحياء الشعبية، فإنها حازت على قدر كبير من الاحترام، وتم حراستها ضد أي هجوم بتشييد عوائق عسكرية تحميها.

مُنح مبروك ميزة في فرقته؛ حيث أصبح هو المسيطر على المجموعة المكلفة بتدمير الشارع الذي تقطنه «حلاوة»؛ لذا قام بتحذيرها بأن تبقي أخاها معها في شقتها، وبعدها انتظر صدور أوامر التدمير بصبر نافذ، لشخص ممنوع من القيام بعمل طيب. لقد تنبأ عمر أفندي بأن الخديوي سوف يستجيب لطلبات الجيش، أما أن تتوقف كل هذه الاستعدادات الحربية، فهذا لم يكن متوقعًا، كما كانت كل الفصائل منشغلة ومتحمسة، تبدي شجاعة منقطعة النظير، كأنما هي النار المتأججة، ومع ذلك، تبع هذا ما خيب آمالهم.

وكما تنبأ عمر أفندي، هدد الخديوي بأن هنالك مخاطر ومصائب سوف تقع، إذا لم يستعد عرابي مركزه؛ لذا قبل وصول خطاب التهديد - الذي سلم له وهو في الإسكندرية - طلب بتنفيذ أوامره بعودة عرابي إلى منصبه؛ فتصاعدت عبارات الحمد والشكر لله من فم الجنود المحتشدين في الميناء، عندما وصلتهم هذه الأخبار، موضحة مقدار المخاوف، التي كانت تسري في قلوبهم وسط كل هذه الاستعدادات الحربية، إلا أن «مبروك» وحده فقط، هو الذي شعر بالغم؛ إذ كان ينتظر أن يحصل على شكر وامتنان «حلاوة».

على الرغم من أن خطة مهانة وتحقير الأشرار ظلت سرًّا من الأسرار، لكن لا بد أن بعضًا من أخبارها قد تسرب إلى أسماع القناصل الأجانب؛ حيث لوحظ أن هناك سفينة حربية إنجليزية قد حضرت؛ لكي تستقر أمام المدينة، وكان ذلك سببًا في أن تحتضن حلاوة «مبروك» في خوف وذعر، أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أنه أكد لها وحلف لها باسم الله بأن كل مخاوفها أصبحت في حكم الماضي؛ ثم عندما وصلت - بعد عشرة أيام - خمس أخرى، زادت درجة مخاوفها بطريقة غير مسبوقة، وجادلت بالقول بأن الأخطار التي تواجهها هي وأخيها حبيب خطيرة للغاية، مادامت هناك ست سفن، قد تتابع وصولها لحماية النصارى الأجانب.

في القلعة؛ حيث يذهب مبروك للتدريب، وكان يراقب تلك السفن الضخمة، التي تجمعت في الميناء الخارجي، ملاحظًا كل الحركات البشرية فوق ظهورها. كذلك، كانت كل الفصائل والضباط والناس يضحكون من هذا الاستعراض الفارغ للقوة؛ لأنه كان معلومًا أن هناك تعليمات موجهة لقباطنة السفن الحربية ألا يقاتلوا؛ فقد اقسم كل من جلادستون، رئيس وزراء بريطانيا، والفرنسيين أنهم لن يتسببوا في إلحاق أي أذى بأي إنسان. وسخر كل سكان المدينة من هؤلاء البحارة الأغبياء، ذوي الخدود الحمراء عندما يظهرون على الشاطئ، ويلعنون دينهم في وجوههم..

كانت الأخبار الواردة من العاصمة ليست مطمئنة، فقد صرخ الأجانب، على لسان قناصلهم، مطالبين الحكومة بتقديم استقالتها، مع ضرورة إقصاء عرابي تمامًا؛ لأن المسائل المالية قد استبعدت من أيادي مستشاريهم. لذا بالنظر إلى هذه الوقاحات، كان تواجد هذه السفن الحربية بقرب المدينة يمثل إهانة بالغة للسكان المسلمين؛ مما يعتبر أكثر خطورة من كونها أدوات للقتل والقتال. فهل تظن القوى الأوروبية بتظاهرها هذا أنها تستطيع أن تبث الرعب في قلوب شجعان البلد والمؤمنين الحقيقيين؟ لقد كان كل تاجر شريف يبصق عندما يمر عليه أجنبي، بينما كان السكان من السود والبرابرة يتابعون السيدات الخواجات في الشوارع، يلقون على مسامعهم النكات الداعرة، ويرددون أغنيات فاجرة تجعل الناس تضحك وتكركر.

استمع مبروك إلى قصص مبالغ فيها على فم «حلاوة»، التي لا تجرؤ الآن أن تخطو خارج المنزل، ولكنها تظل طوال يومها في غرفتها، تدخن النارجيلة وتمضغ الحلويات، وبين الحين والآخر تصلي. لكن «مبروك» كان لا يزال يظن أن الأجانب ليسوا في خطر داهم؛ فالشعب المصري شعب متمدين: إنهم يحاربون إذا دعت الضرورة لذلك، باستخدام جيشهم، بأحدث الأساليب، كما ينتوون.. لكن الآن، إذا استمر الخديوي في عناده، فسوف تحدث اضطرابات وحشية وعنيفة. وقد تحدث مبروك مرة بهذا الأسلوب مع عمر أفندي، عندما طرح هذا الأخير هذا الموضوع، في ظهر يوم بعد عودة مبروك من القلعة، فهز التركي رأسه وابتسم ابتسامة ساخرة، قائلًا: «أنت ما زلت صغير السن يا ابني، والشباب يرى ما يرضي ويلذ الشباب، ولو كنت قد تتبعت مسار خطب السيد عبد الله نديم هذه الأيام، كما فعلت أنا، لما استطعت أن تستهين بقسوة ووحشية ناس الإسكندرية.. إن عبد الله هذا رجل يوافق مسرات قلبي، كواعظ ورجل سياسة، فهو يناصر كل التوجهات السلفية، التي هي الأكثر فعالية، وشيء جيد أن يكون في معية عرابي مثل هذه النوعية من المستشارين؛ لكي يعرقلوا امتداد نفوذ أصدقائه من الإفرنج، حيث يجاهر عبد الله في انتقاد حضارتهم، التي تصل بهم إلى مداومة الخضوع والإذعان...

«لعدة أيام ، جاهد هذا الرجل الورع في إشعال النيران، في قلوب أهل الإسكندرية، الذين يسمعون لغطًا متزايدًا، يدعي أن الأجانب يستعدون للقضاء عليهم تحت حماية أساطيلهم، وربما - كما تعلم - أن فلاحي مصر هم أناس مسالمون ومعتدلون، ولكن هذا لا ينطبق على الرعاع المنتشرين في كل أنحاء الميناء، الذين يتخلقون بأسوأ ما في الإسلامية. لذلك، إذا أردت الاحتفاظ بوعد حماية حبيبتك وكذلك أخيها، فعليك أن تتخذ خطوات ضرورية في التو واللحظة».

عند سماع هذا، أخذ مبروك يحملق في وجه معلمه، فاقد النطق، مندهشًا من اكتشاف أمره؛ فهو نفسه لم يذكر أبدًا اسم حلاوة أو أخيها السوري، ولم ينبس بكلمة واحدة عن مدى صلته بهما.

- «أحضرهما معًا إلى منزلي هذه الليلة بالذات، لأنه لا أحد يعلم ما سوف يحدث بكره؛ أرجوك لا تنظر نحوي بنظرة الشك هذه.. هل تعتقد أني دست على طرفك؟ الأمر مش بالشكل ده، لأني أنا في الواقع استعنت بخدمات جاسوس، هي امرأة. بالتأكيد أنت مش غيران منها بسبب صيتها! وهل تخاف عليها لما تكون في بيت واحد معايا؟ بحق توب النبي، أنا لن أقترب منها أبدًا. عندي هنا في بيتي غرف فاضية كتير، اختار أنت واحدة أو اثنين، وأغلق الباب وراها».

فعل مبروك، المكتئب، مثلما قيل له، وفي مدى ساعة واحدة، دخلت حلاوة هذا المنزل وتم اقتيادها إلى الدور العلوي لكي تشاهد غرفتها. بعد وقت قليل، بينما التركي ومبروك في حوار، شعرا بالانزعاج؛ بسبب أصوات خناقة، تجري فصولها أمام الباب الخارجي للمنزل، فاندفع كلاهما إلى الأمام، وبعيون محجوبة رؤيتها بعض الشيء بسبب انعكاس ضياء الشمس على سطح مياه البحر في المغربية، شاهدا أخا حلاوة، وهو يكافح ويجاهد اثنين من الحمالين؛ بسبب أجرة نقل صندوق ضخم ملفوف ببطانية، وكان العرق ينهمر مدرارًا من وجهي الحمالين، بينما كان أحدهما يصيح قائلًا:

- «أربع قروش، كل المسافة دي وإحنا شايلين الرَّزية دي؟ يا خنزير! يا كافر! دي يمكن جواها عضم جدودك من أيام نمرود!». ما أن شاهد المتحدث كلًّا من عمر أفندي ومبروك حتى غير من لهجته، ثم أخذ يتذلل، وأظهر النقود في يده، وأخذ يتأوه بشكل مؤثر:

- «شوفوا يا حضرات. إحنا ناس مؤمنين، كل اعتمادنا على الله، المبلغ ده عشان حمل الصندوق ده اللي ممكن يكسر ضهر عنتر».

- «بحق الإنجيل، الصندوق ده جواه شوية كتب، وبعض الحاجات الخاصة بي!». هكذا احتج السوري بنظرات زائغة.. لقد انزاحت البطانية عن طرف الصندوق، فاستطاع مبروك التحقق من أن الصندوق معدني الصناعة.

تطوع عمر أفندي بدفع ضعف المبلغ، الذي حصلا عليه من جيبه الخاص؛ لذا وهما ما زالا غير مقتنعين، بادرا بمغادرة المكان. ثم عندما تقدم أحد خدم الدار بحمل الصندوق، في الحال، اضطر إلى إنزاله إلى الأرض، وقام باستدعاء الحمالين مرة أخرى.

قال المتحدث فيهما غاضبًا: «ناخد خمس قروش كمان».

أجاب الخادم، وهو يحملق في هذا الصندوق: «لا، أنا حأدفع عشرة من مرتبي الضعيف، أحسن من أن أكسر كل عضامي».

غمغم السوري، كما لو أنه لا يعرف سوى أن يردد هذه الكلمات: «ما فيش جواه غير شوية كتب، وبعض متعلقاتي الشخصية».

ما أن تم صعود حبيب مع صندوقه العزيز إلى الدور العلوي، حتى خاطب عمر «مبروك»، قائلًا: «أنا مش حابب صاحبك ده، وإذا كانت البنت زيه، أنصحك تتخلص منها. إحنا وريناه كل عطف واهتمام، مع ذلك لا يزال لا يثق فينا. هو فاكرنا هفية، ممكن نؤذي الضيوف وهما جوه بيوتنا؟ والله هو يستاهل يفقد الصندوق ده كله، اللي بالتأكيد جواه كل ثروة رئيسه البنكير. مع ذلك، اللي يضايف عنده الخنازير، عليه أن يتحمل دنسها. على كل حال، الكل خلاص عرف دلوقتي إننا استضفنا في بيتنا بعض النصارى الأجانب».

في اليوم التالي، الساعة السابعة صباحًا - كما سجل العرب، منذ ولادة هذا اليوم - حدثت الواقعة المخيفة؛ إذ لعدة أيام سابقة، كان كل سكان المدينة في حالة من التوتر البالغ، وكانت كل طائفة تظن أن الأخرى مقبلة على ارتكاب مجزرة؛ إذ كان الناس ينصتون إلى دقات قلوبهم بنوع من الترقب، وكل تحية تلقى تبدو كأنها ضربة لم تصب الهدف. وعندما تكون الأحوال بهذه الدرجة من التهافت، فإن أقل شرارة يمكن أن تصنع شعلة هوجاء.. حدث نزاع، تافه للغاية، وعادي، بين رجل مالطي وصبي عربي؛ بخصوص إيجار استخدام حمار الولد؛ مما أشعل غضب الرعاع من المسلمين، فتسلَّح مئات من الرجال، بالنبابيت، وأخذوا يمسحون الشوارع، ويضربون إلى حد القتل أي أجنبي يشاهدونه، ويرعبون السيدات والفتيات، كما يسرقون كل ما تقع أيديهم عليه.

حاول الإفرنج واليونانيون الدفاع عن أنفسهم بكل ما في استطاعتهم، وقتلوا كثيرين من المسلمين. واندلعت في بعض الشوارع، المعارك، بينما كان الناس يطلقون النار، وهم مطلون في نوافذهم على المارة.. مع كل هذا، فإن رجال الشرطة، الذين من مهامهم الأساسية حفظ الأمن والنظام، شاهدوا ما يحدث، دون أي تدخل منهم، يكتفون فقط بهز أكتافهم ثم بابتسامة قاسية، يقابلون بها أي إنسان غلبان، نصف مقتول وممزق يستنجد بهم. كان مبروك مرعوبًا، وهو يشاهد مثل هذا الهياج غير الحضاري، لكن زملاءه في القلعة استمعوا إلى قصص هذه الوقائع، وهم

يهزون رؤوسهم مبتسمين؛ مما جعله يظن أن رعبه ليس سوى نوع من الضعف الصبياني، وصاحوا قائلين: «ده مش شغلنا، وكله من عند الله، وده اللي حيخلي الناس دي يتأدبوا ويحسِّنوا من أخلاقهم؛ دي غلطتهم لأنهم كانوا يعاملونا كأننا متوحشون».

علم مبروك أيضًا أن عمر باشا لطفي، محافظ المدينة، طلب من رئيس البوليس أن ينهي هذه المعارك المؤسفة؛ ولكن كانت إجابته: أنه ليس في إمكانه التدخل، دونما صدور تعليمات محددة ترد له من عرابي – وهي تعليمات، على الرغم من أن البرقيات العديدة التي أرسلت إلى العاصمة، لم يصل أي رد عليها.. مع مرور الساعات، قام رجال البوليس، وقد استثيروا بصيحة الحرب، التي أطلقها المسلمين إلى أن يشاركوا في هذه المجازر.

وهو عائد إلى المدينة في برد النهار، اختار مبروك أن يجتاز خلال الطرق الهادئة فقط؛ إذ لم يكن مغرمًا بمشاهدة المناظر المرعبة، ولكنه لم يستطع أن يهرب من منظر الدماء التي لطخت وجه الأرض، وصادف أن شاهد نساء صغيرات جميلات، كن يومًا يمثلن فخر منازلهن الفخيمة - يتجولن نصف عرايا، بعيون مجنونة ووجوه تشبه وجوه الجثث، ينتحبن فضيحتهن بتكرار مؤلم قاسٍ، وفي مكان معين من طريقه، شاهد جمعًا من الناس يتخطونه، بينما يجرون، ووسطهم جسد رجل أجنبي عجوز؛ لكي يلقوه في البحر، لقد مثلت هذه الأفعال المشينة من شمس المغيب سقمًا، وبدا الضياء المنعكس على مياه البحر كتكشيرة الشياطين.

عندما عاد مبروك إلى المنزل، اكتشف أن عمر أفندي قضي معظم النهار في خدمة سميه، المحافظ، الذي - مع بعض المعاونين - صنع كل ما في جهده؛ بالتقليل من شأن هذا الشغب. شعر التركي بالتعب جراء ما بذله من جهد في إقرار النظام، ولكنه كان مبتهجًا، وهو يقص بعض الوقائع المرعبة بلهجة متساهلة تمامًا. لقد حرص - كما قال – على إعلام الباشا المحافظ بأنه يحمي في منزله بعض الأجانب المسيحيين. لكن أين هم ضيوفه؟ كان الرجل يحرص تمامًا على الحفاظ على مشاعر مبروك؛ لذا لم يقترب من ضيفيه أبدًا، فقد أخبره الخدم أنهما بصحة جيدة وراحة تامة.

صعد مبروك ليشاهد بنفسه، فوجد حلاوة وأخيها راكعين على الأرض مرعوبين، يصلون أمام صورة دينية موضوعه أمامهما، ولكي يستهجن ما يفعلانه، ضرب الصورة بقدمه فأحدث بها فجوة، قائلًا: «إن من يعبد هو الله فقط»، بينما استمرَّا هما في الصياح والشتم، فقد كان واضحًا عليهما اقتناعهما بأن ساعتهما الأخيرة قد حانت.

اتضح أن الخدم أخبروهما بما يحدث في الشوارع من مذابح، فبدت على وجه هؤلاء مظاهر السرور؛ بسبب ما ظهر على وجهيهما من مظاهر الذعر والخوف، وهكذا كان منهجهم طوال النهار، كما أكد لهما هؤلاء الأنذال أن الرعاع الشياطين يقتربون من المنزل، بينما في الحقيقة، كان هذا المنزل بعيدًا عن مجرى الأحداث.. وما أن رآهما مبروك، حتى أدرك أن كليهما في أقصى درجات الذهول، لدرجة أنهما بالكاد استطاعا التعرف عليه.

قال مبروك لهما: «والنبي، ما لكم حق أبدًا أن تخافوا بهذا الشكل، المعركة محصورة في قلب المدينة والحي الإفرنجي، والحالة بدأت تهدأ حاليًا.. المفروض تتكسفوا من خوفكم ده، بينما حضرة عمر أفندي وأنا، أقسمنا أن
لا شيء سوف يصيبكم».

لكن هيهات أن يستمعا له، واستمرا في النداء على إلههم، معتقدين أن الخطر ما زال محيقًا بهما.

***

الفصل الواحد والثلاثون

عندما قام مبروك بإعلام رئيسه عمر أفندي عن حالة ضيوفه الذهنية، أبدى سيادته ضيقًا شديدًا، ثم صاح: «بحق الله في سماه، دول ناس يعروني! لأنهم ضيوف عندي. والخدامين اللي خوفوهم حينالوا العقاب اللازم، لكن هل ما زال اعتراضك قائمًا، أم انه مسموح لي أني أزورهم في أوضتهم؟ أحب أذكرك، البنت دي مش واحدة مننا، وكانت معتادة تكشف وشها قدام كل الناس، عشان كده لو شفتها دلوقتي، ما أظنش ده يمثل أي إساءة ليك. لاحظ أن فيه آلاف من الناس شافوها قبل كده».

ضحك مبروك، وهو يستمع لذلك، رغم أنه كان يشعر بقليل من الخجل، وصرح بأنه لم يعد هكذا مفتونًا بها، كان ما يزال متألمًا بسبب الشتائم التي تخلو من الاعتراف بالجميل، التي انهالت عليه فيها، عندما أقدم على تحطيم الصورة.

صعد إليهما عمر أفندي محاولًا أن يهدئهما، ولكنه لم يفلح في أن يطرح أمامهما فكرة معينة حتى يتفهما الحقائق.

عندما عاد إلى مبروك، قال:

- «سيبهم في حالهم يا حبيبي، البنت فعلًا حلوة، لكنها سليطة اللسان ومتمردة. أخذت تلعني وتقول إني مسلم ملعون.. أنا اللي ضايفتها وحميتها! هما الاثنين مجانين، وحيظلوا بالشكل ده لغاية ما نلاقي طريقة نرحلهم بيها بره البلاد. أخوها الشاب وصندوقه يمثلوا عقبة كبيرة قدامنا، بالتأكيد هو حيظن أننا حرامية، لو فكرنا ننقل الصندوق من هنا».

مع ذلك، في اليوم التالي، عندما عرف أن المذبحة قد انتهت، أصبح الضيفان في حالة ذهنية أفضل، لكنهما مع ذلك لم يغادرا غرفهما الخاصة، بل جلسا معًا على الأرض مستمرين في النقاش وفي حالة من الرعب.. بالاستفسار، اتضح أن لهما أصدقاء أثرياء في بيروت، كذلك لديهما المال الكافي؛ لكي يدفعا ثمن التذاكر، لذلك أسرع عمر أفندي بإيفاد خادم إلى الميناء؛ لكي يحجز لهما مكانًا على أول سفينة مغادرة، وهنا أصبح مقدار اهتمام حبيب بصندوقه مشكلة عويصة. اعترف أن هذا الصندوق يحتوي داخله على حاجيات، لا تقدر بثمن، وكلها ملك لرئيسه، فاقترح عمر أفندي أن يتم عمل حفرة كبيرة في الرمال، يدفنون داخلها الصندوق، إلا أن الشاب هزَّ رأسه، قائلًا:

«إن هذا الصندوق في حاجة إلى جهد اثنين من الأقوياء لحمله، ومن ذاك الذي يخبئ كنزًا أمام شهود؟».

قال التركي بخبث: «يمكن أنا وانت نشيله، كل واحد فينا بالدور»، ولكن هذا الجبان ابتعد عنه معبرًا عن شكوكه بشفاه جافة.

أخيرًا استطاع عمر أن يجري بنفسه اتفاقًا، مؤداه أن يتم إيداع الصندوق في القنصلية اليونانية، ويتم الإعلان عن محتوياته، ثم يأخذ حبيب إيصالًا بذلك. ورغم تعرض القنصل إلى جرح بالغ أثناء الشغب، إلا أن العمل في مقره استؤنف بعد انقضاء يوم، وقد قدم مندوبه مزيدًا من الشكر للتركي؛ لأنه استطاع أن يحمي بعض المسيحيين، واستطاع أن يحمي وديعة شخص معروف من الرعية اليونانية. وخوفًا من تجدد الاشتباكات، تم تدبير قيام صغار العاملين بالقنصلية اليونانية مع أهم المستندات والممتلكات الثمينة، بالانتقال إلى سطح السفن لتوفير الحماية والأمان.. هذا وقد استبقى قناصلة إنجلترا، وروسيا وإيطاليا في أسرتهم؛ بسبب تعرضهم لجروح خطيرة.

عندما أبدى حبيب اعتراضًا مجددًا بسبب التفريط في صندوق رئيسه، أقدم عمر أفندي على إزاحة مظهر الضيف الشهم جانبًا، واستخدم لهجة مسيطرة زاعقة وعنيفة، انكمش، على إثرها، ذلك المضطرب المسكين في نفسه، كأنما قد شاهد أمامه ذئبًا يشحذ أنيابه للافتراس، ومنذ ذلك الحين، كان خاضعًا تمامًا لكل ما يؤمر به، بأطراف تكاد تكون مشلولة وعاجزة تمامًا.

بعدها، تم نقل الصندوق أمامه بواسطة اثنين من الحمالين الأقوياء إلى القنصلية، وعند عودته أظهر إيصالًا بالاستلام، وهو يلقي بنظرة حزينة على قطعة الورق هذه، التي أعطيت له مقابل ثروة طائلة، ثم قام نائب القنصل بمصاحبة هذا الشاب مع أخته، حتى ظهر سفينتهم، تلك التي كانت مزدحمة حتى آخرها بالمهاجرين.. أخذت حلاوة في الربت على كتف مبروك عند الرحيل، حامدة الله بسبب طيبة قلبه وحفظه لها أثناء تلك الأحداث المرعبة، ولكنه كان يعلم جيدًا أن قلبها كان يرفرف بالسعادة لرؤيته للمرة الأخيرة. وفي الحقيقة، كان كل هذا واضحًا في مجال فكره وذكائه، إنها لم تحبه أبدًا، ولم تشعر بحبه لها منذ البداية، فقط استمالته لتحقيق أغراضها، ومع ذلك، لم يشعر مبروك بأسف بالغ لأن ما فعله، سمح له أن يصنع خيرًا مقابلا لذاك الشر، الذي ارتكبه منذ عدة شهور في قرية كفر زين.

على الرغم من أن الأمن قد استعاد سيرته الأولى، إلا أن شوارع الميناء فشلت في استعادة بهجة الحياة السابقة، فقد كانت معظم المحلات وأماكن العمل مغلقة، بينما فصائل الجيش تجوب شوارع الحي الإفرنجي، أما المخربون النهابون، فإنهم عندما أدركوا ما يحدث، سارعوا بالهرب خوفًا من الانتقام والاعتقال، واختبأوا في القرى المجاورة، أو انسلوا خلسة إلى بيوتهم بالاثنين والثلاثة، لقد انتهت مخاوف الأجانب لأن من يحكم ويسيطر على المدينة هو الجيش، وكل جندي منهم هو أداة طيعة في يد الرجل القوي عرابي.

لكن الأخبار الواردة من العاصمة ظلت تتصاعد في مدى خطورتها، فبينما يتهم ممثلو القوى الكبرى أحمد باشا عرابي، باعتباره متواطئًا في هذه المذابح الحديثة، كان السلطان التركي مسرورًا ومهتمًا بتكريم هذا الفلاح- الجندي؛ لذا أنعم عليه بأعلى الأوسمة المجيدية، وهذا كانت له دلالة معينة، هي: إن الباب العالي سوف يعاون المتمردين، إذا دعت الظروف إلى قيام حرب.

صرَّ عمر أفندي أسنانه عندما استمع لذلك، حقًّا، لم يكن درويش باشا واحدًا من أصدقائه، لكنه طالما مدح ذاك الرجل بسبب تعقله وبراعته.. لكن أليس من الأمور الشائنة تلك التي يتعرض لها مندوب السلطان في القاهرة، وأن يتعرض للإهانة والنهر من كلا الطرفين، ولا يستمعان إليه أبدا، ذاك الذي يمثل مندوب خليفة النبي، الممثل لأعظم القوى في العالم؟ ثم ها هوذا الآن يمجد ويرفع من قدر وشأن هذا الفلاح، في مثل هذا الوقت!

إنه لم يعد قادرًا على تحمل شكل كل هذا الاختراقات؛ لذا قرر أن يرحل فورًا إلى إسطنبول، لقد كان قرار رحيله مفاجئًا، واستطاع مبروك بالكاد أن يدرك معاني ذلك، حتى رحل التركي بالفعل.

ثم، عندما، وقف يراقب السفينة وهي تغادر الرصيف، أدار وجهه ناحية القلعة، تلك التي سوف تصبح منذ الآن مقره الدائم، وهنا بدا له العالم كأنه
بلا طعم أو معنى.

كان رحيل التركي سببًا في تخفيض وتقليل شأنه وقدره بأكثر من اتجاه واحد. وبغض النظر عن استبدال محل إقامته، من قصر منيف إلى حجرة ضيقة في قلعة (أدا)، إلا أن هذا جعله يشعر أيضًا بالفرق في معاملة رؤسائه من الضباط. لقد رحل راعيه من البلاد؛ لذا ليس هناك أي داع للرفق والربت عليه؛ لهذا انهالت عليه الأوامر، مماثلًا لكل زملائه من رتبته، وانهمك في العمل الجاد المضني.

كان عرابي يضمر أن يعيد إصلاح وتجهيز وتزويد قلاع الإسكندرية، وكان لوصول قطع الأسطول الأجنبي داعيًا لتذكيره بأن تلك القلاع ليست بهذا القدر من الكفاءة والقدرة على الدفاع والحراسة؛ لذا تم دفع هذه الأعمال بكل جد ونشاط، فكانت كل القوة، داخل كل قلعة، بجميع أفرادها يعملون على شكل ورديات متتالية، وهذا كله يحدث أمام أعين المراقبين فوق سطح سفن الأسطول الإنجليزي والأسطول الفرنسي، على مرمى البصر من هؤلاء المجتهدين المجهدين، الذين كانوا يطلقون الضحكات بين الحين والآخر، مع إلقاء نظرة ليست خالية تمامًا من الخوف والقلق.

في كل صباح، خلال هذا الأسبوع، جلس مبروك خارجًا تحت ساتر مؤقت، يراقب ويضبط عمل مجموعته، التي تعمل فوق الجدار البني المرتفع، الذي ينحدر تدريجيًّا حتى مياه البحر الصاخبة، وهو سعيد بتلك النظارات المعظمة، التي توجه نحوه من واحدة من تلك السفن. وعندما يكون خارج نطاق الخدمة، كانت لديه فرصة لكي يقضي وقتًا برفقة ضابط من زملائه يجوسان فيه على رصيف الميناء، يذهبان حتى محطة القطار، أو يرقبان مسلك ومناورات سفن الأعداء.

بالنسبة للأجانب من النصارى، كانت تلك هي الفرصة المناسبة للهروب الجماعي. كل قطار وافد من العاصمة، كان يحمل كثيرين من الإفرنج واليونانيين والسوريين، الذين انحصر كل همهم في الهرب بالصعود إلى ظهر إحدى السفن فورًا، وقد كانت تلك صورة لطيفة ومحببة إلى قلب أهالي الإسكندرية، الذين أبدوا ملاحظة، مفادها «الله أكبر! من كان يظن تواجد كل هذا العدد الهائل من الكفار في العالم!».

أما السفن، فإنها كان مزدحمة حتى آخرها بالركاب، والسيدات ذات الحسن والجمال، اللائي كن يركعن على ركبهن أمام قباطنة السفن الخشنين، الذين – على الرغم من نفورهم - يرفضون اصطحابهن، كما كان هناك المئات الذين تركوا على الشواطئ، متوقعين أن يتعرضوا للقتل في أي لحظة، بينما كانت المظاهرات تجوب الشوارع غير ملتفتة إليهم.

في يوم، عندما كان مبروك يسير في اتجاه محطة القطار، لاحظ أن هناك حركة عامة غير عادية، تجري في اتجاه سيره نفسه، وسمع همسًا يقول: «أفندينا حضر». كان المسير حتى المحطة خانقًا بسبب تجمهر النظارة، الكل يضغط ليشاهد، ما عدا مسافة حول بعض العربات، التي حفظت خالية بواسطة مجموعة من الجنود. كان الجمهور هادئًا، وسمع مبروك حركة القطار وهو يتوقف، وبعد ذلك بدقيقة واحدة، شاهد الخديوي يتقدم إلى الأمام، بصحبته عدد من ضباط البلاط، وفي

وسطهم كان يسير سعيد بك رمضان، فهذا المخادع العجوز استطاع أخيرًا أن يكتسب جائزة خضوعه وتبعيته، التي تشبه وفاء الكلاب، وهو الآن دومًا في معية سيده المحطم.

كان محمد توفيق يسير بكل وقار، لا يهتم بالجماهير المتراصة، وصعد في الحال إلى مركبته، وتحركت به على الفور، بينما هناك عدد من سائقي الجياد، الذين يتسابقون أمامه ليخلوا له الطريق. وعندما اختفى عن الأنظار، كسر الناس حالة الصمت بترديد كلمات معينة، تدل على التعاطف، «أفندينا! الراجل ده انتهى. لكن على الرغم من كل شيء، هو إنسان عادل! صعب على هذا المسكين أن يتحمل كل هذا! يا ريت ربنا يرحمه ويقف معاه!».

كان قدوم الخديوي ليستقر في قصره بمنطقة الرمل – على الرغم من أنها كانت حركة محل انتقاد لاذع من عرابي؛ باعتبارها عملية هروب، للاحتماء في أحضان أعداء البلاد - مصدر راحة للجنود، الذين كانوا يعملون جاهدين في تجهيز القلاع؛ إذ كان الخوف يترصدهم خشية قيام رجال الحرب من الإنجليز والفرنسيين، الذين صوبوا مدافعهم نحوهم، بإطلاق هذه المدافع عليهم بكل خسة ونذالة.. لكن أفندينا، وهو الرجل الطيب التقى المحب للفقراء، هؤلاء الفرنجة هم من حلفائه، وسوف يصنعون كل ما يقال لهم.. من الأمور المؤكدة أنه سوف يمنع إلحاق أي أذى بهؤلاء الجنود المساكين؛ الذين يتصفون بالبراءة والصيت الحسن.

ثم انطلقت صيحة عارمة، انتشرت في جميع القلاع.. لقد حضر عرابي أيضًا، إنه وسطهم، ذلك الجندي الفلاح، المصري العظيم؛ لذا وهم وسط أفندينا وعرابي، فليس هناك أي مبرر للخوف.

أراد الأدميرال الإنجليزي، المدعو سيمور، أن يتدخل فيما يجري داخل القلاع من إصلاحات وتجهيزات؛ لذا داوم على التحذير - مرة بعد أخرى - بضرورة التوقف عن كل ذلك. وقدمت مطالبه هذه أولًا إلى أفندينا، ذاك الذي أرسلها بالتالي إلى عرابي، ولكن هذا لم يبال أبدًا بهذه المطالب؛ فهل هذا من سيمور في شيء؟!

بعدها، أرسل سيمور تهديدًا بأنه سوف يضرب كل القلاع، إذا لم يتوقف العمل فيها على الفور.. فغر الرجال أفواههم، وهم يسمعون ذلك، ولكن كان من المعروف أن هذا ليس سوى تهديد فارغ، ألم يقسم جلادستون والفرنسيون بأن السفن الإنجليزية والفرنسية لن تتسبب في إلحاق أي أذية بإنسان؟ قدمت هذه الأساطيل لكي تحمي أفندينا، وأفندينا بالتأكيد ضد ضرب القلاع. ثم عندما

تحركت سفن الأسطول الفرنسي راحلة، ولم يتبق أمام المدينة سوى سفن الأسطول الإنجليزي، وضح تمامًا مدى الغرور في تهديدات سيمور؛ فهو بالتأكيد لن يجرؤ على التصرف بمفرده.

لكن لم يمر وقت طويل، قبلما ينتشر خبرًا يقول إن كل الرعايا الإنجليز قد غادروا الإسكندرية؛ حيث صدرت لهم الأوامر بأن يصعدوا فوق ظهر السفن؛ ثم في وقت متأخر من الليل، صدر أمر من عرابي، موجهًا إلى القلاع، راجيًا فيه الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد لتوقع أسوأ الأمور.

***

الفصل الثاني والثلاثون

في وقت الفجر المبكر، هدرت أصوات الأبواق في قلعة (أدا)، وتردد مثلها أيضًا في قلاع أخرى عبر المياه، وفي ظرف عشر دقائق، أصبح كل رجل تحت السلاح.. تمت بعد ذلك صلوات الفجر والسجود لله طبقًا للرتب؛ حيث تراص الضباط في المقدمة خلف الأمام، بعدها طار جنود المدفعية واتخذوا مواقعهم؛ أما رجال المشاة - وقد كانت هناك فرقة كاملة منهم داخل القلعة - فقد اصطفوا في الساحة، منتظرين صدور الأوامر، وكان لخمسين فردًا منهم مهام محددة؛ أما الباقون، فقد أمروا أن يكونوا تحت إمرة رؤسائهم، وأن يظلوا جميعًا داخل مأوى قريب من مخزن الذخائر، وبذلك يبتعدون عن المزاغل، أما مبروك، ومعه عشرة آخرون، فقد تلقوا أمرًا بأن يكونوا تحت تصرف الطبيب الجراح. وضح الفجر بكل سناء، بينما كان مبروك ينتقل هنا وهناك يغلفه الرجاء والأمل، على الرغم من الطبيعة القاسية، التي لازمت موضوع الاستعدادات.

لكن ما أن أشرقت الشمس، وأصبحت ظلال الأعمال والرجال محددة وواضحة تمامًا، حتى برقت أشعتها كاشفة عن أحجام ضخمة من الدخان، المتصاعد حثيثًا في مسالك الهواء الساكن، وسهل على الجميع التحقق منه فيما بعد الاستحكامات، لقد كانت موجات متتابعة من الدخان الكثيف تتلوى وتتلاعب مع أشعة الشمس، وبدت كأنها أعمدة فارعة، تمثل جنيات ذات شكل مريع ومخيف؛ إذ ظهرت كأنها سيقان طويلة مشرعة عبر صحراوات الجنوب، تنطلق كلها من فوهات مداخن هذه القلاع العائمة، ثم تلوت فجأة قليلًا، وتدفقت مندفعة في اتجاه البحر.

أصبح معلومًا حينئذ أن هذه السفن قادمة في اتجاه القلاع، كما أصبح الشد العصبي الذي تعرض له الجنود فوق الطاقة، ومن هؤلاء الذين استبقوا غير عاملين في مخبأ مجاور لمخزن البارود؛ حيث كان البعض منهم يضحك، والبعض الآخر يبكي بشكل هستيري، مع تظاهر بأنهم يتبادلون النكات، ثم انطلق صوت انفجار هز أركان العالم كله. أرسل الرجال صيحات ابتهاج وارتياح؛ إذ لقد انتهى وقت التوتر، ثم تابع ذلك انفجار تالٍ، ثم آخر، وبعدها تناثرت الأحجار والرمال حول مبروك، بينما هو يسرع مع مجموعته لالتقاط أول المصابين.. أدرك الشاب أن ساعته الأخيرة قد حانت، وعلى الرغم من ذلك لم يشعر بالخوف؛ فالمكان كله له جدران كثيفة قوية صلدة، وليس هناك مهرب: هو وجميع من في الداخل، جميعهم وديعة في يد الله.

كانت مدافع القلعة تتحدث بغلظة في ذلك الحين، بينما ترد عليها مدافع المدمرات بتحد بشع عنيف، بينما كانت مداولات القلاع الأخرى تملأ كل فراغ ما بين الصدمات.. أصيب مبروك بالصمم، كما شعر بالارتجاج يشمل رأسه حتى قدميه، ومع ذلك استمر في أداء عمله بكل اجتهاد؛ مما جعله مندهشًا من نفسه. بدا هذا الموقع الحصين كأنه يتزلزل من أساساته، الدخان المحيط به يصرخ، يبدو كأنما هو سرب كثيف من طيور بحر منزعجة، إذ كانت القنابل تندفع عاليًا، ثم تنفجر في جدران القلعة بلهجة، استطاعت أن تغطي تمامًا على تشنجات الموت.

فقد مبروك أي قدرة لتحقيق الوقت أو الزمن، وشعر كأنه قد فارق الحياة، وأن من يؤدي أعماله هو رجل آخر، فقد بدت كل الوجوه حوله غريبة في مظهرها، متجهمة بشكل يفوق العقل.. العالم كله غاطس في سواد قاتم؛ بسبب ذلك الدخان الكثيف المتصاعد، والوميض المتكرر الذي يشبه خيوط البرق في يوم عاصف، لقد أصبح دوي الرعد مستمرًّا زاعقًا لا يتوقف، ولم يعد عمله أيضًا تافهًا.. كانت صرخات الجرحى تصدر من كل مكان، أما الموتى فكانوا يشغلون الطريق؛ لذا قام مبروك باستدعاء عشرة رجال، ومع ذلك، استطاع أن يتماشى بالكاد مع ما هو مطلوب عمله.

داخل القلعة، تم إسكات ثلاثة مدافع، وبينما أراد مبروك أن يخلي مكان مدفعجي محترق ومشوه، استطاع لمدة ثوان، من خلال الزغلة أن يلمح جدران ثلاث سفن ضخمة والدخان يكاد أن يخفيها عن الأنظار، والبحر مظلم، يبدو عليه كأنه يرتعد، ثم برق أمام عينيه ضوء مبهر، أعمى ناظريه، وبعدها اهتزت القلعة بأثرها. صاح الضابط الأعلى خلفه: «ارجع يا مجنون!»، لذا تراجع مبروك سريعًا حاملًا جثة المدفعجي، وتقدم نحوه الطبيب الجراح، وهو في حالة من الجنون، وبصق عليه، وضربه على وجهه، موجهًا له بعض الشتائم بسبب تعريض نفسه للخطر، بلا فائدة ترجى. في تلك اللحظة بالذات، بدت القلعة كأنها قد انقسمت إلى نصفين، وارتفع ينبوع من اللهب، قافزًا إلى أعلى، في وسطها تمامًا؛ ولحق ذلك سقوط جبل، وتبع ذلك صمت مميت، على الرغم من أن المدافع كانت ما زالت تدوي.

صاح الطبيب، وهو يحتمي بمبروك: «يا ارحم الراحمين! مخزن الذخيرة انفجر. دول تلتميت شخص جوه، يا رب ارحمهم.. يا دي المصيبة، يا دي البلية!».

تشبع الجو بالرمال والدخان الكثيف؛ مما جعل الظلام شاملًا، ثم وهما يحميان عيونهما، ترنح الاثنان متجهين إلى قرب مسرح الفاجعة، فقابلا في طريقهما رجلًا غارقًا في دموعه، إنه قائد الطابية الذي كان يصيح عاليًا: «يا رب، خدني عندك! يا رب سامحني لأني انتظرت الأوامر، كل

دول ما لهمش أي شغل هنا؛ ما كانش ليهم أي فايدة. إيدي أنا هي المسئولة عن دمهم المسفوك! وأنت
يا مبروك، وكمان أنت أيها الحكيم الطيب، انجوا بنفسكم! روحوا لمحمد توفيق، الخاين الجبان، خبروه عن العمل الشرير، اللي عملوه فينا أصحابه. وأدعو من الله أنه يخرب بيت هذا القاتل المتوحش، سيمور الشرير، يا مسلمين، إحنا اتظلمنا من غير ذنب جنيناه!».

كان ما يزال هناك بعض المدافع في القلعة، ترد على النيران الكثيفة المنطلقة من سفن الحرب، بينما مبروك والطبيب وآخرون - بينهم بعض المصابين، يغطيهم الغبار والسواد - يهربون سالكين الطريق المؤدي إلى منطقة الرمل، وسرعان ما وجدوا أنفسهم ضمن عدد أكبر من الجنود الغاضبين، يتجهون كلهم إلى مكان تواجد الخديوي. وعلى الرغم من أن الساعة، ربما كانت الثانية ظهرًا، إلا أنه كان يصعب تحديد مكان الشمس في السماء، وهي مختبئة وراء سحب كثيفة منخفضة، وكانت آثار هذا الإظلام تنعكس على البحر، بينما يظهر الدخان المتكاثف حول السفن والقلاع بلون أبيض بالمقارنة، لقد كان الدخان ينبعث عاليًا في منطقتين من المدينة ذاتها، مظهرًا أن هناك أضرارًا كثيفة قد لحقت بهاتين الجهتين.

سارت تلك الجمهرة المجهدة، بينما تغلفهم سحابات من الرمال والغبار، لكن غضبهم تبدد قبل أن يصلوا إلى باب قصر الخديوي، مخلفًا نوعًا من مشاعر الغم والكرب بديلًا عن ذلك.

كان ملخص صيحاتهم: «يا أفندينا! شوف ازاي بيخلصوا علينا. يا أفندينا، ارفع عنا الأيدي الغليظة لهؤلاء الكفار! تحدث إلى سيمور بأن يتوقف فورًا عن عمليات القتل هذه! أوه، إنه أمر قاسي ووحشي! إنه ذنب عظيم أن تتركنا لقمة سائغة بين يديه! لا تتخلى عنا أبدًا يا سيد المروءة، وإلا عَلِمنا أنك إنسان شرير، وسوف نكرهك من أجل ذلك».

بسبب هذا الشغب والتظاهر، ظهر عدد من ضباط البلاط من باب جانبي، كان من ضمنهم سعيد بك رمضان، وعلى وجوههم إمارات الامتعاض.. قام هؤلاء بعد ذلك باختيار عدد، ممن شعروا أنهم ضباط، واستدعوهم ليدخلوا القصر لعرض مطالبهم. أما الباقون، وهم في انتظار عودة مندوبيهم، فقد جلسوا متعبين على الأرض، بل واستغرق البعض منهم في النوم فورًا، واضعًا وجهه بين يديه.. أخيرًا عاد المندوبون، وقالوا إن الخديوي تأثر للغاية بما جرى لهم، وأقسم أنه سوف يتوجه بنفسه لمقابلة سيمور.. لقد تم إرسال طلبة باشا، لكنه لم يكن محملًا بشيء محدد، أما الآن، فإن جلالته سوف يتوجه بنفسه، راجيًا إعمال الرحمة.. وهنا تصاعدت غمغمات الحمد

والشكر، وولى معظم المتظاهرين وجوههم نحو المدينة؛ بينما قلة منهم - من ضمنهم مبروك والطبيب - آثروا أن يظلوا في أماكنهم؛ حتى يستريحوا لأنهم كانوا يشعرون بتعب قاتل.

نام مبروك وزملاؤه تقريبًا حتى المغرب، واستيقظوا منتعشين؛ ليستمعوا إلى صوت الضرب، الذي كان ما يزال مستمرًّا. قام خادم رءوف بالقصر بمدهم بالطعام والشراب، وعادوا إلى قلعة (أدا) بنوع من الشجاعة المتجددة بعد حلول الظلام، فوجدوا أن القلعة أصبحت حطامًا، وهناك أنات وصيحات ضعيفة، تصدر من خلال ثنايا هذا الخراب، كما أنه لم ينجُ أي مكان من التدمير، سوى جانب واحد، كان يبرق داخله ضوء؛ حيث تجمع عدد من الناجين يتشاورون.

تعب مبروك واجتهد ومعه الطبيب طوال الليل، وهما ينتشلان المصابين، ويتخذون الخطوات اللازمة لنقلهم، كما عرف مبروك أن «عرابي» سوف يخلي المدينة صباح اليوم التالي، وأنه لن يترك وراءه جنديًّا مسكينًا فيه بارقة حياة؛ لكي لا يتعرض لمهانة هؤلاء الكفار.

عندما توقف إطلاق النار، اختفت السحب تدريجيًّا، والآن تبرق النجوم بضياء غير معتاد، ساطعة بشكل يجعل المرء قادرًا أن يكشط النار من فوق سطح المياه. أما قلعة فاروس، فإنها أصبحت كومة من الحطام، وأصبحت منارات مسجد الجنود بلا وجود لها. كانت النيران ما زالت مشتعلة في منطقتين في المدينة، ولكن هبات الدخان والشعلات بدت كأنها بلا معنى أو أهمية، بل وتقريبًا تبدو هزلية بالمقارنة برعب ووحشية ما حدث نهارًا. وبينما كان مبروك يعمل جاهدًا وسط الأنقاض، استطاعت أذناه أن تلتقط بعض عبارات الأغنيات المرحة، التي تصاعدت من فوق أسطح سفن الحرب الإنجليزية، موضحة مقدار فرح وبهجة هؤلاء السفلة، بما أنجزوه من عمل.

***

الفصل الثالث والثلاثون

بدأ الانسحاب قبل انقشاع أول ضوء من فجر اليوم التالي، ولكن «مبروك» ومعه الطبيب اضطرا إلى أن يؤجلا رحيلهما حتى حلول فترة الظهر؛ حيث كانا مشغولين بسبب صعوبة تدبير عربات لنقل الجرحى، فكل الطريق المؤدي إلى كفر الدوار كان مشغولًا بشكل كثيف بالجنود، ومعهم عدد من الهاربين من أهل المدينة، يتسابقون جميعًا، وهم مغلفون بالهباب والغبار الأصفر.. كانت عربات نقل الجرحى كثيرًا ما تنزاح جانبًا لكي تدع قطارًا للبضاعة يمر، أو، ربما تكون تلك بطارية ميدان خفيفة، بينما يلوح السائقون بسياطهم في الهواء، ويمتص جنود المدفعية البرقوق، ويطوحون بالبذر على الجماهير الزاحفة وهم يضحكون.

من ضمن الهاربين، كان هناك كثير من الأشرار، الذين ربما يشعرون بالسرور إن استطاعوا أن ينهبوا هذه العربات، وأن يطوحوا بهؤلاء الجرحى ويلقونهم في الطريق؛ لكي يتسنى لهم أن يحتلوا أماكنهم بدلًا منهم، ليسافروا في راحة ويسر؛ لكن كانت هناك بقية من الرجال الذين كانوا قد عاونوا «مبروك» خلال اليوم السابق، وما زالوا متعلقين به، وتلك العصبة البسيطة من الحراس كان فيهم الكفاية لأداء مهمة تثبيط همة هؤلاء النهابين المجرمين، فقد كان التخريب هو العلامة البارزة لهذا اليوم؛ حيث شوهدت مجموعات متخصصة، يعملون بهمة في تدمير خط السكة الحديدية، الذي يسير لمسافة معقولة، مجاورًا للطريق العام، كما يحطمون أعمدة التلغراف ويقطعون الأسلاك؛ ثم حالًا، وسط تلك الجموع التي تغذ السير، راجت صيحة تردد: «يا الله في علا السماء، هوذا المدينة كلها تحترق!».

في الحقيقة، كانت هناك سحب من الدخان تتصاعد بكثافة في السماء؛ مما يوحي بأن هناك حريقًا هائلًا يدمر المدينة كلها؛ لذا كان الناس الذين غادروا منازلهم ينوحون عاليًا، ويمزقون ملابسهم لاعنين من حرق مدينتهم، ولكن واحدًا منهم، كان على علم بمجريات الأمور صاح، قائلًا: «الحريق في الحي الإفرنجي بس، وده عين العدل اللي أصابهم بسبب أعمالهم الوسخة!»، وعند هذا، تحولت الدموع إلى صيحات، تتوجه كلها لله بكل الحمد والشكر.

بقرب بلدة كفر الدوار، حيث تشكل الآن مظهر لمعسكر منتظم، أخذ مبروك في مراقبة مدى توغل الحريق البعيد عن الخطوط الدفاعية، وهناك شعر بالراحة لتواجد عدد من المدربين في مجال الإسعافات والتطبيب؛ لذا توجه لكي يجلس بجوارهم، تحت سد يقع بجوار البحيرة؛ حيث

شاهد عبر هذا السطح الوافر من المياه اللامعة، طيور البحر بأجنحتها البيضاء وهي تحلق فوقها، كما لاحظ أيضًا منطقة الميناء، التي أصبحت معتمة تحت خيمة ضخمة من الدخان، لها قمة بيضاء متموجة، تشبه سحب الصيف في شكلها. ومن قتام سطح معين، لاحظ مبروك اندفاع لهب شرس، يندفع مرة من هنا، ومرات من هناك، يقذف عاليًا بصفوف من المنشآت بوضوح مدهش. ومع هذا، وعلى طول الجسر، ارتفع غبار الانسحاب.

كان مبروك وجماعته فاردين أطرافهم أمامًا اجتلابا للراحة، منهمكين في ترديد وجهات نظرهم، وفيما أحدثت فيهم تلك الأحداث والمناظر، عندما برق فوقهم خوار غاضب، يزعق:

- «قوموا على حيلكم يا كسلانين! الله يخرب بيوتكم! ما فيش شغل تعملوه؟»، كان هذا صوت أمباشي تابع لسلاح المهندسين، لكن ما أن شاهد وسطهم ضابطًا، حتى خفض من حدة لهجته، وقدم رجاء إلى مبروك أن يسرع مع مجموعته؛ لكي يساعدوا في إنشاء التحصينات، فسارع هؤلاء الكسالى، وهم يشعرون بالإحراج، في الاتجاه إلى المكان المشار إليه.

في هذا المساء بالذات، هبط رجال البحرية من الإنجليز إلى الإسكندرية، وانهمكوا في إقرار الأمن وإطفاء جذوة النيران، وبجهودهم هذه، أمكن لهم أن يستبقوا تلك المدينة في نطاق حكم الخديوي، بينما كانت بقية بلاد القطر تحت حكم عرابي.

الآن، هو ذا عرابي يقف صامدًا أمام العالم كله، لا يهمه شيء سوى الاحتفاظ بعظمة مصر، فقد طلب منه الخديوي أن يفسر لماذا سحب الجنود من الإسكندرية، ولماذا قطع كل سبل الاتصال والتواصل بين هذه المدينة وبقية أرجاء مصر، ثم أعلن عن عزل عرابي من منصبه، وكذلك اعتباره متمردًا. في المقابل، أعلن عرابي ومعه مجلسه أن جلالته عبارة عن خائن؛ لأنه وقف بجوار من قتل شعبه.

ولكي يعلم الجميع مدى قوة عرابي وسطوته، قرر عرابي أن يصدر أمرًا إلى كل مدراء المحافظات بأن يصدروا أمرًا، بالتالي إلى عمد القرى التابعين؛ لكي يمدوا الجيش بعدد ثلاثين ألفًا من الرجال، شاملًا في ذلك كل خفراء القرى، المعروف عنهم أنهم يعلمون شيئًا عن النظام والانتظام، كما كلفهم أيضًا بأن يجبوا مالًا كافيًا لتمويل عملية الدفاع في هذه الحرب. صفق الجيش لهذه الإجراءات، ولكنها أيضًا بسطت ونشرت نوعًا من اليأس في أوساط القرى، القائلين بأن هذا فعل يؤكد تواجد سيد حقيقي، لا يماثله أحدًا تحت صفحة السماء، وحتى ذلك التحريم، الذي أوقعه

خليفة المسلمين على المغتصب، لم يستطع أيضًا أن ينزع عنهم مدى حماسهم؛ فقد كان واضحًا أن السلطان العثماني قد تعرض لضغوط شديدة من القوى الأوروبية؛ لكي يدين هذا الرجل، الذي كان قد كرمه منذ أمد بسيط. لذلك كله، اجتهد الجنود في عمل شاق بعزيمة جادة؛ لاستكمال تلك الأعمال الضخمة، التي أمر بتنفيذها قائدهم الأكبر؛ حيث بادروا بإنشاء سلسلة من التحصينات من كفر الدوار، حتى نقطة على شاطئ البحر، مع غرس عدد من خطوط التلغراف، بينما تدفق عدد كبير من المجندين إجباريًّا، قادمين من كل أنحاء مصر.

لم يشاهد مبروك سوى عملية الشروع في هذه الأعمال الجبارة؛ لأنه مع شروق اليوم الرابع من تقهقره من الإسكندرية، وجد نفسه فوق صهوة جواد، كقائد لمجموعة صغيرة من الجنود، ممتطين جيادهم التي جلبت كذلك من إسطبلات البلدة؛ فقد وردت أنباء وصلت أسماع القادة في كفر الدوار، توضح مدى قدرة مبروك على الاحتفاظ بأعصابه، أثناء فترة القصف بالقنابل؛ لذا وجد نفسه وقد حصل على ترقية إلى منصب يوزباشي، وتم تكريمه بأن يترأس هذه المجموعة الصغيرة من الجنود. كانت مهمته هي أن يتجسس المناطق والقرى الريفية، التي تقع في المناطق الشرقية حتى النهر؛ لكي يتأكد من تقدير ثروات ومصادر دخل كل قرية في هذه الأنحاء، بغرض أن تساهم كل منها في مسألة إمداد الجيش بالطعام، وقد كانت مجموعته تتكون من عدد قليل من الأفراد، يسهل قيادهم بسبب قلة خبرتهم. مع ذلك، عندما يكون بمفرده معهم، يظن أنه من الحكمة أن يبدي تسامحًا في معاملتهم، معتذرًا عن قسوته، التي ظهرت في البداية، عندما لم يكن يفكر في أي شيء، سوى أن يجعل قادته مسرورين منه.

شيء جميل ورائع أن يشعر مبروك بحريته مرة أخرى، وأن يمتطي ظهر جواده في يسر وخفة، وهو يختال بين حرجات النخيل في وقت الصباح البارد؛ لكي يتبادل الآراء مع الفلاحين، ينظر إلى البنات، وهن يحملن أحمالًا فوق رؤوسهن – ذوات الجمال العنبري بلونهم البني، يخطرن أمامه بأرداف تهتز، وصدور تترجرج. وما بين أعواد النخيل، يلقون نظرة على بحيرة «أبو قير»، التي تزدان بالأشرعة البيضاء، لقد كان هؤلاء المتجولون ينشدون ويضحكون بلا سبب.

قبلما تشتد حرارة الشمس وتصبح متعبة، استدار مبروك ومجموعته متوجهين إلى قرية، وهناك استراح مبروك في غرفة الضيوف، بينما العمدة وكبارات القرية أمامه، والدموع تملأ مآقيهم محتجين بالقول أنهم لا يملكون شيئًا – لا يخزنون أي شيء من أي نوع، كيف إذًا يتمكنون من تزويد هذا الجيش الجرار بالطعام؟ أكثر من ذلك، مادام أن الخفراء قد تم تجنيدهم، فإن مخازنهم

سوف تكون
– عندئذٍ - عرضة للسرقة، وربما يختفي كل ما فيها بين يوم وليلة.

صاح مبروك بعنف: «آه يا ولاد الكلب يا كدابين! ده هو حديت المصريين المفروض أنهم يخدموا ويضحوا في سبيل وطنهم؟».

ما أن استمعوا لذلك، حتى زادت درجة بكائهم، وقال عجوز منهم، وهو يئن:

- «يا أفندم، إحنا ناس مسلمين، كل تُكالنا على الله، لكن من امتى هي جريمة إننا نعيش في الجهة دي من أرض مصر، وإننا نتعرض للعقاب، عشان بس يضيع مننا ولادنا وكل ما نمتلك؟ إزاي ممكن نرعى زرعنا وإحنا قليلين بالشكل ده؟
يا رب، بص علينا، إحنا اللي اتخربت بيوتنا!».

عند هذا، أمر مبروك في ثورته أن يجلدوا جميعًا؛ ولكن مجرد ظهور الكرباج في يد جندي، كان فيه الكفاية؛ إذ انحنى كل هؤلاء الكبار في السن، أرضًا أمام مبروك، يتعاركون في سبيل لحس حذائه، وصاحوا جميعًا: «خد كل ما نملك، كنا نتمنى من ربنا يكون عندنا أكثر، ما دام أنت يا سيدنا محتاج ليه».

طلب مبروك من منفذ العقوبة أن يتأنى قليلًا، ثم بدأ مرة أخرى في استجوابهم، ولكنه اكتشف للمرة الثانية أنهم ما زالوا يكذبون، وهذا يعارض ذاك؛ لذا أعطى الإشارة لأن يبدأ الجلد. صدر من هذا الحشد فحيح، وهذا يقع فوق ظهر ذاك، وتصاعد صراخهم، وكان مناسبًا أن يستمر الاستفسار في تلك اللحظة، لكن ظهر جندي، اسمه عباس، من رجال مبروك، طالبًا الإذن بالحديث معه على انفراد. لقد استطاع هذا الجندي أن يحصل على المعلومات المطلوبة فيما يختص بعدد البهائم، وكميات القمح المخزون في هذه القرية، عن طريق التحدث مع بعض نسوة القرية، وهنا نطق مبروك بحكمه الخاص بتحديد الكميات المطلوب توريدها للمعسكر من هذه القرية أسبوعيًّا، ثم أعطى العمدة شهادة مكتوبة؛ الغرض منها حماية القرية، من أي تفتيش لاحق، وقام هذا باستلام الشهادة بكل تردد، تصاحبها دموع ثخينة وصلوات ودعاء لله.

تم الانتهاء من أربع قرى بهذا النهج قبل غروب الشمس، وفي الخامسة استعدت الفرقة لقضاء ليلتها هناك، وفي ذلك الحين، استطاع الجندي عباس أن يكون دومًا في خدمة مبروك، يقف بين يديه بكل مهارة، لا تستدعي قطعًا أي معارضة.

ما أن أبدى رئيسه استحسانًا برجاحة عقله، حتى سارع عباس بالقول:
«يا أفندم، تسمح لي بكلمة معاك. إحنا مش خلصنا شغل انهارده بأحسن ما يكون؟ أنا قضيت مدة سنة في خدمة مدير كبير قبل التجنيد، عشان كده عارف إزاي الشغل ده يتعمل. أنا أقول لحضرتك الكلام ده بكل احترام وتبجيل: غلط إننا نبتدي من الأول بالكرباج مع الناس دي، على جنابك إنك تبتدي معاهم إنك الأول تتنحنح، تتوجع وتئن وأنت تعرض مسألتك، بكده تخلي الحقائق تظهر بالتدريج، مع تلميح من سيادتك بأنك قادر تنقذ أو تخرب بيوتهم، ثم تعطيهم وقت عشان يقدموا كل اللي عايزين يقدموه؛ لكن لا تجلد إلا المتذمرين أو اللي ما قدموش حاجة خالص، وبعد ما تاخد كل اللي اختاروا يقدموه، قدم أنت تقديرك بالطلبات اللي تعتقد أنها متناسبة مع حالتهم. إذا كانت طلباتك خفيفة، كده يفكّروا أن هداياهم بسطتك؛ وإذا كانت تقيلة، فهذا معناه أن هداياهم كانت قليلة. وبعدين، ليه جنابك تتعب نفسك بالشكل ده في حر النهار؟ اختار انت الساعة والمكان اللي تعجبك، واطلب من كل عمد الدايرة يحضروا عندك. وبينما هما في انتظار تشريف سيادتك، أنا اختلط بيهم وأراعي أن كل واحد فيهم مستعد يقدم الهدايا المناسبة. بكده أنت تغتني، والعمل يتم كما يجب. وسامحني من كلامي ده معاك يا أفندم».

أسعدت هذه النصيحة «مبروك» وتبع مسارها منذ ذلك الحين، ملاحظًا أن العمل بدأ يجري بكل يسر ونعومة، وشعر الفلاحون أيضًا بأن معاملتهم أصبحت أقل قسوة، عندما يتقدمون بعطاياهم، التي تخلصهم من توقيع العقاب. بذلك، وبكل سرور، مع قليل من الانتفاع الشخصي، قضى مبروك ثلاثة أسابيع في هذا الوسط الفلاحي، مكتسبًا كل الثناء؛ بسبب تحضره الرائع. مع نهاية هذا الوقت، دخل مدينة دمهنور، تلك التي تقع مساجدها ومنازلها فوق كوم عال عريض، يبدو كأنه جبل من تلك الأراضي الممتدة، وهنا صدرت له الأوامر بأن يقوم بمساعدة مدير المديرية، في تلك الصعوبة، التي ظهرت من قبل بعض العُمَد، الذين لم يستطيعوا، أو لم يريدوا أن يمدوا الجيش بأفراد للتجنيد.

هذا المدير - وهو رجل عجوز لطيف، كان يتساند قلبيًّا مع المذنبين - قام بمصارحة مبروك على انفراد بالقول: «والله، وبحق سيدنا إبراهيم الدسوقي، دي فضيحة بجلاجل! كل زبالة المدن يتطوعوا في الجيش عشان يسرقوا، عشان كده ليه إحنا نضغط على القرى، اللي خلاص ما فيهاش حاجة ممكن تتاخد؟ هل ده يحصل علشان دول ناس صابرين، وما يعرفوش يعبروا عن نفسهم.. أبدًا ما حصلش، حتى في أيام محمد علي أن ضريبة تقيلة تتفرض على الفلاحين والقرى بالشكل

ده، أو إنهم يتعاملوا بالغلظة دي، بص حواليك عن حالة البلاد، اللي حوالينا: ما فيش قانون يسري ويتنفذ إلا في المناطق اللي فيها جنود،

وما فيش عدل كمان. شايف، ما فيش أي مساعدة مقدمة لمصر، والسودان أصبح كله تحت إيد المهدي. ربنا وحده اللي يعلم إيه اللي حيفضل معانا، لما الغمة دي والجنون ده يزول عنا».

لقد خاطر هذا الرجل عندما تحدث هكذا - حتى ولو كان بشكل شخصي - أمام آخر لا يعرفه جيدًا، علمًا بأن عرابي كان قد أنشأ في العاصمة لجنة معينة، لها جواسيس في كل مكان، وهناك رجال مشهورون، كانوا معرضين للمساءلة، لمجرد كلمات صدرت من بعض ناشري الإشاعات.

لم يتأثر مبروك كثيرًا بتضرعات الرجل الرسمي العجوز، وابتدأ في التعامل مع هؤلاء العمد المتمردين، قاصدًا أن يفوقهم ذكاءً وحيلة، ومرة أخرى، أرشده عباس إلى الطريقة المناسبة للتعامل.

أكد له عباس أنه ليس مناسبًا أن يذهب إلى قرية معينة، ثم يطلب من كبيرها عددًا معينًا من الرجال، كانت أفضل الطرق هي أن يقبض على أكبر عدد من الرجال، الذين يعملون في الحقول أو يجدهم ما بين المنازل، ثم يتم استعراضهم في بيت العمدة، داعين أهاليهم المذعورين أن يشترونهم مقابل العدد المطلوب للتجنيد، لقد كان عباس هذا رجلًا أمينًا، يعلم جيدًا كيف يدير عمله بمهارة؛ لذا لم يمنع عنه مبروك الاستمتاع بنسبة من الأرباح، التي تراكمت بفضل نصائحه.

بهذه الطريقة، ومن القرى المحيطة بدمنهور، استطاع مبروك - ومعه بعض موظفي المديرية - من سوق ما لا يقل عن خمسمائة فرد من القادرين، تم قيادهم ليستقروا لفترة في مدينة دمنهور؛ حيث قام الخطباء والشيوخ والدراويش المهووسون بإلقاء المواعظ عليهم؛ لذا استطاعوا بهذا الحث المتواصل والتحذير والاستثارة التي صبت على رؤوس هؤلاء الفلاحين المذعورين، أن ينجحوا أخيرًا في جعلهم مجموعة من المجانين، المملوئين بحماس منقطع النظير ضد الكفار؛ فهؤلاء هم سبب كل ما عانوا منه؛ وبعد ذلك تم تخصيصهم، وأصبحوا جاهزين للانضمام إلى مختلف أنواع الأسلحة والمعسكرات.

تحدث مدير المديرية هذا بالحق، فيما يختص بالحالة المحزنة المزرية، التي آل إليها حال الفلاحين؛ فالطرق أصبحت تحت سيطرة المجرمين؛ وكل المال في البلاد تم دفنه، ويتم استخلاصه، كلما دعت الحاجة لذلك؛ مما تسبب في إغاظة مبروك، وحدوث تعطيل في مهمته؛ كما

أن الفلاحين وقد حرموا من خدمة الخفراء، أصبحوا معرضين دومًا لأن يلحقهم الرعب؛ بسبب نشاط قلة من الأشرار. لكن هذا الشاب احتفظ بإيمانه أكيدًا، فيما يختص بفضائل بسط الشعور العام بالوطنية، تلك الفضائل التي رفعت من شأنه شخصيًّا، فوق كل إحباط تعرض له سابقًا. وعندما حضر مبروك يومًا صلاة الجمعة مع رجاله، سمع الواعظ يدعو الله أن تنتهي هذه الحرب سريعًا، فضايقه هذا لأنه دعاء، ربما يدعو إلى الإذعان وتثبيط الهمم وخفض الروح المعنوية.

لم تكن مدينة دمنهور خالية تمامًا من مجموعات الوطنيين المتحمسين، وهم مجموعة من الشباب اليافع، الذين يفضلون ارتداء الملابس الإفرنجية، ويستخدمون بعض الكلمات الفرنسية في حديثهم باللغة العربية الفصحى، كما شاهد مبروك عناصر جديدة، تشبه ما كان متواجدًا في العاصمة، عن طريقهم أيضًا استطاع أن يستمع إلى أحدث ما يدور من أقاويل وإشاعات، نحو: لقد هبطت قوة كبرى إنجليزية إلى الإسكندرية، ومن المتوقع أن يحضر سير ولسلي؛ لكي يكون هو قائدهم الأعلى. لذلك، يمكن القول بأن هناك الكثير الذي يمكن تصديقه، ولكن «مبروك» لا يثق كثيرًا فيما تنشره الصحف، إنه يتذكر كيف أنه، مباشرة بعد ضرب القنابل المكثف على القلاع، أشار عرابي على الصحف أن تنشر ما ورد في تقريره الحربي، من أنه قد أمكن إغراق أربع مدمرات إنجليزية، بواسطة البطاريات المصرية. بهذا تقبل عرابي الثناء والشكر، الذي انهال عليه من رجال المدفعية، الذين ظلوا على قيد الحياة، وقد شاهد مبروك بنفسه واحدًا منهم ممسكًا بجريدة في يده، حامدًا الله؛ لأن العار قد تحول إلى مجد ورفعة.

لكن هذه الحالة أوضحت لـ«مبروك» أن عظماء بلده، إنما يراعون مقدار فضول العامة، واضعين مثل هذه الأخبار باعتبارها مفيدة في نظر الرأي العام؛ لذلك عندما استمع مبروك إلى تأكيد من بعض الوطنيين المتحمسين، في دمنهور، من أن سير ولسلي ما أن حط قدميه في الإسكندرية، حتى بادر بالفرار، عندما شاهد أرتال الجيش المصري، لذلك أبحر بالتالي إلى أوروبا، إلا أن عقله لم يهضم مثل هذه التقارير.

بعد وقت قليل، عرف مبروك أن هذا القائد قد رحل بالفعل، ولكن ليس بسبب رعبه، بل لقد تحركت قواته إلى ناحية شرق البلاد، وإنهم قد احتلوا قنال السويس.. قال الناس أن «عرابي» شعر بالغضب يجتاحه؛ بسبب هذه الخدعة الدنيئة، وأن مسيو دي ليسبس، صديقه، يقف صامدًا بجانبه.

صاح ذلك الوطني من دمنهور قائلًا: «هما بيفكروا إننا شعب غير متحضر؛ يظنون أننا غير قادرين على حماية تلك الحفرة الملعونة، لكن والنبي، دي أكبر إهانة، وتوضح قد إيه همَّا ناس

متوحشين. إن شاء الله، عرابي مش حيخليهم ينولوا لا أرض ولا أدب في المعاملة».

في اليوم نفسه الذي استمع فيه مبروك إلى خدعة ولسلي، تقابل مع صديقه علاء الدين، الذي حضر بالقطار من العاصمة، لقد أتى بائع الحلوى محملًا بأخبار سعيدة؛ إذ رحبت زينب برجوعه إليها، ويمكن أن تعود لتصبح زوجة له في أي وقت يشاء، لأن أمين بك وهو مغادر، ألقى عليها يمين الطلاق. وقد أصبح ابن مبروك هو سلوتها الوحيدة الآن في ترملها، وأن فترة العدة قد انتهت بالفعل.

تأثر مبروك كثيرًا عند استماعه لهذه الأنباء، وهنا طلب الإذن لمقابلة مدير المديرية، وأخبره عن قصته، فاستمع الرجل العجوز لذلك، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه، وتعهد على نفسه أن يتيح للعريس الحصول على إجازة قدرها أربعة أيام، وهذا كل ما طلبه، وقد ترك خلفه عباس الجندي، الموثوق فيه؛ ليشرف على المجموعة.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

لم يعجب مبروك بمظاهر التغيير التي لحقت بالعاصمة؛ لقد أصبح الحي الإفرنجي مهجورًا.. المنازل مغلقة، المحلات مسكوكة، ولم يتبق سوى عدد قليل من اليونانيين والإيطاليين ، الذين هم على درجة واضحة من الفقر،
لا تسمح لهم بالفرار، كانوا يشاهدون - وهم ينسلون في أقذر الشوارع ، جميعهم مرتدين الطربوش وليس القبعة. في الموسكي – الحي المعتاد أن يكون مزدحمًا في تلك الساعة - كانت هناك حركة مرور بسيطة؛ لدرجة أنه تمكن من ملاحظة موكب جنازة يسير، وهم على بعد حوالي نصف ميل. كانت الخشبة مرفوعة عاليًا، عليها الغطاء الملون، محمولة فوق أكتاف الرجال، متجهين بالميت نحو هضبة الصحراء، التي تشبه الجدار، وتسير موازية لهذا المعرض الطويل المستقيم. أما سقاة المياه، فإنهم كانوا ينادون باكتئاب، كمهمومي القلوب بسبب ذلك العالم القاسي؛ وعندما استدار مبروك ليسير في حمى الأسواق المظللة، ظهرت علامات الضيق والغيظ على وجوه تجار تلك المحلات، التي تشبه الكهوف، وتوجد متراصة على الجانبين.

قال علاء الدين معتذرًا عن معاملاتهم: «ربنا هو اللي وحده يعلم، ده شيء الواحد مش ممكن يندهش بسببه، ده أسوأ وقت للتجار والصنايعية. ما عَدش فيه حاجة يعملوها، وطبعًا يوجهوا كل اللوم عليكم إنتو يا عساكر الجيش.. أكثر من كده، أصبح تجبر اللجنة العامة لا يحتمل، وزاد عن حده. كتير من الناس عشان كلمة صدرت منهم على الماشي، ودول طبعًا أصبحوا يائسين، وأصبحوا لا يهتمون بأي شيء ممكن يحصل في البلد.. سامحهم يا صاحبي! الوطنية مش بضاعتهم؛ والحمد لله إنها لايقة عليك، ومنغنغاك».

قضى مبروك تلك الليلة في منزل علاء الدين؛ الذي قام بتجهيز وليمة متواضعة احتفاءً بضيفه، ومنه سمع عن الحواديت الوافدة من وعن قريتهم، حيث قال له إن أخاه «رشيد» قد التحق بالجيش، بديلًا عن شاب معين في القرية، كان هو الابن الوحيد لرجل أعمى. كان العمدة الشيخ مصطفى قد اختار هذا الولد بالذات، باعتباره مواليًا لمحروس العجوز، وكان شديد الغضب إلى أن استمع من الصديق والعدو، وهم يرشحون «رشيد» كبديل.. اقتنع الوالد بوجاهة هذه الفكرة، وشعر بالفخر لتضحية ابنه، ولأن الشيخ مصطفى هو المؤيد والمشايع لعرابي، حصل لذلك على أعظم تكريم، ما بين كل عمد الجهة، وبذلك أيضًا لم تتعرض عائلته أبدًا لأي نوع من الغضب أو الانتهاك.

أما عن العائلة المنافسة؛ فقد استطاع هو أن يبطل سطوتها بكل بساطة، بأن قام بإبلاغ اللجنة أن «محروس» هذا، وكذا أولاده من المتمردين غير الراضين عن الثورة؛ لذلك تم إيداعهم السجون في الحال، والآن يمكن اعتبارهم في حكم الأموات. في الحقيقة، أصبح الشيخ مصطفى الآن في أعلى منزلة وثروة؛ لدرجة أن الناس تهامسوا بالقول بأنه قد عثر على كنز محمد النوري؛ ولكن هذا القيل نفسه كان قد تردد من قبل على الشيخ محروس أيام عزه.. أما الآن، فإن علاء الدين لا يصدق أبدًا تلك القصة المزعومة، لقد استمر بائع الحلوى في الحديث عن الشيخ مصطفى، حتى وقت متأخر من الليل، مصورًا مدى عظمته وعلو شأنه؛ لكي يسعد بذلك قلب ابنه مبروك.

في الصباح الباكر، توجه مبروك إلى الحمام العمومي؛ حيث قضى ساعتين سعيدتين، توجه بعدها إلى مكان سكنه القديم، أما علاء الدين فقد سبقه؛ إذ كان يقف على الباب الرئيسي نفس البواب النوبي، الذي ما أن شاهد «مبروك» حتى رحب به، قائلًا إن هذا من أسعد أيامه.

في غرفته القديمة، وجد مبروك صحبة مرحة متجمعة من الأصدقاء والجيران، جمعهم علاء الدين لكي يشهدوا هذا الاحتفال. جلس علاء الدين، وكيل العروس، واضعًا ساقًا فوق أخرى، في مواجهة مبروك، وسط ربطة الشهود، قابضًا على يد صديقه، رافعًا كليهما إصبع الإبهام، ثم تبادلا الكلمات المعروفة، وردد بعدها الجميع سورة الفاتحة، وبهذا انتهت مراسم هذا الاحتفال بالزواج، متبوعة بتقديم وليمة خفيفة، تم إعدادها بواسطة جهد كل من زينب وزوجة علاء الدين، اللتين كانتا تحتفلان الآن وسط مجموعة كبيرة من السيدات، تجمعن داخل شقة المرحوم الضابط الشركسى؛ بينما قامت اثنتان من العازفات المغنيات بتسلية الحاضرات، بعزف بعض من الموسيقى الشجية.

وهو غير راض عن الحياة الكئيبة، التي أصبحت طالع العاصمة، اقترح مبروك أن تسافر زينب لتمارس حياة القرية؛ التي حافظت على طابعها المعتاد، وقضى بعد ذلك يومين كلهما مرح واستمتاع برفقة زوجته وابنه، وبعدها عاد إلى دمنهور مكرهًا.

ثم ومبروك متجه نحو وحدته بوجه حزين، قابله مساعده عباس بوجه يطفح بشرًا؛ إذ ليس هناك وقت يمكن ضياعه، يتم فيه تكريم جنابه، أكثر من تشريف سيادته لعملية جلد أحد المجرمين العتاة، الذي استطاعت فرقته أن تقبض عليه الليلة الماضية بكل مهارة؛ لذا أسرع مبروك ومعه عباس إلى ساحة المديرية؛ حيث شاهد أمامه - في عز شمس الظهيرة القاسية - رجلًا سمينًا عاريًا، راقدًا وواضعًا وجهه على كومة من الأخشاب، فتقدم نحوه جنديان، في يد كل منهما قشاطًا مثبتًا، فيه

عدد من المسامير، مستعدين لتنفيذ الحكم، بينما تجمع الباقون ليشاهدوا، لقد حضر كذلك كل من القاضي ووكيل المديرية.

الصراخ الذي تصاعد من فم هذا التعيس المقيد، ودمه الذي تناثر، جعل مبروك يشعر بالضيق والأسى؛ إذ كان يعتقد في قرارة نفسه أن هذا الرجل من المظاليم، إلا أن القاضي أكد له أن هذا الذي ينبح الآن، هو من أشقى الأشرار العتاة، لا يستحقون منه أي قدر من الإشفاق، فهذا الرجل كان لصًّا، اعتاد أن يسرق الناس العابرين فوق السد، ومرة ترك شابًّا صغيرًا بين الموت والحياة.. عند هذا، فقد مبروك أي قدر من التعاطف على هذا الوحش المجرم، بل رحب مثل الآخرين، بما يتعرض له من تعذيب، فقد كان الكثير من العقوبات، التي توقع بسبب الاختلافات السياسية، التافهة في محتواها، من المرغوب حقًّا أن ينظر إلى الحكم فيها، بشكل يرضي الضمير، وهو مستريح.

بعد القبض على هذا المجرم، وقضاء كل هذا الوقت في استمتاع متصل، لم يعد أمام هذه المجموعة من الجنود شيئًا آخر، يمكن أن يصنعوه في دمنهور، فقد كانت من عادة مبروك أن يسير الهوينى بصحبة عدد من الوطنيين هناك، يستمع إلى تعليقاتهم عن الحرب الدائرة الآن، وعلم أن سيطرة الأعداء على كل منطقة قنال السويس، دعت عرابي مضطرًا إلى أن يستدير بقواته، ويجعل جبهته الأمامية عند حدود رمال برزخ السويس؛ فقد أصبح معسكر كفر الدوار الآن باستحكاماته التي ركز كل جهوده في استكمالها ذا أهمية ثانوية؛ مما أدى إلى تحرك عام لكل قواته، ولكن مبروك تعجب، لماذا لم تصدر له أي تعليمات، لقد سمع عن حدوث قتال شرس في كفر الدوار، ثم عن انتصار حدث على ضفاف الترعة، وهنا تخيل أخاه «رشيد» وهو مشترك في عنفوان هذه المعارك، في موقعه كجندي عادي، لا حول له ولا قوة، واشتاق أن يلحق به على الفور لكي يحميه.

كانت هناك برقيات، تفد كل ساعة إلى المديرية، ومع ذلك لا توجد أي إشارة بشأنه أو فيما يختص بمجموعته. أخيرًا، مع وصول أخبار تؤكد وقوع نصر مؤزر في القصاصين، لم يعد يحتمل أكثر من ذلك، وصمم أن ينهي حالة هذا الركود على الفور؛ لذا قدم طلبًا رسميًّا موجهًا لمدير المديرية؛ للاستفسار عما سوف يتم العمل بشأنه، وبادر هذا المدير بإرسال برقية إلى وزارة الحربية بها هذا الطلب، ووصله الرد بلا تأخير، فيه:

- «تعليمات إلى البمباشي مبروك من أن ينقل الجياد والفرقة، التي تحت إمرته عن طريق السكة الحديد إلى الزقازيق، ثم يسير بمجموعته إلى التل الكبير؛ ليلحق بالجيش هناك».

قال المدير ضاحكًا، وهو يطلعه على قصاصة الورق: «واضح تمامًا إنهم نسيوكم بالمرة».

لكن هذا الشاب سامحهم على النسيان، طالما أنهم قاموا بتعويضه عن ذلك بترقيته إلى درجة البكباشي، حيث ذهب في الحال إلى محطة القطار، و – بعظمة - طلب من ناظر المحطة أن يجهز له ولمجموعته قطارًا خاصًا، وكان هذا بعد غروب الشمس. ومع الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، كان القطار جاهزًا، وتم إعداد أقفاص خاصة لزوم ركوب الجياد. لكن، كان على مبروك ورفقته أن يسافروا معًا في عربة مكشوفة؛ إذ قام وفد من وطنيي دمنهور بالنهوض مبكرًا، وحضروا حتى المحطة؛ لكي يتمنوا لهؤلاء الشجعان سلامة الوصول، وقاموا بالثناء عليهم والهتاف لشجاعة المصريين، وأعلنوا غضبهم على ذلك المتبجح سير ولسلي وكل جيشه الجبان، قائلين أن ولسلي هذا لديه تحت أمرته أربعة عشر ألف من الفلاحين الإنجليز المشتاقين للعودة إلى بلادهم، وهم يصابون بالإغماء جراء حر كل يوم؛ فكيف يأمل أن يهزم جيش عرابي، الذي يتكون من ثلاثين ألف مقاتل؟ لقد حضر إلى بلادنا محتقرًا إيانا، كأنما يتوجه ليقاتل جماعة من الهمج، ثم يفاجأ بمقابلة من هم أعظم منه حضاريًا وانتظامًا. الآن، بالطبع هو خائف، يحاول جاهدًا أن يحافظ على خطوطه، إذ لم يجد في نفسه الجرأة على أن يظهر بشكل مفتوح، هل تعلم لماذا، بإذن الله، كل جيشه سوف يفنى كلية، كما تختفي المياه عندما تسقط على الرمال الساخنة.

خاطب هؤلاء الهازلون مبروك، قائلين: «لا تخف منهم أبدًا! السير ولسلي ده تقريبًا انتهى أمره، حاول إنك تقتل أقل عدد من الإنجليز، الباقين حيموتوا من الخوف، وإن شاء الله سوف ترجع لينا سالم غانم ومعاك شنب ولسلي».

جاهر المودعون بعبارات البركة عندما تحرك القطار، وردّ عليهم الجنود بصيحات كلها مرح، أما سائق القطار، وقد غلبه الحماس، فإنه جعل صوت الوابور يجلجل حوالي عشر دقائق. أعجبت هذه اللعبة الجنود كثيرًا؛ لذا فيما بعد، كلما اقترب القطار إلى قرية، كانوا يصيحون: «يا محمد، خليه يتكلم تاني!»، وكان محمد هذا يطيع بالطبع بكل سرور، كما كان بعض من الجنود يلعبون بحبات القمح على أرضية العربة، بينما انهمك الآخرون في مضغ الحمص أو الفستق الأخضر، لكن بعد فترة ، اشتعلت حدة الشمس؛ لذا فضل معظم الجنود أن يناموا، كما كان مبروك ناعسًا، وعندما فتح عينيه فجأة، حملق خارجا في مكان ومنظر يعرفه جيدًا، إنها حقول يانعة، لونها أخضر وبني، يعرف بالفعل مالك كل قطعة فيها..

هناك تجمع معين للأشجار، رقد في ظله شيخ، شعر مبروك بالغيرة؛ بسبب تمتع هذا الرجل بالظل، بينما هو جالس تحت شمس الظهيرة القاسية؛ كذلك شاهد عددًا من الرجال، يعرفهم بالاسم، منتصبين بجوار خط السكة الحديد.. إنها قريته التي دائمًا ما تزينها الأشجار وأعواد النخيل، ثم - والقطار يسير بطيئًا مجلجلًا مدمدمًا فوق الكوبري - تمتع بمشاهدة الطول الغامر لنهر النيل، المألوف له، كما هو الحال لتعرفه على تقاطيع وجه أمه، ثم استعرض بعد ذلك الامتداد الشاسع للجبل، حيث رقد ليلة من الانتظار بصفته لصًّا. صاح الرجال فجأة: «يا محمد، خليه يتكلم!»، وبصفارة عالية، دخلوا إلى محطة بنها؛ حيث كان الارتباك شاملًا، لقد وصل قطار قادمًا من العاصمة، محملًا بالجنود، ولسبب أو لآخر، أراد ناظر المحطة أن يخلي هذا القطار، على أن يضع ركابه في عدد من العربات، التي كانت في الانتظار.. بعدها حدثت مشاجرة عاتية، تدخل فيها بعض المشاهدين العاديين، فقد كان بعض الضباط يتتبعون المسئولين في المحطة، ويدفعونهم بغلظة.

سمع مبروك لشخص، تعرض لمثل هذه الإهانات، يقول: «منين أعرف خيول حضرتك تتنقل إزاي؟ هو ده شغل يخصني؟ أنت شايف هنا أن كل حاجة ملخبطة، كله عشان لا شيء؛ وفين يعني مرتباتنا، يا شيخ العرب يا أبو النجدة والرعاية! السكة الحديد اتخرب بيتها، ولو مر دهر بحاله، مش حتقدر تداوي الخراب اللي حصل لها».

وقف الجنود مصطفين، بنادقهم مستريحة على الأرض، يبتسمون ويضحكون، من صميم قلوبهم؛ بسبب ما يسمعون أو يشاهدون.

سأل مبروك أحد أفراد هذه الكتيبة: «المعركة الكبيرة وقعت والّا لسه؟».

- «لسه والحمد لله، ولسلي خايف».

- «الحمد لله، حنقدر نحصله».

تمكن قطارهم الصغير المخصوص من أن يتخلص من هذه الضوضاء واللعنات، عندما تحرك ليستقر فوق خط جانبي، وهناك نسوا أمره تمامًا، لمدة لا تقل عن ساعتين؛ حيث كان باعة المياه، باعة العيش، المكسرات والبيض المسلوق يعبرون الخطوط، وينادون على بضائعهم، فأصبحت هواية الجنود أن يساوموا هؤلاء الباعة، ويبتلعون حالًا ما قاموا بشرائه، وبعدها يشعرون بالسعادة،

وهم مقدمون على النوم. لكن أخيرًا، وقد داهمهم القلق من هذا التوقف غير المبرر، توجهوا إلى سائق القطار، الذي كان نائمًا يشخر، فقاموا بإيقاظه قائلين: «خليه يتكلم بصوت عالي».

هبت دفعات من الصفافير المزعجة، انتشرت في ذرات الهواء المشمسة، ولم تتوقف إلا عندما حضر البعض يتساءل عما يحدث، فقام مبروك بالتحدث معهم بلهجة متعالية، ولذا أعلن هؤلاء المسئولين في الحال أن الخط حتى الزقازيق خالي تمامًا؛ فاستدار الوابور برأسه حتى ذيله، وتحرك بهم على القضبان نفسها التي قدموا عليها.

مرت ساعتان من ساعات المغرب، عندما وصلوا أخيرًا إلى الزقازيق؛ حيث كان المشهد أقل ارتباكًا مما حدث في بنها.

لكن مجموعة مبروك - كونهم مقدامين وعلى رأي واحد - استطاعوا في الحال تخليص أنفسهم وجيادهم من حبائل هذا الارتباك، حامدين الله على وصولهم بالسلامة، ثم امتطوا جيادهم، وساروا في خط منتظم، وقد تركوا خلفهم تلك البلدة، التي بنيت كل منازلها بالطوب اللبن، وتابعوا طريقًا مستقيمًا عاليًا، يشق الحقول المزروعة، ويسير بين القرى المختلفة، التي كانت تصدر منها همهمات متعددة، بينما تبدأ الشمس في رحلة الغروب.

وصل مبروك ومجموعته إلى حرجة متخمة بأعواد النخيل، وبدت ظلالهم ممتدة طويلًا أمامهم، فتقابلوا - وهم في طريقهم – مع مجموعة من الفلاحين، رجلين وامرأة، بينهم حمار يسوقونه.. كان الثلاثة ينتحبون، معلنين حظهم التعس. عندما استفسر مبروك عن سبب حزنهم، أفسحوا له فيما بينهم مكانًا، أخذوا يحملقون فيه كأنما هو النذير، بينما كانوا يضعون أيديهم فوق عيونهم؛ اتقاءً لأشعة الشمس التي ترد في خيوط مستطيلة؛ وشرعوا بعد ذلك في البكاء مجددًا، صائحين «الحرامي! رحمتك يا رب! يخرب بيته الحرامي الشرير! كنا جايين ومعانا زكيبتين مليانين دقيق من الطاحونة، عندما هجم علينا الراجل ده ومسك في زورنا، وأخد يضرب فينا بلا رحمة، وزكايبنا، هي فين دلوقتي؟
يا خسارة زكايب دقيقنا! الله أكبر!».

أجابهم الجنود: «ربنا يعوض عليكم! وحياة النبي، أول ما الحرب دي تخلص، حنعمل كل جهودنا؛ عشان كل هذه الأعمال السيئة دي تنتهي».

استمر الجنود في طريقهم، يتعجبون عن شرور بعض الناس، وعندما وصلوا إلى داخل حدود الحرجة ذاتها، في غسق غالب، شاهد مبروك شيخًا طويل القامة، له لحية كثة مضجعًا، ساندًا رأسه على زكيبتين سمينتين، مستخدمًا إحداهما كمخدة.

ما أن تحقق مبروك من وجه الشيخ، حتى صاح: «الحمد والشكر ليك يا رب، ده محمد النوري بذاته؟ يا سلام، أنا في منتهي السعادة لما أضمك لصدري مرة تانية! أنا..أنا مبروك، صاحبك».

ما أن سمع الشيخ ذلك، حتى قفز واقفًا وأسرع نحوه.. هبط مبروك مسرعًا من فوق صهوة جواده وتعانقا سويًا، وبكيا قليلًا، متذكرين أيامًا خوالى مضت، ثم جلسا على الطريق يدًا في يد، بينما جلس بقية أفراد الكتيبة على الأرض براحتهم، يدخنون السجائر ويتسامرون.

جادله مبروك: «تعالى معانا يا محمد، فيه شغل مهم لراجل زيك، معروف عنه الشجاعة والإقدام»..

هز اللص رأسه: «لا يا ابني، أنا شفت العمل ده قبل كده وما عجبنيش.. كنت لما هربت من حراسي، وإحنا على شط النيل ناحية أسيوط (طبعًا تعرف أنهم حكموا على بالنفي في آخر السودان)، هناك شفت عساكر أفندينا، عشان كده التحقت بالجيش. والله، كانت الحالة هناك تمام، وأنا في معسكرات الصعيد، ودبرت حالي كويس، وما كانش فيه أحسن من كده. لكن لما جابونا لغاية كفر الدوار الملعونة، وشفت الرصاص، وهو يطير حوالينا ويخلص على العساكر. هناك بالذات عرفت إن دي مش شغلتي..

«عارف يا حبيبي، الرصاص ده من ثلاث أنواع، كل نوع اسمه طالع من صوته. فيه نوع اسمه ورر! التاني اسمه وزز! الثالث اسمه ون ن! الأولاني ورر متعب لكنه تقريبًا ما يؤذيش، التاني وزز بيفكر شوية قبل ما يصيب بأذية؛ لكن التالت ون ن!- أوه، أؤكد لك ده هو الشيطان في حد ذاته. ون ن ده قتل راجل، كان واقف جنبي - راجل حلو يا ما قدملي القهوة أشربها، وقف كده يقدملي كباية، بالقرب تمام زي كده، ضربته الرصاصة فحسيت كأن النخاع فط من عظامي.. شغلتي يا حبيبي إني أخوِّف مش أخاف، عشان كده هربت من المعسكر، وغيرت هدومي في بيت فلاح فقير، اللي كان كاره يشوف الزي بتاعنا، عشان كده حرقه بالنار. بعد كده فضلت أدور على مراتي وولادي لغاية ما لقيتهم، وهما معايا دلوقتي عايشين في القرية اللي هناك دي.. الأيام بقت صعبة، وكل واحد عنده مال دفنه في الأرض».

- «لكن أنت بالتأكيد كان عندك كنز مدفون، مش كده؟».

- «مرة، من زمن بعيد كان عندي، لكن كله ضاع. كنت قتلت واحد له مركز كبير، عشان كده صرفت كل مالي؛ عشان أحافظ على حياتي. من يومها يا دوب أكسب اللي يعيشني ويكفيني...لا، أنت لازم تشرف بيتي المتواضع الليلة دي». هكذا صاح، وهو يشاهد «مبروك» ينهض.

أجاب الآخر: «ده مش ممكن، عندنا أوامر إننا نسرع لغاية التل الكبير، والليل حل علينا».

قال محمد من صميم قلبه: «طيب، ربنا يحافظ عليكم جميعًا!».

ردد الجنود خلفه دعواته، واستأنفوا المسير.

برق في السماء عدد هائل من النجوم الهادئة، بينما صدر من الحقول على الجانبين زفير حلو، كما كان لسان الأرض المزروعة يمثل نهاية حدود الريف، ثم أخذ يتناقص تدريجيًّا حتى كون واديًا بين حدي الصحراء، تلك التي بدت بلون أبيض، مقارنة باللون الداكن للأرض المزروعة، بعدها بدأت تظهر نيران أمام الخيام هنا وهناك، وأشكال أفراد على البعد يمرون أمام وهج النيران.. أكثر من مرة، كانت تطل عليهم وجوه عكرة، ثم، عندما يشاهدون كثرتهم، يتمنون لهم قضاء ليلة سعيدة، لقد كانوا يعبرون الآن مخيمات كل الملازمين لمعسكرات الجيش، مجموعة من المتشردين، رجال ونساء، يتجمع فيها حثالة البشر تحت السماء، يتوافدون كالطيور الجارحة عند مشهد المذبحة القادمة..

عبروا بعد ذلك قرية، مفعمة بالحياة الصاخبة، على الرغم من تأخر وقت الليل، وما لبثت أن ظهرت أضواء نوافذ مكتب التلغراف – القائم في مبنى احتياطي – مشعة في كل نافذة منها، شاهدوا على ضوئها أفرادًا يسرعون هنا وهناك، من كل أنواع المتشردين والأشرار، الذين كان لهم حضور في ذلك التجمع المرح، يتدافعون في الحارات وتنطلق منهم أصوات كلها عربدة، مع صوت امرأة تغني، عزف على العود، دق منتظم اللحن على الدربكة.. كل هذا تصاعد في الهواء، فقد كانت على البعد، ثمة فرقة موسيقية تابعة للجيش، تنشد السلام الخديوي بشكل ساخر هزلي، لقد كان مبروك سعيدًا بمغادرة ذلك المكان، الذي يشبه الجحيم ذاته.

عاليًا على ربوة منخفضة طويلة، وعلى ضوء النجوم، استطاعت مجموعة مبروك أن تلمح صفوفًا من الخيام، ينبعث منها كثير من نقاط الإضاءة، البعض منهم يتحرك، والبعض ساكن في

مكانه.. تصاعدت أصوات التمتمة، كأنها صادرة من مدينة مقدمة على النوم والراحة.. إنه معسكر التل الكبير، وبعد دقيقة، كانوا مجالًا للفحص والتدقيق من الحراس.

***

الفصل الخامس والثلاثون

خلال كل خطوط التل الكبير، لم تتوافر تلك الثقة المرحة، التي عبر عنها، وانتشرت في قلوب الوطنيين بدمنهور، فقد التحم حوالي نصف الجيش - الذي تجمع هنا - مع العدو، وأما النصف الآخر، فقد سمع ما حدث مع هؤلاء في القصاصين، حيث دارت الدوائر ضدهم وحدثت خسائر جمة، وكان منها حوالي ألف قتيل أو أسير. وفي كل مناسبة تقريبًا مناوشة، يصبح الحال أسوأ، لكن لم يحدث في أي واقعة أن قام الإنجليز بمتابعة مطاردة المصريين؛ مما يؤكد أن سير ولسلي يظن أن قواته ليست كافية لشن حرب عدوانية شاملة.

الآن، ولمدة يومين، لم يحدث أي شيء؛ مما غرس عوامل القلق في نفوس الجنود المصريين، الذين كانوا يرحبون بعودة الهجوم مرة أخرى؛ ليمكن القضاء على ولسلي، قبلما يصل إليه المدد. لكن الرؤساء كان لهم رأي آخر؛ لذا تم إبقاء الجنود داخل نطاق استحكاماتهم، يحاولون قضاء الوقت بأفضل ما لديهم، من غناء وقص الحكايات، وممارسة بعض الألعاب المملة بالحصى، فقد كان الجنود يتمنون أن يبادر السير - وقد تشجع بسكونهم هذا، أو ربما يوحي له إبليس، الذي هو أبوه - بالهجوم، حينئذ سوف يكتب نهايته المحتومة؛ لأن موقعهم كان تقريبًا حصينًا ومنيعًا لا يمكن اختراقه، وسوف تقوم مواقعهم بالقضاء عليه. وعلى البعد، وضعت خطة للطوارئ؛ حيث ظلت مواقع المدفعية الضخمة مصوبة فوهاتها نحو المسافة، التي أحصيت جيدًا، والتي يمكن أن يظهر عندها العدو، ويكون في نطاق المدى المميت.

علم مبروك كل هذا في ليلة وصوله؛ حيث ظل الجنود يتوقعون أن يبدأ الجد في الغد، لكن الغد انقضى، وقد صوِّرت هضاب آسيا على البعد في ظلام الليل؛ حيث يتغير لونها من اللون الأسود إلى الرمادي، ومن الرمادي إلى اللون الأزرق الحالم؛ أما رمال الصحراء فإنها توردت فجأة، وتخططت هنا وهناك بأعماق من ظلال مخملية، كما كانت هناك بعض من أشجار البلسم، تظهر في وادي السبعة ينابيع بشكل استرشادي. تحول الجو البارد إلى وقت ظهر ملتهب، ثم تحول الظهر إلى مساء؛ مع ذلك ليس هناك أمر قد صدر للتقدم إلى الأمام، أو أي مظهر لعدو قادم. وتكرر هذا الوضع نفسه اليوم التالي، والذي بعده.. كانت خيمة مبروك مجاورة لبعض عربان الصحراء، هؤلاء العرب الذين سمعوا شيخهم الشاب يعبر عن تذمره وضيقه من عرابي؛ لأنه رفض اقتراحه بأن يتشجع، ويتحدى ذلك السير المتسلل؛ لكي يدخل معه في مبارزة في حضور من كل أفراد الجيشين.

كانت حالة مبروك في هذا المعسكر غير موفقة ويشعر بتعاسة غالبة. عند وصوله، لم يجد أي إنسان يعرفه من قبل؛ وكان كل ضابط يتقابل معه لا يجد لديه أي أوامر بشأنه، ثم تقدم نحوه قائم مقام من سلاح الفرسان، طالبًا منه أن يتخلى رجاله عن جيادهم ليستولي عليها؛ لأنها كانت في أفضل حال ورعاية ممتازة، وهنا احتج المسروقون بمرارة، فقد صاح مبروك قائلًا بأنه يتعرض إلى أسوأ معاملة، وأحضر صياحه واحتجاجه هذا إلى الموقع قائد عظيم، الذي أمره - وهو غاضب - أن يتوقف عن افتعال مثل هذه الضجة، وأن ينضم إلى فرقة معينة من المشاة؛ لكي يتوقف عن التذمر والشكوى بخصوص جياده.

لذلك - وكل رجاله ما زالوا يتذمرون - سار يسأل عن الطريق المؤدي إلى معسكره الجديد. وهناك، بعد لأي، قام الضابط المسئول بالترحيب به، قائلًا إنه في حاجة ملحة للمزيد من الجنود؛ لأنه فقد مائتين من رجاله بجوار الإسماعيلية، ثم دعا مبروك بعد ذلك لأن يتعشى معه في خيمته، وهناك أبدى الضابط اندهاشه من مدى صفاء وعلم مبروك؛ لذلك دبر له أن يتقاسم المعيشة في خيمة المدعو مراد بك، وهو رجل أسود، يعتبر فاسوخة الفرقة. كان مراد بك هذا عبدًا لأحد كبار أغنياء مدينة المنصورة، الذي، لم يكن له وريث، سوى بنت واحدة؛ لذا قام بتزويجها إلى هذا العبد، الذي تربى في بيته، وفضَّل أن يحدث ذلك، بدلًا من أن تذهب ثروته بعيدًا عن عائلته. هذا الشاب الأسود، بعد إعتاقه أصبح، بعد وفاة سيده، أعظم شخصية في مديريتين؛ فهو يخدم مع هذه القوات هنا فقط للتكريم، وكانت خيمته مكانًا متميزًا، وهناك العديد من العبيد في خدمته.

لكن ما زال مبروك لا يشعر بالسعادة؛ فهذا الاضطراب السائد في المعسكر يخنق روحه، وأخذ يستفسر كثيرًا وبعيدًا عن أخيه رشيد، إلا أنه لم يتوصل إلى أي أخبار بشأنه، كما كان رؤساؤه، في وقت غضبهم واستثارتهم، يتحدثون معه كأنهم يخاطبون كلبًا، فلم يسمع أي كلمة عن مسالة ترقيته إلى درجة بكباشي، وكان قد فقد البرقية التي أرسلت له. كثيرًا في تلك الأيام، تمنى أن يترك بمفرده وحيدًا، ولم يحاول مجددًا أن يذكر موضوع تواجده لإدارة الحرب، كان رجاله أيضًا متذمرين، ما عدا عباس الذكي، الذي كان يعمل حلاقًا بارعًا، وقد زاد الطلب عليه.

لكن مراد بك هذا، على الرغم من طيبته، لا يتصف بالذكاء، وكان حديثه المفضل هو عن النساء والبنات، اللاتي كان يحتفظ بالكثير منهن، أو يتحدث عن اللآلئ والمجوهرات، فهو خبير في هذا الشأن، أو يتحدث عن الأرض الزراعية، التي يمتلك منها الكثير؛ إذ إن كلًا له صوت مطرب، يستطيع أن يتابع الغناء، وهو يعزف على العود. استمتع مبروك بغنائه، وكثيرًا ما كان يطلب منه

أن يغني؛ لكي يتجنب انخراطه في حكاياته ومناقشاته، لقد كان هذا الأسود الطيب يسعد كلما سمع منه هذا الطلب؛ لذا غمر مبروك بحب وطيد.

في أمسية، كان مبروك يشعر بالانقباض؛ لأنه تعرض لتأنيب من رئيسه بسبب بعض الإهمال، وهنا قام مراد بالغناء له ليستعيد هناءه، وأخذ يراقب وجهه لفترة، وعندما ضحك زميله، قام مراد وعانقه بكل رقة وحب، قائلًا:

- «الحمد لله أنك استريحت تاني، أنا زعلت خالص لما شفت وشك حزين ومتغير».

- «أتمنى من كل قلبي أن النهاية تنتهي!» صاح مبروك مشيرًا لموضوع غضبه، وأضاف: «أنا أتمنى في كل لحظة أن يبتدي الهجوم، الأفضل الواحد يموت بدل ما يتهان كل شوية بالشكل ده – أنا اللي كنت دائمًا أصدر الأوامر، وما كانش فيه حد فوقي أبدًا!».

مع ذكر موضوع الهجوم، لانت قسمات مراد، ثم أبدى ملاحظة بكل جد: «ما فيش خوف من كده أبدًا، إحنا في أمان هنا، وكل العالم بيقول كده! المكان ده صعب إن حد يدخله إلا عن طريق المفاجأة؛ لكن إزاي ممكن يهاجمونا فجأة؟ بص هنا»، ثم انحنى، ورسم شكلًا على تراب الأرض قائلًا: «ده موقعهم، وده موقعنا، ما فيش غير طريق واحد؛ عشان يوصلوا هنا – المكان ده، عن طريق وادي السبعة ينابيع! والحمد لله، المكان ده محروس كويس، أي مكان تاني هو عبارة عن ممرات صحراوية، لا يستطيعون المرور فيها إلا بالنهار، وبكده ممكن نشوفهم. والله غلط تمامًا إنك تتكلم كده وتطلب لنفسك الموت... دلوقتي، خليني أكلمك شوية عن لولو الصغيرة، كنزي، حبوبتي المحروسة، اللي ما اتكلمتش عنها لأي إنسان قبل كده، ده يبين قد إيه أنا بأحبك. والنبي، لما الحرب تنتهي، أنت لازم تيجي عندي في المنصورة، وتحتفل معايا شهر – لا كمان سنة! وأنا أشتري لك لولو تانية. دي روحي، ليلي وعيني! ما فيش حد زيها – تتاكل أكل، حاجة كده في منتهي الرقة، أؤكد لك!».

لقد أسهب مراد - بعد ذلك - للمرة الأربعين، عن فضائل حبه الجديد، فهي فتاة شركسية صغيرة، كان قد اشتراها بسعر مرتفع، قبلما تجتاحه تلك الاشتياقات الحربية، وكان يصف مفاتنها بطريقة صدمت مشاعر مبروك. وعلى الرغم من كل شيء، تأثر كثيرًا بحديثه، وأخذ يضم نفسه ويتأوه بإفراط.. رقد الاثنان لينعسا، وبينما هذا الأسود يشخر بصوت عال، راح مبروك يحملق عبر مدخل الخيمة، على تلك النجوم المتلألئة النابضة، وأخذ يفكر في زينب باشتياقٍ ولوعة.

***

الفصل السادس والثلاثون

استيقظ مبروك فجأة؛ ليشاهد النجوم نفسها، وهي تلمع في العلا، بينما النفير يصلصل ويجلجل معلنًا وقوع الخطر، والمعسكر كله في حالة من الارتباك الشامل؛ لذا قام مسرعًا بإيقاظ مراد بك، الذي جلس يدعك عينيه، يتثاءب ويبرطم وهو ينهض، كليهما سلح نفسه وأسرعا بالخروج، وفي تلك اللحظة دوت المدافع المصرية.

كان المشهد عبارة عن ارتباك عنيف، صرخت الأبواق، ودقت الطبول بشكل هستيري.. الأنفار يقفزون من جهة لأخرى، يلعنون، يصيحون، يتسببون في ذهول رجال نيام؛ استيقظوا لكي يستفسروا فقط عما حدث، ومن خيام العربان المجاورين، صدرت صيحات الحرب المتشابكة مع صراخ عنيف، وقتها كان بياض الفجر الجديد يلوح في الأفق والهواء.

تجمع رجال الفرقة بقدر إمكانهم؛ فهم يعلمون مهامهم تمامًا، وليس هناك داع لأن يزعق فيهم الضباط أو يضربونهم بجوانب سيوفهم.

صاح مراد بك: «لا داعي لكل هذا الهرج والمرج، فرجال مدفعيتنا حيبعدوهم عننا – من فضلك يا رب، دمِّرهم»، إجابة لدعائه هذا، تلقى صفعة على وجهه من الضابط الآمر، وفي اللحظة نفسها، توقف ضرب المدافع، تاركة خلفها صدى يتكرر ويتردد في الآذان المنهكة، فصاح ياور المعسكر، الممتطي جواده، وهو يقفز به من هنا وهناك: «بسرعة، بسرعة..الضرب جاي من فوق التبة! استعدوا لمقابلة الهجوم! مواقعنا البعيدة بتتضرب، الموقف كله كان غلط في غلط.. إنهم يدمرون الاستحكامات، هو إبليس اللِّي قادهم في الضلمة خلال دروب الصحراء – اثبتوا في مكانكم، ما تخافوش»، إلا أن كلماته الأخيرة تلك غرقت، وهو يسرع بالابتعاد عنهم.

اختفت النجوم الآن، أصبح هناك ضوء كاف لتحقيق الرؤية، كما أصبح وابل الرصاص المنطلق قريبًا ناحيتهم، ثم توقف هذا الصوت؛ لذا كان في استطاعة مبروك أن يستمع إلى صيحات الرجال، وهم على شفا الموت.. كان من الواضح أن الإنجليز يعملون وسطهم، يهبطون من قمة الهضبة مشرعين السونكي، فجز مبروك على أسنانه، وأصبح كالصخر في قوته، عازمًا ألا يستدير أبدًا لكي يهرب. أما مراد بك المجاور له، فإنه كان ينتحب كالأطفال، وبرقت عليهم أشعة الشمس الأولى بقوة.

في لحظة، لا يدري كيف، أصبحت المعركة وسطهم، إذ هناك حشد من حمر الوجوه، كلهم وحشية، وقد شدد الانتصار بأسهم، قد هجموا على الرتب المنتظرة من المؤمنين الحقيقيين، فأبدى من كانوا في المقدمة، مقاومة شديدة، لكنهم سرعان ما وقعوا أرضًا؛ لذا تقدم من هم خلفهم، وفي وهلة، كان هؤلاء الوثنيون بينهم، خلالهم. تحقق مبروك من وجوههم الحمراء؛ إذ رآهم وهم يتمتمون، يتدافعون ويهاجمون، كما شاهد مراد بك وهو يتلقى طعنة قاتلة، ويسقط، وقد انحدرت يداه وساقاه إلى الخلف، واستدارت عيناه إلى أعلى، فاندفع مبروك لكي يضرب قاتله بكل ما أوتي من قوة، ولكن في لحظة، تعرض هو أيضًا للهجوم، لذا وهو يشاهد كل من حوله يهرب، استدار هو أيضًا هاربًا، لقد كان يعلم أنه قد تعرض لإصابة في الفخذ، ولكنه لم يكن يشعر بأي ألم.

كان الفرار في حد ذاته عبارة عن معركة مخيفة؛ لأن من امتطوا الجياد كانوا يهرسون ويصدمون من يتسابقون على أقدامهم، القوي يدوس الضعيف، الكل يحاول أن ينجو بنفسه كارهًا ومبغضًا غيره؛ لذا حمل مبروك - وهو شاعر بعجزه عن متابعة التيار المندفع - حملًا وسط الجموع إلى المنحدرات المؤدية إلى القناة، التي غطس المئات فيها، عاموا لكي يعبروها، أو أنهم غرقوا، كما يشاء الله. لقد كان الاندفاع كله يتجه إلى الكوبري الضيق؛ حيث تعرض المئات إلى الدفع من الجانبين؛ ليقعوا وسط التيار الجارف، بينما ما زالت هناك قذائف تنطلق من فوق قمة الهضبة، التي استولى عليها الإنكليز، تنطلق ذات اليمين وذات اليسار، إلى الأمام والخلف، تنفجر على الأرض، لكن ولا واحدة منها - وهذا من رحمة الله - انفجرت وسط الجموع الهاربة.

استطاع مبروك أن يقبض على ذيل حصان يعبر المياه براكبه، لكن فقط عندما تشتت الجميع من حوله نوعًا، وبفضل من الله، لحق جزء من شظية براكب الحصان ومحت من الوجود نصف رأسه، وسقط هذا من صهوة الجواد؛ لذا فكر مبروك بسرعة في أن يأخذ مكانه، فتحرك قابضًا على جانب الحصان، زاعقًا حامدًا الله، وبعد العبور امتطى ظهر الحصان، وأسرع به كالريح، يزيح جانبًا كل من وقف في طريقه، حتى وصل إلى حدود الريف الأخضر الواسع. كان وجه مراد بك، وهو يموت ما زال متجسمًا أمامه، داعيًا له أن يضحك، لا يعلم لماذا، كما جعله بهاء وفيض أشعة الشمس يشعر بالابتهاج، فراح يراقب ظل حصانه، وهو يسرع به في غبطة وسرور. وعندما عبر حقلًا صغيرًا مملوكًا لأحدهم، تحيط به بعض أعواد البوص، فوجئ بنفسه يحمد الله؛ لأنه خصص لكل مالك صغير ما يضع يده عليه ويتملكه، لقد كان عقله يتسلى بدون إرادة منه.

ترك مبروك خلفه قرية «أبو حماد»، حيث شاهد عددًا من ركاب الجياد يسبقونه ثم يبتعدون، وأخيرًا اقترب منه راكبان، كانا من كبار الضباط من شكل ملابسهما، وقد اضطرتهما جيادهما المرهقة إلى أن يحتذيا خطاه؛ إذا كان هدفهما - كما علم من صياحهما بين الحين والآخر - هو أن يلحقا بعرابي، الذي كان يسبقهما في مكان ما، ومعه الشيخ عبد الله نديم.. كانوا جميعًا يسيرون الآن في طريق، يقع بين بعض الحقول المحروثة، وأمامهم، على البعد، مباني ذات لون طيني ولون أبيض، إنها مدينة الزقازيق، حيث يمكن التحقق منها عبر أشجار النخيل المتكاثفة.

قال أحد الضابطين، وهو سمين البنية، على وشك أن يصاب بالسكتة: «إن شاء الله نلاقي قطر واقف في المحطة هناك».

جاوبه كل من مبروك والضابط الآخر: «إن شاء الله». لقد كانت أفواههم، وأزوارهم وشفاههم جافة عطشًا، محشوة بالرمال وطعم البارود.

لكن محطة السكك الحديدية في الزقازيق كانت مغلقة، وقال لهم بعض المتسكعين إن كل هيئة الضباط قد هربت. وعند سماع ذلك، قرر الضابطان أن يستمرا في مسيرتهما، ولكن «مبروك» لم يعد في قدرته أن يواصل؛ إذ عندما وجد أنه يجهد عقله تفكيرًا، أحس بأنه يترنح، وأخذ جسده يترجرج أمامًا وخلفًا وجانبًا، وتجنبًا للسقوط على الأرض بجهد جهيد، لم يجد في نفسه أي دافع يحثه إلى أن يسرع في طريقه، فهو الآن على وعي كامل بمقدار ما نزف من دماء من جرحه. وعندما تقابل مع بعض الفلاحين، وسألهم شربة ماء بحق الله، فمنحوه إياه، وقال له الرجل الذي أحضر له الكوز أن هناك قطارًا قد غادر محطة «أبو حماد» منذ قليل، وكان هناك ضابط يقود الوابور قابضًا على سيفه، ثم أقسم أن هذا الرجل، لم يكن سوى أحمد عرابي باشا بنفسه.

في ذلك الحين، وصل عدد كبير من الهاربين، وخشي مبروك أن يفقد حصانه، إذا علموا كم هو ضعيف؛ لذا سار الهوينى يتظاهر باكتمال صحته بقدر الإمكان، ومرت عليه البيوت والأشجار، كأنها هي أشكال سحب مارة أو ماء ينساب تحت الجسر، لقد شعر أن حياته تنسحب منه تدريجيًّا، وكانت تراوده فكرة غامضة من أن يستطيع الوصول إلى جامع؛ لكي يموت داخل مكان مقدس، إلا أنه – كذلك- كان على وعي بأنه لا يجدر به أن يتجول هكذا داخل المدينة، فحفزته غريزته أن يبتعد عن الطريق الرئيسي في هروبه، ثم، وهو يترك المدينة خلفه - شاعرًا بقرب نهايته - سعى إلى أن يصل إلى أقرب قرية يصادفها؛ لذا سار نحوها، وهو في حالة عمى كامل. كانت الساعة ما زالت مبكرة، وكل الفلاحين بالطبع يعملون في الحقول، وبدت الأزقة الضيقة للقرية مهجورة

تمامًا، ولم تجد كل صيحاته طلبًا للنجدة أذنًا صاغية. ثم، وهو يشعر أنه في آخر نفس له، هبط من فوق ظهر الحصان، متمايلًا هنا وهناك، ثم سقط بعدها على الأرض.

في وهلة، كان المكان مزدحمًا بالبشر، وسمع أحدهم يقول:

«لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم»، بينما صاحت امرأة: «يا رب، ارحمه!»؛ لذلك علم، إما أنه قد مات بالفعل، أو في طريقه إلى الموت.

***

الفصل السابع والثلاثون

استيقظ مبروك ليجد نفسه فوق كنبة داخل غرفة، مثل تلك التي ولد فيها، غرفة داخلية مبنية من الطين، في نهايتها فرن، وقد تجمع حوله عدد من الفلاحين:

- «الحمد لله!» ، «أهو صحي، ده حي!» ، «ربنا يشفيه ويقويه!» ، «ربنا يخليك يا حكيم الزمان!».. هكذا توالت صيحاتهم في توافق، بينما عيناه تنفرجان.

كان هناك رجل يجلس بجوار سريره، وجهه فيراني، ذو لحية مدببة رفيعة، عيون لوزية الشكل، يدعي أنه هندي الجنسية، هو أيضًا صدر منه «حمدًا لله».

يمكن الآن التحقق من ضوء النهار عبر الباب والشباك؛ إذ كانت له مسحة زرقاء عميقة، تلك المسحة التي تلازم فترات ما قبل الغروب؛ حيث تنتشر الظلال، ولم تكن تلك الهمهمات التي تسللت إلى الداخل سوى تنهدات المساء. أحضرت واحدة من النسوة للمصاب قصعة مليئة باللبن، بادر بشربها فشعر أنه أحسن حالًا، أما ذلك الهندي الجالس بجواره، فلم يكن سوى طبيب منهمك الآن في تغيير الأربطة الموضوعة على جرحه، وهو يتمتم ببعض الأدعية، ثم رجا المريض أن ينام.

بدا كأن ملك النوم قد انبعث بتأثيرات تلك العيون اللوزية لرجل الشفاء ذاك، التي صوبها نحو المريض، وهو يحرك حبات سبحته؛ حيث سند مبروك رأسه على المخدة فورًا، وهو يشعر بارتياح.

استيقظ مرة أخرى ليجد أنه في وقت الليل، كان هناك فتيل يحترق، وينير موضوعًا في طبق به بعض الزيت والماء، مستقرًّا على الأرضية، موضحًا معالم الغرفة.. ظهر صاحب المنزل وزوجته نائمين في ركن، أما الطبيب، فإنه يتناوم جالسًا بجواره، واضعا ساقًا على ساق، ولكنه ما زال قابضًا على سبحته، وخلفه ارتسم ظله المضحك على الحائط، فما أن جلس مبروك، حتى استيقظ ذاك قائلًا:

- «لا تخف يا ابني! نام. والله أنت حظك هايل إني كنت معدِّي في المكان ده، وشفت الزحمة حواليك، وأنا سعيد لما أفكر أن المهارة بتاعتي أنقذت حياتك.. أنا من موسم فصل الربيع مستقر هنا في بلاد الشر دي، أسافر هنا وهناك، ومعايا شوية أدوية للبيع. مرتين ناس هجموا عليَّ وضربوني وسرقوني، خلال الشهرين الماضيين. بصراحة، عرابي باشا بتاعكم ده حرام تعتبروه

حاكم! البلد متسابة من غير حكومة. وحياة القرآن، أنا سعيد أن الإنكليز – ينعل دينهم! – قدروا يبلعوه كده بالتمام والكمال. البلاد دي ما أصبحتش ملائمة لممارسة التجارة؛ الناس كلها خايفة.. وكل واحد متسلح لحد أسنانه وبيخبوا الفلوس، وكان نفسي أوصل لغاية السويس، لكن بالطبع خايف أعدي جنب أعداء البلاد».

أجابه مبروك قائلًا: «أتمنى من الله جل جلاله أنه يكافئك على معروفك معايا! قدرت تشفيني، والحمد لله؛ لأنه منحك العلم بفضله.. دلوقتي أقدر أسافر؛ لأني خايف يعتبروني هاربًا من الجيش».

- «ما تخافش أبدًا أنا أقول لك، هناك جزء من الجيش الإنجليزي راح ناحية العاصمة، والباقي قاعدين في مواقعهم بجوار ميدان المعركة.. آه، دول قدروا يضحكوا على عرابي تمام، ما هو ما يعرفش حيلهم؛ دول بيمشوا مستعينين بالبوصلة، عشان كده قدروا إنهم يعبروا في الضَّلمة ويمشوا في طرق، مش ممكن حد يعديها ولو بالنهار. أنا عارفهم كويس، وعارف طرقهم. عشت معاهم، وأقول لك ما تخافش منهم أبدًا، هما عبط لما يفوزوا في معركة معينة، ما يحاولوش يستفيدوا بالميزة؛ على الرغم من أنهم في حالة الهزيمة أو الصعوبات تلاقيهم زي العفاريت والشياطين. ذكاؤهم في الأمور العادية هو ذكاء التيران، ممكن عيل صغير يسحبهم، وهما مربوطين في مناخيرهم، والأكتر من كده، عمرهم ما ياكلوا أكل البني آدمين. إذا تور بلع أكل البني آدمين، تلاقيه يمرض ويموت، هو نفس الشيء مع الإنكليز. يا رب العالمين، يا لهم من وحوش غريبة أنت سويتها وخلقتها! أنا أقول لك، نام واستريح، نام على راحتك لغاية الصبحية».

لكن فجأة، أحس مبروك بحنين جارف إلى قريته؛ إذ اشتاق أن يشاهد مرة أخرى النيل العظيم، وأوراق النخيل الصغيرة بجوار شط النهر، وهي بارزة فوق زرائب القرية، لذا وهو شاعر برجوع قوته نهض، ثم قام بدفع مبلغ بسيط في يد الطبيب الطيب، قائلًا:

- «يعلم الله أنه مبلغ بسيط، لكن ده كل اللي احتكم عليه حاليًا».

هذا الهندي، بعد عديد من الاحتجاجات، بما يعني أنه غير راغب في الحصول على تعويض، كاد أن يقبل هذه الهدية، وعندها نهض صاحب البيت، الذي استيقظ بسبب محاوراتهما، ومنعه من قبول أي شيء قائلًا:

- «أستغفر الله العظيم اللي بعتلنا ضيف محتاج، كل مصاريفه ملزومة مني أنا.. خلي معاك فلوسك يا ابني، دي لازماك وأنت رايح بيت أبوك. ده مكان بعيد زي ما وصفت، وأنت محتاج تشتري حاجة وأنت في الطريق، أو تدبر مكان تستريح فيه، قبل ما توصل، إن شاء الله، بعد ما الإنكليز هما اللي كسبوا الحرب، كل الأمور حتتبدل والخير يزيد. الحمد لله، علمت إنهم يحترموا البني آدمين، وبعد ما الحال ينصلح، فكر في تسديد الدين اللي عليك. أيوه، إحنا كتير كنا نلومكم ونكرهكم إنتو يا عساكر الجيش، لما كنتم تسحبوا مننا البهايم، وتستولوا على القمح بتاعنا، لكن دلوقتي، بعد الهزيمة، كل المسلمين إخوات، والعقاب اللي حيطبقه الإنكليز علينا حنحس بيه كلنا قبل ما نتكلم عن السلام».

قال الهندي، وهو يبصق على الأرض: «مش حيكون فيه أي عقاب، أنا عشت معاهم وعارف طرقهم، هما بيكونوا معقولين لما الواحد يتوقع منهم الشدة، بيسموا ده إنه تطبيق العدالة؛ ويكونوا مجانين، من غير سبب لما تكون الأمور ساكتة وهادية».

وافق مبروك على ذلك، ثم حكى لهم كيف أن رجال مدفعيتهم امتنعوا عن ضرب تجمع العساكر بالقنابل، وهمّا مكدسين فوق الكوبري، ثم أضاف بالقول: «وحياة النبي، الناس دي يعرفوا الرحمة بالحق».

صاح صاحب البيت بحماس: «إذًا الحمد لله، إذا كان كل ده صحيح. هما دلوقتي يعتبروا أسيادنا، مش حيهتموا إنهم يسكتوا، ويهدوا الناس اللي كانوا يحكموا مصر، بالطبع حيكونوا أحسن من عرابي في معاملتهم لينا، ويخلونا نستريح في عيشتنا ومماتنا كمان».

بهذا، وهما يشاهدان «مبروك» المصرَّ على الرحيل، قام المضيف بإحضار حصانه من غرفة مجاورة ووضع على ظهر الجواد كلًّا من البردعة واللجام، وقاده خارجًا تحت ضياء النجوم، ثم قال مخاطبًا مبروك: «الساعة دلوقتي حوالي الساعة أربعة بعد نص الليل، امشي بشويش لبعدين الجرح يفتح تاني.. أنت لسه ضعيف، من فضلك حافظ على صحتك، وحياة النبي، أنت جرئ فعلًا إنك عشان تركب لوحدك كده في عز الليل! يا ابني استنى لغاية الصبح...ماشي، زي ما أنت عايز».

بدا الأمر كأن النجوم هي الوحيدة النابضة بالحياة، إذ إنها كانت ترسل ضوءًا كافيًا للرؤية؛ لكن ومبروك يسير بحصانه، أثارت دقات حوافر الحيوان على الأرض كلاب القرية القريبة، وأخذت

تنبح غاضبة.

***

الفصل الثامن والثلاثون

خفَّ عواء هذه الكلاب تدريجيًّا بينما هو يبتعد عن هذه القرية؛ إذ كان الحصان - وقد استراح وأكل جيدًا - يتهادى في سيره أولًا، متراقصًا مع كل ظل، ولكن في مكان ما - وهو يمر قريبًا من تجمع سكاني تغطيه أشجار البيلسان - اندفع من بين الظلال بعض الكلاب المجنونة، التي أخذت تنبح في مواجهة هذا الحيوان المسكين، عندها - بسبب ذلك - ظهر شكل أحد الخفراء طالبًا من ممتطي الجواد أن يوحِّد الله، ولكن مبروك لم يتمكن من السيطرة على الجواد، الذي انطلق بسرعة جنونية؛ حيث شعر مبروك أنه في أي لحظة سوف ينهبد من فوق ظهره، مفصصًا إلى عدة أجزاء، ثم هدأ الحصان - بعد هذا الاندفاع الخطير - مما جعل مبروك قادرًا على جعل عقله يسرح كما يشاء.

أخذت النجوم تحملق على وجه الأرض، التي لم تتضح معالمها الرئيسية بكل وضوح، تبدو جميعًا كأنها مرسومة خلف حجاب، لقد كانت حقول القطن على الجانبين غارقة في ظلام دامس، بينما ظهرت ظلال الأشجار وتجمعات القرى بشكل غامض عجيب، كما كان السلام باسطًا أجنحته على المشهد كله، سلام بدا كأنه الكساء الطبيعي لكل الأرض، والمماثل لأبنائه المخلصين المنهمكين في حرث تربتها، أما ذلك الشدو الذي يزعق به ذلك الخفير، ويصل إلى أذنيه من بعيد قوله: «الحمد لله الذي لا يغفل ولا ينام»؛ فهذا يبدو، كأنه منبعث من صميم قلب العالم بأثره.

ما الذي يمكن أن يشغل بال هؤلاء الفلاحين؛ فهم جميعًا نيام الآن كما تفعل النباتات والأشجار، وما الذي يدعهم يهتمون بالخسارة الفادحة، التى جرت فصولها في التل الكبير؟ كل ما حدث من وجهة نظرهم، ليس سوى جهد ضائع صورته خيالات جامحة لا رجاء فيها، وليست سوى صيحة أطلقها بعض الرجال، الذين لم يهدفوا إلى شيء، سوى تحقيق رفعة وعلو شأنهم، غافلين تمامًا عما يمكن أن يحدث معهم يوم الحساب، عندما يُعرضون أمام الله جل جلاله بكل قوته وهيلمانه. وبالنسبة إلى مبروك، فإنه يعتبر – الآن - أن كل من اشتركوا في هذه الحرب إنما ارتكبوا إثمًا وذنبًا لا يغتفران، فكل تمتمة وشذى يبثه الليل، وكل ضياء متألق للنجوم، ومعها الحقول اليانعة، وتجمعات أشجار البيلسان وأعواد النخيل الباسقة، إنما تعلم الإنسان فضائل الهدوء والسكينة؛ باعتبارها أفضل السجايا، التي يجب أن يتحلى بها الإنسان.

وبينما يسير مبروك بجواده، والضعف قد نال منه موجعًا، كان فكره يقدم له - من ثنايا عجزه هذا - صورًا عجيبة؛ إذ أخذ يستعرض في ذهنه كل تفاصيل نضاله السابق، وأمجاده الزائلة الضائعة؛ حيث استرجع كل دور له دون إرادة منه، فلم تكن مسألته كلها سوى جهد ضائع، سخرية مرة، لكنه استطاع بجهد أن يستيقظ من أضغاثها؛ لكي يستمتع الآن بجمال الليل، بكل انطلاقاته وانبثاق الحرية الكاملة من أعطافه، التي تجعل الإنسان ينفض عن نفسه كل الأحلام الشريرة. أما الحصان، وقد تناساه راكبه، فإنه سار أولًا بطيئًا، ثم توقف أخيرًا عن السير تمامًا، ولوهلة، تركه مبروك على راحته؛ فهذا السكون الشامل سمح له أن ينفض عن نفسه بعضًا من الصور المؤلمة، التي تزاحمت في خياله، ثم وهو يستنشق العزاء والسلوان من ذاك الليل الآمن، أقسم أمام الله أن يهجر طموحاته تمامًا، وبعد ذلك، سار الحصان بخطو أقدام. سمع مبروك صياح ديك على البعد، حيث تابعه بعد ذلك صياح عديد من ديكة القرى الأقرب، حتى، مع ذلك، انتشر هذا الشدو قريبًا وبعيدًا، بدا كأن معالم الصباح قد انتشرت لتلف الأفق كله.

حالًا، أصبح لون السماء خلفه باهتًا، مستدعيًا إلى ذهنه فجر الرعب، الذي تعرض له من فوق هضبة الأمس؛ إذ فكر أنه دائمًا ما خشي أن يتعرض لمثل تلك الفترة الزمنية من اليوم؛ أما الآن، فإنه سوف يخشاها عشرة أضعاف حتى يوم مماته، وبدأت أول الطيور المبكرة في نقاشاتها غير واثقة من شيء؛ إذ يستطيع هو الآن أن يدقق في الألوان المختلفة للمناظر المتتالية أمامه، كما تحقق من تلك المنائر البيضاء الساكنة وسط الأشجار المتكاتفة، التي تبدو كأنما قد اكتسبت لونًا أخضر، بينما تحيط أوراق الأشجار بها من كل جانب، ومن فوق هاماتها، انطلقت الدعوة للصلاة. إنه يستطيع الآن أن يتحقق من ذلك الجرم المؤدي للآذان، الواقف في الخن الصغير العالي، يداه مضمومتان إلى صدره، وفي التو تورد شكل العالم كله، ثم تقابل مع عدد من الفلاحين، رجال ونساء، يجدون في السير ذاهبين إلى أعمالهم في الحقول، بعيون مزرورة اتقاءً لشعاعات الشمس المبكرة، فتوقف بعض منهم، يتحدثون معه عن الهزيمة، كلهم بدت عليهم أمارات الأسف والاحتجاج، ولكن هذا يبدو أنه صدر من فرط أدبهم؛ حيث ظهر من ابتساماتهم ولهجتهم الصادرة من القلب، أنهم كانوا سعداء بما حدث.

أخيرًا، استطاع مبروك أن يتعرف على المعالم المحيطة به، فعلى البعد، كانت هناك قرية ينتصب فيها عديد من أبراج الحمام، وهي مألوفة ومعروفة لديه، فأخذ يحث حصانه قليلًا. وحوالي الساعة الثالثة من إشراقة الشمس، وصل مبروك إلى شاطئ النيل، على البعد، على الشاطئ الآخر،

حيث ترقد قريته، التي تحفل بعديد من أشجار البيلسان وأعواد النخيل، وخلفها تحقق من الجسرين، إلا أنه ما زالت هناك مسافة طويلة، عليه أن يقطعها، ولكنه شعر أنه يكاد يقع إعياء، إلا أن شريحة بطيخ، منحتها له فلاحة مارة وهي تبتسم، استطاعت أن تمنحه بعض القوة. أخيرًا وبعد لأي، شعر بحوافر جواده، وهي تدق على أحجار الجسر، لقد كانت تلك الفترة أقسى أوقات النهار حرارة، فيها يسعى الناس للاحتماء تحت الظلال. ومع ذلك، على الجانب الآخر من الشاطئ، عبر مبروك خط السكك الحديدية؛ حيث شاهد عددًا من الرجال، متجمعين في الجوار، معرضين أنفسهم إلى أشعة الشمس التي لا ترحم، كانوا هم جماعة من أهل قريته، ومن ضمنهم وقف والده.

***

الفصل التاسع والثلاثون

كان سؤال مبروك الأول، بعد أن شكر الجميع، الذين هنأوه بسلامة الوصول: «لكن إنتو قاعدين هنا ليه؟».

قال والده بلهجة حزينة: «والله، إحنا في انتظار وصول الإنجليز – ولاد الحرام، أقصد رجالة عرابي، كانوا عايزين يخربوا بلادنا. آخر قطر مليان بالعساكر وقف هنا قدام الجسر بالضبط، وكل اللي جواه طلعوا – البُعَدا اللي ما يختشوش – قطعوا الحشايش والبوص، وعملوا حريقة كبيرة تحت الجسر، غرضهم يخربوه. بص هنا، شوف العواميد سوده إزاي. بعد كده، فررر!- ضربوا نفيرهم وهربوا، مش مهتمين بينا إحنا الناس، اللّي نعرف ربنا اللي خَرَبوا بيوتهم؛ لأنه بالتأكيد، إيه المتوقع يحصل بعد كده لما الإنجليز، يوصلوا هنا ويلاقوا الجسر خربان؟ طبعا حيخربوا أقرب قرية، وأنا، العمدة، يجلدوني أو حتى يقتلوني! وإيه اللي يهمهم دول ولاد الضّلام – لكن، الحمد لله، إحنا قدرنا نخلص من شرهم. كانت الولعة شديدة خالص؛ لكن إحنا اشتغلنا ضدها ساعات بالنبابيت. وقدرت إنَّها تهبب شعر دقوننا وهدومنا، في الآخر، برحمة الله، اللي ما يحدها حد، قدرنا نطفيها، وما فيش حاليًا ولا جذوة لسه حية.

ودلوقتي، إحنا قاعدين هنا طول الليل لغاية الصبحية، عشان نقول للإنجليز عن الخدمة اللي إحنا عملناها. لكن أنت ضروري تروح البيت على طول، حتلاقي هناك أمك ومراتك، نازلين عياط وتعديد عليك.. ما سمعتش أي خبر عن «أخوك» رشيد؟ أنا خايف ليكون مات، الله يرحمه!... الحصان بتاعك ده هايل، وأنت فوقه شكلك محترم، كله عظمة... لكن ياللا على البيت طوالي؛ عشان تستريح لأنه باين عليك التعب».

استمر مبروك في سيره كما طلب منه، وسرعان ما كان يبكي وسط نسوة الدار الفرحين بعودته.. حيث ذاق الطعام، ثم رقد واستغرق في نوم عميق.

حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، بينما كان مبروك مستيقظًا يتحدث مع زينب، حضر أحد الأولاد متعجلًا ليخبره أن الإنجليز قد قدموا أخيرًا، وأن قطارهم قد توقف عند الجسر، وأن كبار ضباطهم خرجوا من القطار، لا يريدون الاستماع لحديث الفلاحين، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم بلغة غريبة. كان يبدو عليهم أنهم في حاجة لشيء ما، لكنهم عجزوا عن الإفصاح عنه، ربما وضع

ختم الكفر على ألسنتهم، وقد فكر الشيخ مصطفى أن يكون ابنه مبروك هو المترجم؛ لذلك أسرع هذا القادم جريًا.

أخذ مبروك يتسابق مع هذا الرسول. ومن نافذة كل عربة من قطار طويل واقف قبل الجسر، برزت رؤوس عارية، بوجوه ضخمة حمراء اللون، لهم عيون خابية باهتة، وأنوف عريضة.. كانت تشيع في الجو صيحات وضحكات، مع بعض مقاطع من أغنيات، بلا لحن أو طعم، وعلق على ذلك الولد القادم مع مبروك بقوله: «أغرب ناس بعتهم لينا المولى!».

كان هناك جمع من الضباط الكبار واقفين خارج القطار، يتحدثون محتارين فيما بينهم، بينما أحاط بهم الشيخ مصطفى، ومعه عدد كبير من الفلاحين مؤدبين، محاولين شرح الخدمة التي قاموا بتنفيذها، إلا أنهم كانوا يزاحون جانبًا من وقت لآخر بتعبيرات غامضة.

همس العمدة في أذن ابنه، وهو يدفع به إلى المقدمة: «الله رحيم يا عيوني! كلهم مخمورين، شيء يستاهل يتسجل ويتكتب في الكتب!».

ما أن لاحظ أحد الضباط اقتراب مبروك منهم، حتى التفت ناحيته بحدة، بدا كأنه سوف يضربه بالعصا القابض عليها، ولكن أمارات الغضب اختفت من وجهه، وحل بدلًا منها ابتسامة لطيفة، وهنا تذكر مبروك - وهو مرتعب - أنه ما زال مرتديًا زيه العسكري، ساورته في الحال بعض الشكوك من أنهم سوف يقبضون عليه وربما يشنقونه، لذا وكل أطرافه ترتعش، ألقى بتحية مقتضبة، ثم تحدث معهم بلغة إنجليزية سليمة، قائلًا: «ماذا ترغب يا مستر؟».

بهذا، تجمع الضباط كلهم حوله، وظهرت أمارات الارتياح على وجوههم، وظهر واضحًا أنهم لا ينتوون شنقه. بعد ذلك، قام رئيسهم بتوضيح مشكلتهم، وهي أنهم كانوا يتوقعون حضور ناظر محطة المدينة، التي تقع عبر الجسر لمقابلتهم هنا في هذا المكان؛ حيث كلف بذلك بناء على برقية، أرسلت إليه من طنطا، لكن لماذا هو غير متواجد هنا حتى الآن؟

قال مبروك: «إنه قادم الآن مباشرة، انظر»، ثم أشار ناحية الجسر الآخر، وعلى طول شاطئ النيل؛ حيث ظهر موكب من الكبارات، يتزينون بأفضل ما لديهم من ملابس.. فوق رؤوسهم الطرابيش، ويرتدون قفازات الأولاد، كما تنتصب فوق رؤوسهم شماسي بيضاء، يمتطون ظهور الحمير، وبرفقتهم جمهرة من الراجلين، يقتربون بعجلة واضحة غير جديرة بالتقدير.

طلب الضابط الإنجليزي من مبروك أن يظل معهم، ويكون مترجمًا؛ إذ تم تكليف مترجم بأن يكون في صحبتهم، ولكن اتضح أنه محتال؛ لأنه هرب منهم. هل في إمكانه، وهل يسمح وقته بأن يرافقهم حتى وصولهم إلى العاصمة؟ فأجاب مبروك مغتبطًا: «بكل سرور يا سيدي».

اقتربت هذه الكوكبة الصغيرة من الرسميين مسرعة، يزيحون العرق، الذي تجمع على وجوههم، يطلبون العفو والسماح، حيث كان بجوار ناظر المحطة وموظفيه، مدير المديرية، ونائب المدير، والقاضي، وبعض الحضور الآخرين؛ إذ بدأ المدير في إنشاء خطبة عصماء باللغة الفرنسية؛ لذا سأل الضابط: «ما الذي ينطق به هذا الرجل؟» .

- «يقول إنكم قد شرفتم بلادنا؛ وأهلًا وسهلًا بكم أيها السادة الكرام».

شخط القائد الإنجليزي قائلًا: «استدعِ ناظر المحطة»، بينما لم يكن المدير قد أكمل خطابه.

شعر مبروك بالاغتباط، وهو يلاحظ تلك المعاملة المتعالية مع الجميع ما عداه؛ لذا عندما قال له القائد أن يخبر ناظر المحطة بأن يأتي معهم، حتى فيما بعد الجسر، وكنوع من الاعتياد، اقتبس لهجة متعالية من هؤلاء، وخاطب الناظر بكل ازدراء :

- «اركب القطر يا أخينا، إذا حصل أي شيء غلط، حيضربوك بالرصاص ويموتوك!».

أطاع هذا المسكين الرجراج على الفور، وهو مرعوب.

أخبر مبروك والده بذلك الفخر والتقدير الذي ناله، وأنه - بدعوة من الضباط - سوف يركب معهم عربتهم.

وبينما القطار يتحرك، صاح الفلاحون: «أنت مبروك يا مبروك!»، بينما ارتسم الحزن على وجوه المدير وكبار المديرية، وأضاف الفلاحون، بينما القطار يتحرك: «اتكلم عنا يا مبروك، أنت محظوظ. أوعى تنسى أصحابك بتوع زمان، كمان ما تنسى بيت أبوك».

***

الفصل الأربعون

لم يهنأ مبروك إلا لفترة قصيرة، ورغم أن كبار الضباط الإنجليز عاملوه - أثناء رحلة القطار - بكل ذوق، وهذا جعل الوقت يمر سريعًا، كأنما هو غارق في حلم ظريف؛ إذ لقد تقبلوا دون تساؤل مسألة تعرضه لمرض عنيف، متقبلين فكرة أنه ظل نائمًا ساكنًا بينما كان زملاؤه يتقاتلون، هذا ما حكاه لهم؛ لكي يهدئ مشاعرهم نحوه، حتى لا يعتبرونه عدوًا نشطًا، وربما يوقعون عليه حكم الإعدام.. لكن، مع الوصول إلى العاصمة، أخذوا يتناقشون فيما بينهم همسًا، ثم - بنوع من الإحراج - قدموا له ما يوازي تكلفة عودته إلى بلدته؛ فردَّ عليهم بكل إحساس بالكرامة المجروحة:

- «لا.. أبدًا يا سادة! من فضلكم لا تفكروا أبدًا في هذا الموضوع». لقد شعر كأن روحه قد سحبت منه؛ بسبب ذلك الطرد المفاجئ؛ إذ كان ما يزال يتصور نفسه باعتباره اليد اليمني لهذه القوة الجديدة، يقود تلك اليد، سواء في مجال العقوبة أو الانتقام.

ومما أضيف إلى متاعبه، أنه ما كاد يخطو خارج المحطة، حتى تذكر أنه لم يحضر معه أي نقود، فلم يكن أمامه سوى أن يسير على قدميه حتى منزل علاء الدين، عارضًا أن يكون ضيفهم لهذه الليلة. لقد كان الطريق طويلًا، لذا مع شعوره بالتعب والغم، وما تعرض له من استثارات مؤخرًا أن تفتق جرحه مرة أخرى؛ مما جعله يشعر بألم ممضٍ، مع كل خطوة يخطوها.

لاحظ مبروك أن الشوارع أصبحت أكثر حيوية ونشاطًا مما يتذكر، فكل الطرق يشغلها أناس سعداء مبتسمون؛ لذا كان يشعر أنه الوحيد الذي يعاني، يجر أطرافه جرًّا، نصف ميت، وهو وسطهم.. راح مبروك يفكر في مقصده؛ إذ لم يعد قادرًا على أن يتحرك أكثر من ذلك؛ لذا جلس خلف حائط، وأخذ يدعو الله أن يمده بالقوة، لقد كانت قمم المنازل المقابلة تبرق بأشعة شمس المغيب، ودفؤها أعلى من مبتغاه، تطوف عاليًا كما لو كانت سحابة تسير مع الهواء.

في هذا الموقع وذلك المكان، تصادف أن مر عليه بائع الحلوى، بعد جولته التسويقية، فعثر عليه وهو مغمى عليه، لذا وهو يبكي وينتحب، دبر أن يتم نقله حتى منزله وجعله يرقد على سريره، ثم أسرع ليستدعي طبيبًا. لكن هذا الطبيب الذي قصده كان خارجًا، إلا أنه كان هناك شخص آخر يسكن معه، وما أن سمع هذا أن هناك ضابطًا من الجيش المنسحب يعاني من جراح، حتى رمى من يده الكتاب الذي يقرأ فيه، ثم سأل هذا الرسول المنتحب:

- «أنا كمان حكيم، انتظرني دقيقة، أروح معاك»، ثم وضع على عينيه نظارة ضخمة، جعلت شكله كالعفريت، وبعدها سحب كيس به معدات الإسعاف، وذهب مع علاء الدين.

اتضح بعد ذلك أن هذا الطبيب هو ذاته، الذي قام مبروك بمساعدته، حين ضربت قلعة (أدا) بالقنابل، فقام الرجل بإبراز كل مهارته في معالجة مريضه العزيز، بل حتى فضَّل الانتقال للعيش في هذا المنزل نفسه، وهو بيت حقير. لكن على الرغم من هذه الحقيقة، لم يهتم بذلك؛ لأنه في الواقع - كما أوضحت مسألة ارتدائه تلك النظارة الضخمة - كان في حالة من الاختباء، فكما حدث مع كثيرين من أصدقاء عرابي، كان يخشى انتقام الإنجليز؛ وهو الآن يرتعش، عندما يتذكر جرأة مبروك لحضوره إلى هذا المنزل، عبر الشوارع المزدحمة، معلنًا للناس كلها أنه كان جنديًّا بسبب ارتدائه هذا الزي الملعون.

قال الطبيب مخاطبًا علاء الدين، وهما جالسان بجوار هذا المجروح المغمى عليه: «لكن هو بصراحة ولد شجاع، جرئ وشيطان بارع! أتذكر إزاي أنه أثناء ضربنا في القلعة بالقنابل أظهر عدم اهتمامه ووقف قصاد فتحة الضرب، بينما المراكب نازلة ضرب فينا».

علَّق بائع الحلوى، بينما ترتسم ابتسامة حزينة على وجهه، قائلًا: «أيوه صحيح، أنت تقول الحق، والله، هو راجل من ضهر راجل. لما كان لسه صغير عن كده، كان بيصادق أكتر الناس شقاوة، وعمل حاجات ما يقدرش ناس عاديين يعملوها. في حياته، هو أشجع راجل عرفته، كمان هو ملك الكرم كله. وكل ما أمتلك حاليا راجع إلى كرمه معايا، أرجو من الله أنه يسامحه ويرحمه كمان!».

ردَّ الطبيب بمرح: «بإذن الله، هو لسه ما ماتش! روح أنت دلوقتي، هات الدواء اللي قلت لك عليه».

لمدة طويلة، تأرجح المريض ما بين الحياة والموت، كما تم استدعاء زوجته وابنه ليكونا بجواره، أما الجيران فإنهم تأثروا بما حدث لهذا الشاب الصغير، وحضروا أيضًا ليطلوا عليه فيتأوهون ويستصعبون.. كانت الغرفة كثيرًا ما تمتلئ حتى آخرها؛ مما جعل علاء سعيدًا بذلك، فهو يظن أن كثرة الدعوات التي تصدر من القلب، من الممكن أن تصنع المعجزات، أكثر من الدواء، في علاج صديقه.

أخيرًا، عندما استطاع هذا المريض أن يسترد بعضًا من قوته؛ بحيث يمكن له أن يخرج إلى الشارع، كان معلومًا أن الإنجليز أناس لا غبار عليهم، ولا يفضلون حدوث أذية لأحد، وقد امتنعوا

عن الإعلان عن تملكهم لهذه الدولة، أيضًا لم يسمحوا للأتراك بأن يعاقبوا سوى من حرَّكوا هذا التمرد، لقد كان كرمهم يمتدح كثيرًا، وكذلك سلوكياتهم وأسلوب تخاطبهم؛ فالشباب الذين اعتادوا اتباع السبل الحضارية بالقول «بنجو» (Banju) بالطريقة الفرنسية، ينطقون بها الآن «يوم- سا – سعيد» (Good-ah-day) عندما يتقابل أحدهم مع آخر. لقد أصبحت الحضارة الإنجليزية الآن هي الموضة، وتدفق كل شباب المدينة على الفنادق في الأحياء الإفرنجية؛ لكي يدرسوا الطريقة المثلى للمحاكاة.

تخلى الطبيب عن نظارته الضخمة، وسار يمارس عمله بلا خوف، بل وتقدم بطلب أن يحصل على وظيفة طبية في الجيش المصري، الذي سوف ينشئه الإنجليز من أجل الخديوي، كما تقدم أيضًا بتوصية عن مريضه، باعتباره من الضباط المتحمسين، فقد أصبح التوافق المقبول مع الأساليب الإنجليزية هو أغلى أمانيه، له ولصديقه أيضًا.

في اليوم الأول من شعور مبروك بأنه في صحة أفضل، صحب الطبيب في عربة إلى مقهى معين، يقع بجوار أكثر الشوارع ازدحامًا في الحي الإفرنجي؛ حيث أخذ المريض المتعافى ينظر حوله في فرحٍ غامر؛ إذ كان الشارع كله يتموج أمامه في ألوان زرقاء، وتمر أمامه عربات مطهمة، تجرها خيول تتخايل في سيرها، وفي وسط حركة السير تلك، شاهد ضمن هؤلاء الضاحكين من كل الأجناس، بعضًا من النسوة الأجنبيات ذوات الجمال البارع، كانت أشكالهن وقوامهن، كأنها الموسيقى الناعمة التي تدغدغ مشاعره وحواسه.

فكر مبروك في الحال في القصة التي طالما أسعدت أيام شبابه – قصة غرام كاميل وشارلاس – لذا استغرق في بعض الأحلام الشهوانية.. لقد كان كل الحديث الذي يدور حوله ينصب حول الإنجليز وأفعالهم الحسنة، وكل واحد من هذا الجنس يمر على الرصيف، يتلقى التحية، سواء بتحريك اليدين أو بالدعوات الصالحات.

كان مبروك في هذا الوقت كله عيون، يتجسس بها أمورًا مهمة على البعد، وينقل فحواها ومعناها لزميله؛ فقد لاحظ مثلًا قدوم عدد من عواجيز الفلاحين، يسيرون على الرصيف، وهم في حالة شاملة من العجب والتعجب، يحملقون في كل ما يقابلهم، بأفواه منفرجة، وقد استرعى انتباه صديقه الطبيب كذلك، فأخذ كلاهما يراقبان هؤلاء وهما يضحكان، وبينما هم يقتربون منهما، قفز مبروك من مقعده صائحا: «ده أبويا!».

أخذ الرجل العجوز ينظر حوله محتارًا، إلى أن وقعت أنظاره على ابنه؛ لذا صاح فرحًا، وسقط كلاهما في حضن الآخر وبكيا قليلًا، هذا بينما كان الطبيب في حالة جيدة من الحضور الذهني؛ بحيث قام باستدعاء الجرسون، طالبًا منه أن يقدم لكل شيخ من هؤلاء شيشة وفنجانًا من القهوة، وجلس كل منهم على مقعد شاكرين هذا الرجل الكريم.

صاح مبروك، بعدما انتهى سيل التحيات: «ودلوقتي يا أبويا، إيه اللي جابك هنا؟».

- «أمر كله نخوة وشرف يا ابني! أنت تعلم أنني وهؤلاء القوم – ناس تعتز بالشرف، وما فيش حد زيهم، ناس ليهم قيمة – إحنا كلنا أعضاء في وفد، نيابة عن كل عمد وجه بحري، انهارده الصبح كنا في مقابلة مع حضرة رياض باشا في وزارة الداخلية، طلبنا منه أن يسمح لنا بأن نقدم للجنرال النشط سير ولسلي، كمان أمير البحر سيمور، درع قديم وبعض المهمات العسكرية، تستاهل تكون هدية قيمة لهؤلاء المنتصرين، تعبيرًا عن شكرنا لهم ولأفعال الخير اللي عملوها لأرض مصر. والله، ده كان في إمكان الناس الأفاضل دول أنهم يعتبروا البلاد دي كلها ملك خالص ليهم، لكنهم يُشْكروا لأنهم رجعوا لنا تاني أفندينا اللِّي بنحبه. بل كمان كان فيه كلام، يقول إنهم مش حيعدموا المتمردين الأشرار، زي عرابي اللي خرب بيوتنا وحكمنا بالغلط، وتسبب في إنك تنصاب وكنت حتموت، وكمان أخوك رشيد يتسجن..

«بصراحة، غلط إننا نحارب الإنجليز الطيبين دول، وهما كما شفنا، سادة الكرم! لكن مع ذلك، ما أعرفش؟ لأنه الصبحية انهارده، أنا وزملاتي دول، شفنا واحد فقير، كان بيشحت منهم، فقالوا له امشي غور ولعنوه.. الشحات ده ما رضيش يسيبهم، وهما غضبانين؛ عشان كده طلب بركاتهم بس، واتعلق بيهم، وهو يعيط بحرقة، هما استداروا عليه ولعنوا أبوه، وكادوا يضربوه بالعصا. ده بصراحة عمل مش كويس يا ابني... مع ذلك، هما أسياد الرحمة! بقى أنت ناوي تلتحق بالجيش الجديد اللي الإنجليز ناوين يكوِّنوه لأفندينا؟ الحمد لله، دول معلمين شطار!... مع ذلك، مش عارف، كل الأمور اتغيرت بشكل محزن. أنا وزملاتي دول، كلنا محتارين. فيه أشياء كثيرة بتصدمني، اختلاط النضافة مع الوساخة، كمان الستات اللي مش متحجبين وماشيين في الشارع، وكثير من التصرفات الوثنية المنتشرة حاليًا، ربما الأمور تتحسن عن كده مع مرور الزمن، لكن أنا مش حابب كل اللي بيحصل ده، كلها أمور توضح قلة وضعف الإيمان. وندعو الله أن لا شيء من ده ممكن يوصل القرى بتاعتنا.. الله أكبر».

أخذ مبروك يضحك من شكوك والده، وهو ينظر بإعجاب لما يسري أمامه من مناظر متوالية؛ إذ شاهد عربة تحمل داخلها سيدتين أجنبيتين، شرعتا في الهبوط إلى الرصيف، وهنا تقدم نحوهما ابن من أبناء النيل وصافحهما، لقد كانت القضية بالتأكيد أنها أيام بزوغ الحضارة الكاملة – أيام شارلاس وكاميل – وقد قدمت إلى بلادنا أخيرًا.

(تمت)

المترجم

سمير محفوظ بشير ولد عام 1937، تخرج في كلية تجارة عين شمس عام 1958، وأحيل إلى المعاش كمدير بالجمعية التعاونية للبترول، عام 1997.

كتب عددًا من المسرحيات الكوميدية.

وترجم من الإنجليزية:

1. قصة جوجل.
2. ساعة عدل واحدة.

نشر له:

1. أبي طويل الساقين.

.2

شحـ

ـات

:

رجـ

ل

من

مـ

صـ

ر.

.3

الكا

تدر

ائية

.

.4

أصـ

دقا

ء

وكفـ

ـار.

.5

جنا

ح

النسـ

ـاء.

.6
يوم
يات
م
صـ
رية
.
.7
المنـ
زل
الـ
صـ
غير
في
ألنج
تون
.
.8
المنـ
زل
ذو
السبـ
عة
جما
لونا
ت

.9
الر
وائيـ
ـات
العـ
ربيـ
ـات
المـ
عا
صـ
را
ت.
1
.0
المهـ
ـاجـ
رو
ن.